الدكتور محمد خليفة

الاستشراق والقرآن العظيم

نقله إلى العربية المهندس
مروان عبد الصبور شاهين

راجعه وقدم له الأستاذ الدكتور
عبد الصبور شاهين

دار الاعتصام

الاستشراق
والقرآن العظيم

هذه ترجمة كتاب

The Sublim Qur'`an, and Orientalism

كتبه بالإنجليزية

الأستاذ الدكتور محمد خليفة

أستاذ الهندسة الكهربية بكلية الهندسة ـ جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م

القاهرة

الدكتور محمد خليفة

الاستشراق والقرآن العظيم

نقله إلى العربية
المهندس
مروان عبد الصبور شاهين

راجعه وقدم له
الأستاذ الدكتور
عبد الصبور شاهين

دار الاعتصام



تقديم

بين يدى الكتاب

للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين

هذا الكتاب (القرآن العظيم والاستشراق) جديد تماماً فى عالم الدعوة إلى الإسلام ، فما أعرف له مثيلاً فى الدراسات التى تناولت ظاهرة الاستشراق ، وتابعت أعمال المستشرقين ، وكثيراً ما نقرأ ، ونسمع، ونتابع المؤتمرات التى تذكر آثار هؤلاء مدحاً ، وقدحاً ، وتوسعهم رداً ونقداً ، فلا نقف من ذلك كله على شىء محدد ، اللهم إلا بعض الملاحظات الجزئية التى تتصل بأن فلانا من المستشرقين قال كذا ، أو أخطأ فى كذا ، أو أصاب فى كيت ، دون إحاطة بموضوع ، أو إلمام بقضية من خلال تفاصيلها الكثيرة ، اللهم إلا فى حالات استثنائية ، ذلك أن أكثر ما نعرف من سقطات هؤلاء القوم قد سنح لبعض الباحثين خلال تجواله فى عمل من أعمالهم ، وهى كثيرة ، وقد كان من المنطقى أن يعكف أهل الإسلام على ما يكتبه غيرهم من أتباع الديانات الأخرى ليروا ما فيه من الانحراف ، والتجنى ، والبعد عن الحق، والإغراق فى المغالطة ، والقصد إلى الباطل من خلال مناهجهم المغلوطة، ولكن التقصير الذى شاب مواقفنا فى هذه المرحلة أخفى عنا من أعمالهم الكثير ، واتسمت أحكامنا حيالهم بالتعميم الخاطئ ، والنقص المعيب ، والاختلاط فى المفاهيم حتى حشرنا المحسن منهم مع المسىء فى زمرة واحدة ، وجمعنا الصديق مع العدو فى مواجهة واحدة ، مع أن بعض المستشرقين قد أفاد الدراسات الإسلامية بالكثير من حيث المنهج

والتطبيق ، ولا سيما فى مجال الأدب واللغة والحديث الشريف ، وغير ذلك من المجالات ، ويكفى هنا أن نذكر الأعلام بروكلمان ، وفنسنك ، وجول لابوم ، وفلوجل .

ولا أحد ينكر أن ظاهرة الاستشراق قد اقترنت بظاهرة التبشير فى نشاطهما الموجه لخدمة أهداف الحملة الاستعمارية المسعورة على الإسلام ، وبلاد الإسلام ، حتى إنهما كانتا أداتين من أدوات البغى الغربى على العالم الإسلامى بكل ما استخدم من مفسدين وجواسيس ، بل إن المستشرق كثيراً ما كان مبشراً ينطوى كبده على مرارة لعينة ضد الإسلام وحضارته وأمته . ولكن بعض المستشرقين كانوا ـ لوجه العدل والإنصاف ـ معتدلين ، وطلاب معرفة ، يحترمون ما يجدون من دلائل الحق ، ويترفعون عن مضلات الهوى والغرض ، ويعلنون بكل شجاعة رأيهم الذى ينحاز للإسلام ، ويقرر تفوقه على سائر الأديان ـ على ما سيذكره مؤلف الكتاب ـ وهذا موقف فى منتهى الشجاعة والنبل ، لأنهم يتخذونه وهم فى عقر دارهم ، دار الكفر ، فلم يداهنوا ، ولم يجاملوا ، ولم يخافوا ، بل قالوا الحق وهم يعلمون أن أقوالهم ربما لا تجد فى ديار الإسلام من يقرؤها ، فنحن المسلمين قد أصابنا وباء الأمية الثقافية بالكثير من اللامبالاة ، وتلك آفة تمكنت بكل أسف من شبابنا بخاصة ، ومن جيلنا بعامة .

من أجل هذا أؤكد فى هذه الكلمة أن هذا الكتاب جديد .. جديد .. أنّى تأمله قارئه ، **فموضوعه** مركز على مشكلة محددة هى : (موقف المستشرقين من القرآن العظيم) ، وهى مشكلة طالما سمعنا عن هوامشها ، دون أن نواجه حقائقها ، وللمبشرين فيها باع طويل ، حاولوا به أن ينالوا من جوهر القرآن وتاريخه ، تعفيةً على آثار التحريف الذى تعرضت له كتبهم باعتراف مؤتمراتهم ، فصدق فيهم قول القائل : (رمتنى بدائها وانسلّت) ، فالقرآن كتاب لايأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه، وأهل الكتاب يدركون تماماً فرق ما بين القرآن ، وكتبهم التى وضعتها أهواء البشر ، ودست فيها ما لا يمكن أن ينسب إلى الله .

وقد انطلق المؤلف فى محاولته لجمع كل الآراء التى قيلت عن القرآن ، وكل النقدات التى صاغها أعداؤه ، خلال القرون الماضية ، فى مجال اللغة الإنجليزية ، واقتضاه ذلك أن يجمع الترجمان اللاتينية ، والإنجليزية ويدون ملاحظاته عليها ، ويسجل آراء أصحابها ، وكل ذلك فى ترتيب منهجى ، ومعالجة منطقية علمية ، حتى إن القارئ ليشعر وهو يقرأ الكتاب أن عباراته شخوص تتحرك على صفحات القرون ، والنتيجة أن يحيط القارئ بثروة من المعلومات عن الأشخاص ، وعن آرائهم المنحرفة ، وعن نقد هذه الآراء من خلال عرض آراء بعض المنصفين منهم ، المتعاطفين مع الرؤية القرآنية ، ومن خلال الدراسة المتأنية ، والمناقشة الهادئة والمقنعة ، وإن كان الاقتصار على المراجع الإنجليزية قد حرم العمل من آراء المستشرقين الفرنسيين[1] والألمان .

ومؤلف الكتاب : عالم من أكبر علمائنا الجامعيين ، ولكن الجديد فى أمره أنه (كان) أستاذاً للهندسة الكهربية فى جامعة القاهرة !! ألا يذكرنا هذا بالمفكر الجزائرى الراحل مالك بن نبى .، الذى كان أيضاً مهندساً كهربيا ، ثم تفرغ للفكر ، وكان من قوله رداً على سؤالى له عن سر هذه النقلة : « عندما تخرجت فى كلية الهندسة بباريس شعرت أن بلادى بحاجة إلى مهندس للأفكار أكثر من حاجتها إلى مهندس فى الكهرباء فتفرغت لدراسة مشكلات الحياة الإسلامية » .. ألا ما أشبه الليلة بالبارحة !! .

وقد عاش صاحبنا المؤلف ظروفاً شهد فيها حملات تتهجم على القرآن الكريم ، وعلى الدين الخاتم فى أوساط الشباب الأوربى والأمريكى

(١) تعرضنا لنقد آراء المستشرقين الفرنسيين ، من أمثال رجس بلاشير فى كتابنا (تاريخ القرآن) .

فتحركت فى قلبه الغيرة ، وانصهرت نفسه بتلك المشاهد التى تجلى فيها أثر الاستشراق ، ودعاواه المفندة ، فلم يجد بدًا ، وهو المتخصص فى الكهرباء ، من أن يكعف على دراسة آثار المستشرقين، ويناقش افتراءاتهم، بكل ما أوتى من إيمان صادق ، كان هو الرصيد الذى يعتمد عليه فى معركته الإسلامية ، وبكل ما أطاق من مناقشة بالحكمة والمنطق ، هما أمضى سلاح فى وجه هؤلاء ، يقطع حجتهم ، أمام أبناء جلدتهم ، وهم الهدف الأساسى لعملية التشويه الاستشراقى .

إن من المسلم قطعاً أن جيوش الاستشراق والتبشير لم تستطع ـ رغم تكثيف حملاتها خلال القرنين الماضيين ـ أن تحول مسلماً عن إسلامه، ولكنها استطاعت أن تنشر غيوم الشك الإلحادى فى أوساط الطلاب الشرقيين فى الغرب ، كما استطاعت أن تجند لحسابها مجموعات من المرتزقة الآكلين على كل مائدة ، من أحلاس العلمانية ، وفى مقابل ذلك وجدنا موجة من التحول إلى اعتناق الإسلام تنتشر فى كثير من بلدان أوربا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، نتيجة قوة المنطق الإسلامى أمام تهافت الدعاوى التبشيرية ، وقد أصبح الشباب الغربى لا يؤمن بشىء مما يقوله الكهنة والأحبار ، وهو يمضى فى طريقة حائراً بين اللادينية ، واعتناق الدين الحق (الإسلام) ، وهو موقف يفزع منه المسئولون عن الكنيسة الغربية ، حتى صاروا يتحيلون الحيل لجذب الشباب إلى الكنائس عن طريق إقامة حفلات الرقص المختلط ، والسماح بممارسة العلاقات الشاذة بين الرجال ، وبين النساء ، فى محاولة لاستخدام الجنس فى الدعاية للدين ، هكذا أصيب المبشرون فى بلادهم بهبوط فى الدين إلى درجة الصفر ، أو إلى درجة الرقص ، وهكذا بدأت شمس الإسلام تعشى أبصارهم ، وتجذب من حولهم أنصارهم ، ولا أحد ينكر مستقبل الإسلام الواعد فى أمريكا مثلاً ، على الرغم من كل الضغوط الصهيونية التى تمارس فى هذا المجال .

بل إن الملاحظة الدقيقة تشى بأن موجة الاستشراق بدأت فى الانحسار ، وتحولت بقاياها فى الوقت نفسه إلى ممارسة التبشير السافر ، وإلى استخدام الأكاذيب الوقحة ، ومن أمثلتها ما كان يجرى على لسان القس سواجارت فى محاوراته المشهورة مع الداعية الإسلامى أحمد ديدات ، ثم تكون النهاية الدرامية للحوار أن يضبط القس متلبساً بممارسة الفساد مع مجموعة من النساء ، ويسدل الستار على ملهاة أحد نجوم المبشرين العرابيد .

وعودة إلى الكتاب الذى نقدمه اليوم لنقول : إنه من أهم الكتب التى تلزم الدعاة إلى الإسلام ، فهو يزودهم بمعلومات غزيرة عن كل ما قيل عن القرآن ، فى كتب الاستشراق ، ونحن نجد بكل أسف بعض عناصر الهيئة الجامعية ينقلون هذه الأكاذيب ، وينسبونها لأنفسهم ، ويدافعون عنها باعتبارها المنفذ الرائج للتهجم على الإسلام من منطلق علمانى ، هؤلاء العلمانيون هم خلفاء المستشرقين فى بلاد الإسلام ، فكل ماركسى مفلس ، وكل علمانى أفاق ـ لم يعد يملك من الأفكار ما يدافع عنه ، بعد أن سقطت الماركسية ، وتعرت العلمانية ، وباعتبار أن كلا الاتجاهين (ردة) حقيقية عن الإسلام ، فلم يعد هؤلاء (المرتدون) يملكون ما يدعون إليه إلا التعرض للإسلام بالنقد والتجريح والتشكيك ، واللجوء إلى بعض الجدليات الساقطة للتخفى وراءها ، تمويهاً وحقداً ، وجبناً فى نفس الوقت .

ومن المؤكد أن هؤلاء العلمانيين سوف يختفون عما قريب ، فلم يَعُدْ لهم مكان فى المجتمع ، وهم الآن يقاتلون فى يأس معركتهم الأخيرة ، ولسوف ينتهون إلى الخسران بإذن الله .

من أجل هذا يتعين على كل الدعاة أن يدرسوا منابع الفكر العلمانى فى هذا الكتاب ، فكل شر على ألسنة العلمانيين له أصل فى كتابات المستشرقين ، وكل تلميذ فاشل من هؤلاء العلمانيين له أستاذ

حاقد من أولئك المستشرقين ، ينزُّ صدره قيحاً ، ويفرز عقله هراء ، ويصوغ خياله سمادير ، وكل ذلك يقدم للعلمانيين رصيدهم الفكرى الذى لا يزيد عن كونه منظومة من القيح والهراء والسمادير .

إن مهمة الدعاة فى عصرنا ليست بالأمر السهل ، فهم يواجهون فى الواقع نماذج من العقليات اللئيمة والمتحجرة فى آن ، يجدون ذلك فى إهاب أستاذ جامعى ، أو كاتب صحفى ، أو شادٍ غبى ، وثلاثتهم تجمعهم خصلة واحدة هى بغض الإسلام ، والحقد على أتباعه ، وهذا هو حق الإرهاب والتطرف وتحريك العنف ، ومطلوب من الدعاة أن يعملوا على إزالة هذا الكم من (القمامة العلمانية) بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يستخدموا فى مهمتهم هذه ثقافتهم الواسعة ، ومرونتهم الواعية ، وصبرهم على المجادلة بالتى هى أحسن ، وقوفاً فى وجه الإرهاب العلمانى والماركسى .

إن أمر الدعوة ـ مرة أخرى ـ لم يعد سهلاً ، حيث كان الدعاة السلف يهدون الناس بتحريك دوافع الخير ، والتعامل مع الفطر السليمة ، أما الآن فإن للباطل فلسفات ، وأفكاراً معقدة ، واعتبارات تختلط فيها العقيدة بالمنفعة ، وقد يكون من ندعوه متخصصاً فى الجدل العقيم ، متعمقاً فى الجهل المركب ، ومع ذلك نجده يحتل موقعاً مرموقاً ، ومركزاً مؤثراً ، وكل ذلك يواجه الداعية المعاصر بعقبات كأداء ، يتعين عليه أن يتغلب عليها ، أو أن يتجاوزها بمنطقه وذكائه وحرفيته ، وليس أمامه إلا أن ينتصر فى هذا الحوار مهما تكن صعوباته ، وإلا فقد سجل على نفسه الإخفاق فى مجال الدعوة المعاصرة .

ويبقى أمامنا فى هذه الكلمة أن نقول شيئاً عن مؤلف الكتاب ، فقد بذل ـ رحمه الله ـ غاية جهده فى مناقشة ما طرحه من قضايا ، وربما فاته الوجه الصحيح فى الاستدلال ، أو المعلومة الدقيقة اللازمة لتفسير موضوع ما ، وهو أمر تلافيناه فى هذه الترجمة العربية الأمينة

والمنقحة ، والتى ظفرت أيضاً بقراءة المؤلف قبل أن ينتقل إلى رحاب الله، أسبغ الله على جدثه فيض رحمته ورضوانه .

وأما المترجم فهو ولدى المهندس مروان ، وقد كان تلميذاً للمؤلف فى كلية الهندسة ، بقسم الكهرباء ، وهو توافق عجيب بين المؤلف والمترجم الذى أغرم بالكتاب ، وعكف على إنجاز ترجمته ، وتمرس باستخدام مراجعه ، فجاء عمله بحمد الله أميناً فى أدائه ، يستحق عليه التهنئة من أبيه الذى عاش معه هذه التجربة الغنية والموفقة ، كما يستحق نفس التهنئة من السادة القراء .

دكتور / **عبد الصبور شاهين**

* * *

مقدمة المؤلف

دفعني إلى وضع هذا الكتاب طموح نبيل هو الرغبة في تزويد قراء الغرب بمقدمة ذات معنى عن القرآن ، إذ قد يقال : إن القرآن ـ وهو الكتاب المقدس لنحو تسعمائة مليون من مسلمي اليوم ـ معروف جداً لغير المسلمين ، وخاصة في الغرب حيث يتوافر غذاء الفكر بغزارة من خلال ثروة الموارد المقروءة ، وبالتحديد لدى المتحدثين بالإنجليزية الذى تعودوا على حب القراءة ، وجبلوا على البحث عن معلومات تصف واقع المجتمعات الأخرى .

ولقد بات مألوفاً تداول كثير من المعلومات عن المسلمين بصفة عامة ، فى السنين الأخيرة ، نتيجة لاندفاع الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية من مختلف البلدان الإسلامية ، والتى تتطلب أحياناً مساحة أكبر من حقها المسموح به فى مانشيتات الصحف الغربية ، وفى البث الإذاعى والتلفزيونى ، وعندما يطرح سؤال : « ماذا تعرف عن القرآن ؟ » ، يأتى رد القارئ الغربى المتوسط : « لا شيء أكثر من حقيقة أنه كتاب المسلمين المقدس » (وعادة ما يخطئ فى التسمية ويقول : المحمديين) ، وربما يغامر ويضيف حدساً بأن الكتاب مجموعة من أقوال محمد ﷺ ، كتلك الأقوال المنسوبة لكنفوشيوس ، ويشمل أيضاً تاريخ محمد ، كما يشمل إعادة صياغة الكتاب المقدس ، وكذلك الشريعة الإسلامية ، ولسوف يتضح فى هذا العمل مدى بعد هذا التخمين عن الحقيقة .

ولقد أتيح للمؤلف ـ خلال السنين التى كان يجرى فيها أبحاثاً فى أحد الفروع المتخصصة فى الهندسة الكهربية ـ فرصة أن يشهد مناقشات حية مع الزملاء والأصدقاء الذين أمطروه بوابل من الأسئلة حول مختلف

الموضـــوعـــات فى الإســـلام ، وعن القـــرآن ، وعن مـــقـــارنة الأديان والأيديولوجيات ، ودارت هذه المناقشات خلال أوقات الراحة ، وكذلك خلال تجمعات تبرع بتنظيمها بعض الأعضاء المسئولين فى الكنيسة ، وفى المجتمعات المختلفة .

لقد وجدت ـ فيما عدا الاستثناءات الفردية ـ أن السمة المشتركة والسائدة كانت وجود سوء فهم جوهرى يتعلق بالإسلام وبالقرآن ، مع تطلع شديد لمعرفة الحقيقة من خلال مناقشات متفتحة هادئة ، وبدون تعصب ، وبدون قفز إلى الاستنتاجات .

فمن أجل فهم مشاعرهم تجاه الإسلام ، ومن أجل إدراك طريقة فهمهم للموضوع ، درس المؤلف كل كتاب متاح تم نشره للدراسين فى الغرب ، وكتّابهم عن الإسلام ، وعن القرآن ، وفى غضون العقدين الأخيرين ، محّص المؤلف مجموعة ضخمة من المراجع لهدف هو أن يضع تحت الضوء صورة متكاملة لوجهات النظر الغربية عن الإسلام ، وبخاصة عن القرآن ، مع إضافة كل الظلال والتفاصيل الدقيقة إليها .

لقد كُتبت فى الغرب كتب كثيرة عن الإسلام ، لمؤلفين ذوى خلفيات مختلفة ـ منهم المسلمون والمسيحيون واليهود ، بل وحتى المعترفون بالإلحاد والماركسية ـ مما جعل المؤلف يشعر بأن كل الآراء حول الموضوع مسموح بها فى الأدب الإنجليزى ، فدور النشر والطباعة تخرج دائماً كتباً جديدة عن الإسلام كما يرى من مختلف الزوايا ، وذلك لاستثارة اهتمام القراء الذين يريدون أن يعرفوا قدراً أكبر عن الخلفيات الدينية ، والاقتصادية ، والسياسية ، لأولئك الذين يملكون مصادر الذهب الأسود ، فى تلك المناطق المضطربة دائماً فى الشرق الأوسط .

فهذا العمل ليس معداً بأى حال من الأحوال ليزاحم الكتب التى

لها نفس الاهتمام حول الموضوع ، كما أنه ليس الهدف منه أن يكون دراسة محكمة للإسلام ، ديناً أو أسلوب حياة ، إنما هو أولاً وقبل كل شيء يركز على (القرآن) ، إذ يبدو واضحاً أن هناك فارقاً كبيراً بين مقالة حول (القرآن) بشكل خاص ، وبين بحث شامل حول موضوع (الإسلام) ، فمع أن القرآن ربما يوصف بإيجاز فى مقالة حول الإسلام، وربما تذكر بضع آيات منه ، ويأتى تلخيص للفصول التى تتعرض لمحمد ﷺ ، وللمسلمين ككل ، ولكن لن يكون هناك مجال لغير ذلك ، عندما يكون الموضوع الرئيسى الذى يطرح للمناقشة هو الشريعة ، أو تاريخ فترة معينة ، أو أسرة حاكمة بعينها ، أو حياة مجتمع معاصر أو قديم ، أو شىء من هذا القبيل . بيد أن تناول القرآن ـ باعتباره الأساس الموحى للإيمان ، وما يقدم من منهاج للحياة لابد أن يكون مختلفاً .

أما عن الإنتاج الأدبى الضخم المكتوب بالإنجليزية حول هذا الموضوع ، فإن المرء يرى هذه الأعمال على صنفين رئيسين : فهى إما ترجمات للقرآن ، وإما مؤلفات وضعها دارسون مستشرقون اجتهدوا فى ناحية أو فى أخرى ، فأما عن الترجمات ، فإن المؤلف يعتبرها موجهة إلى القراء الذين تعودوا قراءة الكتاب ، وألموا بخلفياته التاريخية والدينية والأدبية ، فى حين تتخصص المؤلفات الأخرى بالتعامل مع الأسلوب القرآنى ، وتفسيره وعقيدته ، وغالباً ما تكون مقدمة من أحد الدارسين إلى دوائر محددة فى الدراسات الشرقية والإسلامية ، يريهم كيف ، ولماذا جاءت وجهات نظره مؤيدة لما جاء به الباحثون الأوائل عن نفس الموضوع .

وقد تركزت إحدى النقاط الدقيقة حول أصول التفسير القرآنى ، وهل هى تشريعية أو أسطورية ؟ أو أنها لا علاقة لها بهما ؟ .

ومن الواضح أن هناك حاجة ماسة إلى رؤية شاملة لكل ما يتعلق بالقرآن وحده ، على أن تكون مختصرة ، لتسهل قراءتها على غير

المتخصصين ، وتجيب عن الأسئلة الرئيسة التى تتردد فى نفس القارئ الغربى عن القرآن ، دون أن تكون مقصورة على فئة قليلة تفهمها .

ونسأل ؛ هل يمكن أن يقارن القرآن بالكتاب المقدس ـ سواء فى مجموعة أو فى جزء معين منه كالأناجيل الأربعة ؟ هل يقارن بالعهد القديم أو العهد الجديد ؟ وإن كان كذلك ، فبأى صورة تتم المقارنة ؟ وهل يوجد عديد من النسخ العربية للقرآن ؟ إن كان كذلك ، فكم عددها ؟ وما مفهوم القرآن عن الإله ؟ وماذا يقول عن يسوع المسيح ؟ هل تعرض مرة للأنبياء الكتابيين ؟ وإن كان كذلك ، فكيف يحكى قصة حياتهم ؟

إن كتب القدماء التى اعتبرتها بعض المجتمعات الشرقية مقدسة تعرف بأنها قد وضعها بعض الأنصار لفكرة دينية ، أو لتوجه فلسفى صادق ، وهؤلاء ربما عاشوا فى قرون متباعدة ، وقد حدث أن تنوولت هذه الكتب وأمثالها بالتعديل والتهذيب حتى انتهت إلى الأشكال التى نعهدها الآن ، فكيف إذن يتسنى للقرآن أن يقارن بهذه الكتب ـ حتى ولو وجدت نقطة يمكن أن تتم المقارنة من خلالها ؟

ولقد يبدو العالم فى حقبة العشرين سنة الأخيرة وكأنه ينكمش بصورة مفاجئة على النقيض مما كان عليه فى بدايات القرن ، فالمسافات التى كانت تقطع فى أسابيع بالبحر ، أصبح فى الإمكان قطعها فى ساعات على متن الطائرات فوق الصوتية ، كما أن الأحداث التى تحدث فى مكان ما بقارات أخرى ، أو حتى على كواكب أخرى ، أصبح من الممكن مشاهدتها فى التلفزيون عبر شبكات الأقمار الصناعية ، وكما تحدث بالضبط ، وبصورة مشابهة ؛ تجئ روابط الاعتماد المتبادل بين دول الغرب الصناعية والدول المسلمة ، حيث عمل البترول المتفجر على زيادة الدخل زيادة ضخمة ، مقرونة بالرغبة الملحة فى التقدم ، والطموح الشديد إلى التحضر ، جاءت روابط الاعتماد المتبادل لتقرب بين هذه

البلدان بصورة أكبر ، ومن ثمّ ؛ صار القارئ العادى فى المملكة المتحدة وفى أمريكا الشمالية أخيراً أكثر حذراً من الإسلام ، ولكن تضاعف اهتمامه بمعرفة كل شيء عن أتباعه ، وعن كيفية التعامل معهم ، وماذا يتوقعه منهم ؟

إن السلوك الفردى والاجتماعى للمسلمين ـ رجالاً ونساءً ومجتمعات ، ممن يعيشون فى الغرب ، وقد استطاع أن يكون مختلفاً عن الصورة التى تصورها الأفلام ، أو تتخيلها الروايات ، وأحياناً تسطرها المراجع المغرضة ، وهنا يرد سؤالان : هل يوجد أساس دينى لتصرف الناس؟ وكيف تستجيب أساليب حياتهم بصدق مع هذا الأساس ؟ أو هل يوجد اختلاف بين الإسلام المتمثل فى تصرف الناس ، وبين قواعد السلوك الموجودة فى القرآن ، والشاملة لكافة نواحى الحياة ؟ وعلى سبيل المثال ؛ ماذا لدى القرآن ليقول فى موضوع الأخلاق ؟ هل يعاقب العنف الذى يبديه بعض الأشخاص أو الجماعات ؟ وما الوضع الذى أقره للنساء فى المجتمع ؟ وإذا قامت بعض البلدان بتغيير قوانينها المدنية وعاداتها الاجتماعية لتوافق القرآن أو الشريعة ؛ فما الذى يجب على الإنسان أن يتوقع ؟ وهل سيكون هذا تغييراً إلى أحسن أو إلى أسوأ ؟

ومن المؤكد ؛ أن الطريقة المثلى للإجابة عن كل هذه الأسئلة لا تكون إلا بدراسة القرآن فى صورته العربية الأصلية ، تلك الصورة التى لم يحدث فيها أى تغيير منذ نزولها من أربعة عشر قرناً من الزمان . ولكن لننظر الآن ؛ كم عدد من يعرفون العربية فى الغرب ، ويعرفونها بالقدر الملائم للقيام بهذا المشروع ؟ إن الغالبية العظمى من المهتمين بالقرآن ، مهما كانت مجالات تخصصهم ، بل وحتى أولئك الذين يدرسون الإسلام والعلوم الشرقية غير العربية الفصحى ـ كل هؤلاء اعتادوا أن يقرأوا القرآن من خلال الترجمة ، ويجب أن نشير هنا إلى أن العربية الفصحى التى نعنيها هى اللغة النقية قبل اختلاطها بكم التعبيرات العامية

التى نبتت كالأعشاب الضارة فى كل بلد عربى ، ولقد يتردد المؤلف فى إضافة أنه برغم الأعداد الهائلة من التعبيرات والتراكيب الدارجة التى دخلت إلى العربية عبر الأجيال ، فإن اللغة الفصحى فى القرآن ظلت ناصعة شفافة للأذن وللعقل وللقلب ، لدى كل عربى بالميلاد ، بغض النظر عن مستوى تحصيله العلمى أو جنسيته أو مهنته أو خلفيته الثقافية.

والشيء المفضل لدى القارئ الإنجليزى المتوسط أن يأخذ واحدة من الترجمات العديدة المتاحة ، فغالبية هذه الترجمات مقتضبة ومصحوبة بملاحظات توضحية ضرورية لتثبيت الترجمات الحرفية وتقويتها ، ولا شك أن هذه الطريقة قد تخون الأصل وتجور عليه ، ومن ثمّ فهى تجور على القرآن ، ذلك أن الثروة الضخمة من المعانى التى تحملها أية كلمة عربية تتحول إلى ظل شاحب ضيق المعنى ؛ يرمز إليه بالكلمة الإنجليزية المقابلة التى ينتخبها المترجم ، وعلى ذلك لا يمكن للصورة الناتجة أن تعطى شيئاً من الانطباعات الظاهرة للعيان ، والناجمة عن الأفكار غير العادية ، والغنية التى توصل إليها المفسرون ، والمشاعر الروحية المعبر عنها فى الأصل العربى ، ولقد تصبح المعانى أكثر هزالاً عندما توضع الترجمة الإنجليزية مروراً بالترجمة الفرنسية أو اللاتينية ، وتوجد ترجمات كثيرة من هذا النوع فى الغرب ، لذلك ؛ نتساءل : ماذا ينبغى على القارئ العادى أن يفعل إذا أراد وجهة نظر معقولة ومتزنة عن الإسلام كما يمثله القرآن ؟ إن المستشرقين لابد أن يندفعوا إلى المقدمة مع كل متخصص إسلامى يقدم آراءه الشخصية ، كما لا ينبغى أن يستثنى من هذه المجموعة أولئك الماركسيون الذين لديهم تخصص فى الدراسة الإسلامية ، إذ كيف يمكنهم أن يقدروا موضوع أى دين حق قدره إذا كان مبدؤهم يرتكز على مقولة : « أن الدين هو أفيون الشعوب » ؟ إنهم ربما يتغاضون عن حقيقة أن كثيراً من مفكريهم لا يقبلون التراجع عن مبدئهم ، فيبحثون عن بديل للدين حتى لو كان

ذلك يعنى ممارسته سراً ، لذلك فعندما يكتب أمثال أولئك الملحدين موضوعات دينية لا يمكنهم مطلقاً أن يفهموا الموضوع بصدق ؛ فهم إما منافقون ، أو يعانون من انفصام فى الشخصية ..

ولقد يبدو ذا قيمة للقارئ العادى ؛ بجانب قراءته لترجمة جيدة للقرآن ، أن يتناول عدداً من أبرز التعليقات حوله ، والتى وضعتها مجاميع المستشرقين ذوى الخلفيات المختلفة ، القديم منهم والحديث ، فمنهم من تخصص فى العربية ، ومنهم من لم يتخصص ، أو لنقل : منهم الذين درسوا بالفعل النص الأصلى ، ومنهم من اعتمد كلية على الترجمة وعلى أفكار مستهلكة ثبت بطلانها .

ولسوف يصحب هذه المهمة صعوبات لا تقهر ، ولن يقوم بها إلا الدارسون المستعدون لقضاء سنوات من الدراسة الجادة المكثفة ، والذين يهدفون إلى بعض الدراسات العليا فى الإسلاميات ، ولكن القارئ العادى لا يمكنه بذل الوقت ولا الجهد ، وربما يكتفى بنظرة سريعة على أبرز التعليقات والنظريات والاتهامات التى أطلقتها جموع المستشرقين ، والتى تشمل أولئك المعروفين جيداً حديثاً ، فضلاً عن الذين اشتهروا فى القرون الوسطى .

لقد وضع المؤلف هذا البحث الطبوغرافى فى غضون العشر السنين الأخيرة أو تزيد ، وهو يتمثل فى الفصول الآتية ، فقد كتبت مئات الكتب بالإنجليزية منذ بدايات القرن ؛ هذا غير ما كتب فى القرون الوسطى ، فكانت الفصول لتجميع التعليقات حول القرآن وتلخيصها وتحليلها، وقد أبرزت مدى هائلاً من الآراء التى توضح وجهتى النظر المتباعدتين ، فإحداهما تصف القرآن بأنه : « مضجر ومشوش ومثير للخلط » وتصف الأخرى نفس الكتاب بأنه : « السيمفونية التى لا تضاهى . والتى تحرك مسامعها الرجال ، وتجعلهم يذرفون الدمع ويخشعون » .

لقد تم وضع وجهات نظر المستشرقين تحت عناوين مختلفة ، وتم كذلك تصنيفها إلى مجموعتين رئيستين : واحدة للتعليقات العامة والأخرى للتركيز على موضوعات معينة ، ويعطينا الجزء الأول من هذا العمل تعليقات عامة حول أسماء القرآن ، وخلقه وأسلوبه ، ومادته العلمية والترتيب التنزيلي لسوره ومقارنته بترتيبها فى المصحف ، ونماذج الأخطاء فى ترجمات إنجليزية معينة ، وكذلك حول المفاهيم الخاطئة المنتشرة ، ونماذج سوء الفهم كما خصص الجزء الثانى للتوسع فى بعض الأبواب كالمفهوم القرآنى عن الإله ، وعن الإسلام ، وعن قانون القرآن الأخلاقى ، وعن وضع المرأة ، وثم استعراض وجهات نظره عن تعدد الزوجات والطلاق والجهاد والرق وبعض المفاهيم عن العالم الميتافيزيقى ، وكذلك عن القضاء والقدر وحرية الإرادة .

يستخدم الكتاب الوصف العام (مستشرق) (Orientalist) ليعنى الدراسين المتخصصين فى الدراسات الإسلامية ، والذين يكتبون عن الموضوعات الإسلامية ، ونحن نرى أنها لفظة مريحة أكثر منها وصفاً دقيقاً ، ولسوف نذكر أيضاً كثيراً من آيات القرآن ، كما أننا سنستخدم أعمال كل من « أربرى Arberry » و«بيكثال Pickthall » و« علىAli » و« خان Khan » و« سيل Sale » بحرية ، وأحياناً مع بعض التعديلات التى يقوم بها المؤلف مستهدفاً منها التوضيح ، وعادة ما نفضل كذلك الإنجليزية الحديثة عن تلك المهجورة من أجل النقاء والشفافية ، فعلى حين نرى أولئك الذين يعتبرون « نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس » (English King James Bible) أحسن من نظيراتها من الترجمات الحديثة ، فإن كثيراً من الإنجليز يظهرون ميلهم للإنجليزية القديمة لجمالها الأخاذ لدى ترجمة القرآن بها ، فعلى سبيل المثال : لنقارن "behold" بـ "Look" وتعنيان (أنظر) ، ولنقارن "thou" بـ "you" وتعنيان (أنت) ، ولنقارن "unto" بـ "to" وتعنيان (إلى) .

ويمكننا ملاحظة وجود بعض التغيرات فى نقل الحروف لبعض الكلمات العربية إلى الإنجليزية ، وهو ما يتضح على سبيل المثال فى الكلمتين (قرآن ومحمد) .

والمؤلف يدرك تماماً عيوب عمله ـ والذى يدل على طموح شديد فى هدفه ، كما أنه حذر جداً من الفجوات التى تبدو فى معرفته ، والتى لم تجعله يستمتع بالسلام الذهنى الذى تقاسمه مع أولئك الذين اعتبروا إنجازاتهم كاملة ، ولعل عذره الوحيد هو أنه قد أدرك الحاجة الماسة لجمع شامل للمعلومات ولوجهات النظر حول كتاب الإسلام المقدس ، وذلك فى مجلد واحد للقراء المتحدثين بالإنجليزية ، فإن تمكن هذا العمل من خلق انطباع أكثر توازناً ، وفى نفس الوقت ذى قيمة علمية فى مجال هذه الدراسة ، فلا شرف أكثر من ذلك .

إن النجاح لا يحتاج إلا (فضلاً من الله ونعمة) ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

د. محمد خليفة

* * *

الباب الأول

تمهيد

القرآن وأسماؤه

لكل دين من الأديان الكبرى للبشرية كتابه المقدس ، إلا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يفخر بحق علي جميع الأديان بأن كتابه المقدس هو ذلك الكتاب الوحيد الذى بقى ثابتاً دون أى تحريف أو تبديل على الإطلاق ، منذ أن أوحى وسجّل لأربعة عشر قرناً مضت .

لقد أوحى القرآن إلى النبى محمد ﷺ فى غضون ثلاثة وعشرين عاماً ، مبتدأً فى مكة ، ومختتماً فى المدينة ، وهو يتكون من مائة وأربع عشرة (سورة) شاملة حوالى ثمانين ألفاً من الكلمات .

وكلمة « إسلام » تعنى الإذعان والطاعة للإرادة والمشيئة الإلهية ، ويرتكز الدين الإسلامى علي القرآن الذى تشمل تعاليمه نواحى الحياة الإنسانية فى الدنيا ، وفى الآخرة ، لذلك فالإسلام هو منهج حياة أكثر منه مجرد اعتقاد وطقوس ، كما أن فى القرآن إخباراً عن ديانات سابقة للإسلام كاليهودية والمسيحية ، بل وإخباراً عن أنبياء جاء ذكرهم فى العهدين القديم والجديد .

هذا تعريف موجز للغاية عن القرآن . وسوف نتناول فى فصول هذا الكتاب شرحاً للعديد من جوانبه ، كما نناقش أقوال المستشرقين عنها ، سواء منهم من كان فى العصور الوسطى أو عصرنا الحاضر .

هذا ويعّرف قاموس أكسفورد[1] (Oxford) القرآن على أنه الكتاب المقدس للمحمديين[2] (Mohammedons) الذى يحوى مجموعة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (The Concise Oxford Dictionary)

(٢) يرفض المسلمون بجميع فئاتهم وصف (المحمديين) كوصف لتجمعهم الدينى لأنه

الأقوال الشفهية للوحى المحمّدى المكتوبة بالعربية ، وسيتم فى الفصل القادم مناقشة: هل القرآن (وحى محمّدى) أو هو (وحى إلهى إلى محمد ﷺ) ، وكذلك جاء فى الموسوعة البريطانية (Encyclopedia Britannica) وصف للقرآن كما يلى : « هو الكتاب المقدس للإسلام ـ ذلك الدين الذى يعتنقه أكثر من ألف مليون من المحمديين ، وهم يعتبرونه كلام الله حقيقة . ولما كان استخدام القرآن فى العبادة وفى المدارس وغيرها يتم بدرجة أكثر كثيراً من إستعمال الكتاب المقدس فى كثير من البلدان المسيحية مثلاً ، لذا وجب علينا وصفه بحق بأنه أكثر الكتب قراءة فى الوجود ، وهذه الحقيقة وحدها كافية لإعطائه مزيداً من اهتمامنا وتقديسنا سواء كان هذا يلائم ميولنا ووجهات نظرنا الدينية والفلسفية أم لا »[1] .

واللغة التى نزل بها الوحى هى اللغة العربية، وكلمة قرآن(Qur'ân) تعنى أنه يقرأ ويتلى كثيراً ، وجذر هذه الكلمة هو (ق ر أ) وهى تشمل معنى القراءة أو التلاوة[2] ، لذلك فإن اسم (قرآن) يدل على نوع خاص من القراءة والتلاوة ، كما ذكر الكتاب نفسه فى سورة القيامة : ﴿ **فإذا قرأناه فاتبع قرآنه** ﴾[آية ١٨][3] والخطاب هنا لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ونلاحظ أن أول ما نزل من الوحى كان من سورة العلق : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾[آية ١] ، ومن ثم فإن الدلالة اللفظية للقرآن هى « ذلك الكتاب الذى يقرأ دائماً » ، ولا يطلق هذا الاسم إلا على كتاب المسلمين المقدس .

= يتصور خطأ أنهم يعبدون محمداً ﷺ بدلاً من عبادة الإله الواحد ، مع العلم بأنهم ولا شك يحبون محمداً ويشعرون بأنهم مدينون له بالكثير ، لذا فهم يصلون ويسلمون عليه دائماً .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت The New Encyclopedia Britannica .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) وفى المرجع انظر ص ٨٣ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry) كتاب « ترجمة القرآن ».

ولو نظرنا إلى صناعة الأدب قبيل نزول القرآن وفى صدر الإسلام ـ لوجدنا أن أقدم منتج أدبى هو هذا الكتاب المقدس ، والقرآن بذاته ينسب لنفسه ذلك ، كما يفعل فى كثير من الأحيان ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا** ﴾ [الإسراء : آية ٩]

ومن هذا يتضح أن الله سبحانه وتعالى ـ مصدر الوحى ـ هو الذى أطلق على القرآن اسمه .

وللقرآن أسماء عديدة ، ونادراً ما يذكر فى اللغة العربية من غير إضافة وصف له ، فهو مثلاً ـ (القرآن الكريم) و(القرآن الحكيم) و(القرآن المجيد) و(القرآن العظيم) ، وهو كذلك (والقرآن ذى الذكر) وتعنى القرآن المحتوى على عظات وتذكير لبنى الإنسان ، والتى ترجمها (سيل) (Sale)[١] فزادها غموضاً بأنه الممتلئ باللوم والعتاب ، فى حين رآها (رودويل) (Rodwell)[٢] على أنها الملئ بالتحذير والموعظة .

ونلاحظ أن كلا من هذه الترجمات لا تقدم إلا بصيصاً من الضوء فى الفيض الغامر الذى يعنيه الأصل العربى ، مما حدا بالمستشرق (كريتزيك) (Kritzeck)[٣] إلى القول بأنه : « لا تستطيع أية ترجمة إلا نقل أقل القليل مما يحرك قلوب الرجال ، ويجعلهم يذرفون الدمع عند إنصاتهم للقرآن » .

ومع أن هناك بعضاً من المسلمين غير المتحدثين بالعربية يصفون الكتاب على أنه (القرآن المقدس) (Holy Qur'ân) إلا أننا لسنا بحاجة فى العربية إلى استعمال كلمة (مقدس) ، لظهور قدسية الكتاب لدرجة لا نحتاج معها إلى إفصاح .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Kritzeck) وفى المرجع انظر ص ٨٣ .

ويطلق أحياناً على القرآن أنه (كتاب الله) أو (كلام الله) أو هو (نور وكتاب مبين) ، وقد ترجم (محمد على)[1] الاسم الأخير إلى النور والكتاب الواضح (Light and clear Book) وترجمها (أربرى) (Arberry)[2] إلى النور والكتاب الجلى (Light and Manifest book) .

وهناك أسماء أخرى ذات منزلة ومكانة ، فهو (الذكر الحكيم) ، وهو (ذكر مبارك) ، وهو (ذكر للعالمين) ، وهو كذلك (الصراط المستقيم) .

ولا جدال فى أنه من الممتع أن نذكر الترجمات المختلفة لاسم آخر من أسماء القرآن ، وهو (الفرقان) ، فقد ترجمه (أربرى) (Arberry) على أنه الخلاص (The Salvation) ، وترجمه (محمد على) على أنه الفيصل (The Discriminator) ، على حين ترجمه (بيكتال) (Pickthall)[3] إلى المعيار والميزان للحق والباطل (The Criterion for Right and Wrong) ، وترجمه (سيل) (Sale) على أنه التفرقة بين الخير والشر (The Distinction between Good and Evil) وترجمه (روديل) (Rodwell[4] إلى المنير المضىء (Illuminator) ، ولقد عدّد أحد الدارسين العرب[5] ممن لهم باع فى هذا المجال أسماء القرآن فوجدها لا تقل عن خمسة وخمسين اسماً وعنواناً .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Ali, M.) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pickthall) (ترجمة القرآن) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) (ترجمة القرآن) .

(٥) انظر السيوطى فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن ج١ ص ١٧٨ : أن الله سمى القرآن خمسة وخمسين اسماً وهى : كتاب مبين وقرآن مبين وكلام ونور وهدى ورحمة وفرقان وشفاء وموعظة وذكر مبارك وعلى وحكمة وحكيم ومصدق ومهيمن وحبل الله وصراط مستقيم وقيم وقول ونبأ عظيم وأحسن الحديث ومتشابه ومثانى وتنزيل وروح وعربى وبصائر وبيان وعلم وحق وهدى وعجب وتذكرة والعروة الوثقى وصدق وعدل وأمر ومنادى وبشرى ومجيد و زبور وبشير نذير وبلاغ وقصص، وسماه أربعة أسماء فى آيتين وهما: « فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة ». (المترجم) .

ولقد وصفه النبى محمد ﷺ فى حديث له [1]، إذ أسند الحارث عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخرجه الترمذى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجبا** ﴾ ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، خذها إليك يا أعور »[2] .

والمصحف هو أى نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالعربية ، فهى تعبر عن مجموعة الصحائف ، وقد استعمل هذا الاسم لأول مرة بعد حوالى ثلاثة عقود من وفاة الرسول ﷺ ، عندما جمع القرآن فى كتاب واحد فكان فى تلك الأيام المبكرة هو الكتاب الوحيد المعروف لأمة العرب التى كانت أميّة فى غالبيتها .

وقد افترض بعض المستشرقين أن كلمة (قرآن) ليست بعربية ، وأنها قد اشتقت من كلمة سريانية وتعنى (الدرس المقدس) ، ولكن مثل هذا الافتراض البعيد قد يبدو وقعه ضعيفاً عند مقارنته بالاستنتاج الدقيق القاطع بأن الكلمة فى الواقع عربية اشتقت من نفس الجذر (ق ر أ) ، وهو استنتاج تؤيده ملاحظة القرآن نفسه فى الآية : ﴿ **وقرآنا فرقناه**

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٤ .

(٢) الأعور مقصود به لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث (المترجم)

لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ [الإسراء اية : ١٠٦]

وللغة العربية فى الحقيقة جذور عميقة تمتد فى أعماق التاريخ ، كما أنها لم تخضع مطلقاً عبر الأجيال لمتغيرات مؤثرة كتلك اللغات الأخرى ، ولا ريب فى أن القرآن نفسه عامل رائع لثبات هذه اللغة ، فمنذ تنزيله والمسلمون من كل جنس ولسان حرصوا دوماً على تعلم لغته المهيبة حباً لله وللرسالة . وقد يبدو الفارق بين لغة القرآن العربية واللغة العربية المستخدمة الآن وذلك بعد مرور أربعة عشر قرناً ضئيلاً جداً ، إذا ما قورن مثلاً بالفارق بين الإنجليزية المتداولة فى وقت شكيسبير (Shakespeare) وإنجليزية أيامنا هذه ، فالأولى لا يكاد الإنجليز يفهمونها فى هذه الأيام .

كما أن نوعية اللغة العربية النقية الموجودة فى القرآن ساعدتها على أن تكون المرجع والأساس عند التعرض لدراسة اللغات السامية الأخرى كالسريانية والآرامية والعبرية ، والتى خضعت كلها لمتغيرات عنيفة وقاسية، وبالفعل ، لقد أعلن كل من أرنولد (Arnold) وجاليوم (Guillaume) أن الكلمات والمصطلحات العبرية التى فقدت مذاقها اللغوى فى غمار التعقيدات الموجودة بالمعتقدات اليهودية ، « يمكن لها أن تحصل على شرح مقنع ومباشر من المصادر العربية المشتركة معها فى نفس الجذر »[١] .

* * *

(١) انظر المراجع الأجنبية تحت (Arnold,.T. and Guillaume, R.) .

الفصل الأول

مصدر القرآن

وهذه أكثر النقاط خلافاً حول القرآن ، فمن ناحية يعتقد المسلمون اعتقاداً جازماً بأنه من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو كلامه سبحانه ، كلمة بكلمة ، بل حتى حرفاً بحرف ، وما هو إلا وحى إلهى نزل به الملك جبريل عليه السلام على قلب النبى محمد ﷺ ، وعلى مراحل ، وأن النبى كان بمجرد تنزيله وانتهاء وحيه يتبع قرآنه ، ويعيده بدوره ، ويردده كاملاً لصحابته الجالسين حوله ، بل ويمليه على كتبته ـ كتبة الوحى ـ الذين كانوا يكتبونه غير منقوص ، ثم يقرأونه عليه صلى الله عليه وسلم .

فى حين أنه من الناحية الأخرى ، يكاد يستحيل على غير المسلمين تقبل فكرة وجود أى كتاب يوصف بأنه من عند الله مباشرة ، وذلك لأن كل الكتب المقدسة لديهم وضعها أناس كانوا بلا شك ورعين ومتمتعين بسمو روحى عظيم ، ولكنهم بالرغم من ذلك كانوا بشراً من البشر ، وهو أمر ينطبق على العهدين القديم والجديد ، كما ينطبق على كتب الأديان الأخرى .

مصدر الأناجيل :

من المعلوم بالضرورة لعلماء الدين المسيحى أنه فى أثناء القرنين الأول والثانى كتبت أناجيل كثيرة قارب عددها المائة ، وكان منها إنجيل أندرو (Andrew) وإنجيل بطرس (Peter) وإنجيل توماس (Thomes) وإنجيل أبيليز (Apelles) وإنجيل بارثلوميو (Bartholomew) وإنجيل برنابا (Barnabas) .

واستمر الوضع كذلك حتى أواخر القرن الرابع سنة (٣٩٣ - ٣٩٧) حين عقد محفل هيبورجيوز (Hippo Regius) ومحفل كاترج (Cothrege) واتفق أقطاب الدين فى النهاية على الاقتصار على الأناجيل الأربعة لمرقس ولوقا ويوحنا ومتى (Mark, Luke, John and Matthew) وإضفاء الصفة الملزمة (Canonic Literature) على كل منها مع حرق باقى الأناجيل واعتبارها خارجة على الدين(Apocryphal) [1].

ووفقاً لتعاليم الدين المسيحى[2] ، « يتبع كل من الأناجيل الأربعة والتى اختطتها يد إنسانية ، أسلوباً وأفكاراً خاصة به ، وكذلك طريقة مميزة فى تأريخ الأحداث ، وقد تم - كما يقال - بتوجيه من الروح القدس » ، ومن ثم فإن تفسير أية تناقضات أو تعارضات بين الأناجيل يتم من خلال نظرية (التلون بالوسيط) (Colouring by the medium) وهى القائلة بأن الزجاج ينفذ الضوء ويعطيه لونه هو . وقد وضع هذه النظرية علماء اللاهوت المسيحيون[3] ، ولا شك فى أن نظرية كهذه غير معروفة على الإطلاق عند المسلمين ، فلا حاجة بهم إليها مع القرآن ، كما أننا إذا نظرنا أبعد من ذلك ، فإن الأناجيل لا وجود لها إلا فى الترجمات ، أما الأصول فقد فقدت منذ زمن بعيد ، وهو ما أثر كثيراً على الديانة المسيحية .

أصل الأسفار الخمسة :

يعد العهد القديم من نتاج كتابات اليهود ، وذلك على امتداد الفترة المؤرخة من سنة ألف تقريباً قبل الميلاد .

وقد كتب أنبياء المملكة الثانية (يهوذا)[4] كتابات تضمنت نصوص

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille) .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Von Grunebaum) وفى المرجع انظر ص ٩٠.
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) ص ٦٣ .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Caiger) .

(يهـوه) (Yahvist text) ، وهى التوراة وذلك فى القرن العاشر قبل الميلاد ، فكانت العمود الفقرى لصحائف موسى الخمسة ، وبعد قرنين من الزمان أضيفت نصوص النبى (إيليا) (Elohist text)والتى تمثل عقيدة مملكة الشمال ، وكونت هذه الإضافة مع السابقة كتاباً واحداً عرف باسم التوراة (Torah) ، وتمت إضافة (سفر تثنية الاشتراع) (Deuteronomy) فى نفس الوقت تقريباً ، وبعد ذلك وفى القرن السادس قبل الميلاد وبعد موت النبى (حزقيال) (Ezekiel) كتب حواريوه وأتباعه نصوصه وتعاليمه، وكتبوا كذلك الجزء الثالث من (سفر التكوين) (Genesis) ، وهو الجزء الكهنوتى (Sacerdotal) الذى أدخل فى نسج نصوص (يهوه) (Yahwah) ونصوص (إيليا) (Elohist texts) المكتوبة .

وبإلقاء نظرة على بقية الكتب فى العهد القديم ، فإننا نرى أن هناك (سفر الأمثال) (Proverbs) وقد وضع حوالى سنة (٤٨٠) قبل الميلاد ، وأيضاً (سفر أيوب) (Job) والذى كتب فى سنة (٤٥٠) قبل الميلاد ، و(سفر الجامعة) (Ecclesiates) أو (كوهيليث) (Ko-heleth) ويرجع تاريخه إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، تماماً مثل سفر (نشيد الإنشاد) (Song of Solomon) ، ومن ردود الأفعال المترتبة على ذلك ظهور (سفر أخبار الأيام) (Chronicles I, II) بجزءيه ، وسفر (عزرا) (Ezra) وسفر (نحميا) (Nahmiah) ، وكتاب الكهان (Ecclesiastious) أو (كتاب الكنيسة) (Sirah) والذى كتب[1] فى القرن الثانى قبل الميلاد واصلين بذلك إلى نهاية المطاف حيث يمكننا القول بأن العهد القديم لم يصبح معترفاً به ، ومعروفاً لدى الناس إلا بعد مضى قرن كامل على ميلاد المسيح .

(١) كتبه جيسوس بن سيراخ فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ويعرف بأنه كتاب الكنيسة (Book of church) ويضم حوالى أربعة عشر سفرا من العهد القديم ، وهى محذوفة من كتب البروتستانت والعبريين المقدسة (المترجم) .

كتب مقدسة لأديان أخرى :

يوجد العديد من كتب الدين لدى الهندوس ، حتى إنه قد شق علينا حصرها ، فبجانب كتبهم الأربعة المقدسة (الفيدا) (Vedas) والتى تحوى التراتيل (Hymns) ، وكتاب(أبانيشيدز) (Upanishads) الذى يحوى العقائد والتعاليم (doctrines) تأتى مجموعة ضخمة من الكتب التى تحوى الملاحم (Epics) والقصص الأسطورية القديمة (Puranas) ، حيث تعد هذه المجموعة هى الأقوى تأثيراً على الجماهير من الكتب المقدسة الأربعة الفيدا (Vedas) ، ولعل أبرز أسطورتين ضمن تلك الأساطير هما (رامايانا) (Ramayana) و(ماهابهاراتا) (Mahabharata) وهما اللتان يحتمل أن تكونا قد كتبتا فى القرنين الأولين من بعد ميلاد المسيح ، وتحكى الأسطورة الأولى (رامايانا) ـ وهى أحب أسطورة عند الهندوس ـ عن مغامرات الأمير راما (Rama) لذا يردد الكثير من الهندوس بعضاً من سطورها كل يوم ، أما الأسطورة الثانية (مهابهاراتا) فإنها عبارة عن منظومة شعرية طويلة مملوءة بالخيالات ، وأيضاً بالدروس والعبر والمبادئ الأخلاقية .

ومع أن الهندوس يعتقدون تماماً فى أن الكتب الأربعة المقدسة (Vedas) قد أوحاها الله إلى العرافين القدامى والمنجمين ، فإنه لا توجد علامات واضحة مؤيدة بالتواريخ والأسماء كما فى حالة القرآن ، أما عن الرامايانا فإن الشاعر (فالميكى) (Valmiki) هو فى الواقع الذى كتب باللغة السنسكريتية[1] ـ (Sanskrit)[2] .

أما كتب الديانة البوذية فهى (النيكاياز) (Nikayas) وهى عبارة عن أربعة كتب تقنينية وتشريعية تضم كل أقوال (بوذا) (Buddha) والتى جمعها أتباعه بعد موته بحوالى خمسين عاماً فى القرن السادس

(١) اللغة السنسكريتية هى لغة الهند الأدبية القديمة ـ (المترجم) .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Parrinder) وفى المرجع انظر ص ٤٥ .

قبل الميلاد [1]، وقد أضاف هؤلاء الأتباع أقوالاً أخرى نسبت إليهم ، ووضعت كلها معاً فى (نيكاياز تكميلية) (Supplementary Nikaya) حيث أكملت النيكاياز مع القرون بالأساطير والأشعار والقصائد الدينية والفلسفية والتاريخية ، ولعل أفضل هذه النيكاياز هى (ميليندا Milinda) وهى تهدف إلى إبراز المناقشة بين الملك اليونانى (ميناندر Menander) والزعيم البوذى (ناجاسينا Nagasena) ، ومن ثم فهذا دليل واضح تماماً على أن واضعى كتب البوذية كانوا بشراً ، وأنها لم تكن وحياً إلهياً.

أما عن كتاب (مقتطفات أدبية) (Analects) والذى كتب بعضه الفيلسوف الدينى فى بلاد الصين (كونفشيوس) (Confucius) والذى عاش ما بين سنة ٥٥١ وسنة ٤٧٩ قبل الميلاد ، وأكمل حواريوه وأتباعه بقية الكتاب ، واعتبره أتباع الديانة الكونفوشيوسية كتاب أخلاق ومثل ، وليس بكتاب دين ، ومع أن القدماء على عهد كونفوشيوس كانوا يوقرونه ويبجلونه ، ويدعون له وبدعوته فى المدارس الصينية ـ إلا أن الأجيال المعاصرة تعتقد أنه ما كان ليبجل هذا التبجيل ، حتى إنهم استبدلوا بصوره وتماثيله فى القاعات الكونفوشيوسية ألواحاً خشبية وأوراقاً وما شابه ذلك ، حيث إن أقوال كونفوشيوس يدينها أهل الصين حالياً وتوصف بالرجعية والتخلف .

ومن البدهى بالطبع ألا تعتبر كتب ماركس (Marx) وماوتسى تونج (Mao-tse-Tung) وحياً إلهياً ، والسبب بسيط ، هو أن هذه الكتب قد اعترف بها الشيوعيون الذين ينكرون صراحة وجود الله وفق (إلحادهم العلمى) (Scientific atheism) .

دعاوى المستشرقين حول مصدر القرآن :

يتضح مما سبق أن الإسلام هو ذلك الدين المتفرد بإيمان أتباعه

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية ج ٣ (صفحات ٣٧٤ ـ ٣٩٠) .

المتين بأن كتابهم المقدس منزل من عند الله ، ولقد أنكر الكتّاب غير المسلمين هذه الحقيقة عبر السنين بكل عناد وإصرار ، فقد ادعوا قاطعين أن القرآن قد كتبه محمد ﷺ إما بمساعدة أو بغير مساعدة من أحد ، حتى إن بعضاً من أقوال هؤلاء الكتّاب كانت جارفة شاملة ، دون أن يحاولوا تأييد مزاعمهم بأية إثباتات منطقية أو ركائز علمية .

فمثلاً أعلن سيل (Sale)[١] فى أول كتابه (ترجمة القرآن) والتى طبعت لأول مرة فى القرن الثامن عشر « أن محمداً هو مؤلف القرآن وواضعه دون أى نقاش ، وإن كان من المحتمل أن آخرين قد عاونوه فى عمله هذا معاونة كبيرة » .

وقد أعلن كُتّاب آخرون أمثال سير وليم موير (Sir William Muir)[٢] فى القرن الماضى ، وولاستون (Wollaston)[٣] فى سنة ١٩٠٥ ، ولامنس (Lammens)[٤] فى سنة ١٩٢٦ ، وأيضاً تشامبيون وشورت (Champion and Short)[٥] فى سنة ١٩٥٩ ، وجلوب (Glubb)[٦] فى عام ١٩٧٠ وأخيراً رودينسون (Rodinson)[٧] فى عام ١٩٧٧ ـ أعلنوا جميعاً مردّدين هذا الاتهام الجافى للمنطق تماماً ، بل إننا نجد ترديداً لنفس العبارات أيضاً على لسان مستشرقين آخرين مثل منيزس (Menezes)[٨] الذى قال : « لا شىء سوى أنه خلق وتلفيق من محمد » ، ومثل درايكوت (Draycott) الذى قال : « من خلاله ـ يعنى القرآن ـ تسبح أمارات عبقريته ـ يقصد محمداً ﷺ ـ حيث تعد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Muir) وفى الجزء الثانى من المرجع انظر ص ١٠.
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wollaston) .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) .
(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Champion and short) ص ٢٤٠.
(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Glubb) .
(٧) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (الإسلام والرأسمالية) .
(٨) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١٥٨ .

السور الأخيرة انعكاساً لطاقته التى تكاد تشع من الصفحات »[1] .

ولقد ادعى كثير من المستشرقين أن النبى ﷺ إما أن يكون شاعراً ، وإما مفكراً ، وإما مصاباً بداء الصرع ، وإما ساحراً ، أو أنه اعتمد فى وضع الكتاب على المصادر اليهودية والمسيحية ، حتى لقد أتى بعض مستشرقى القرون الوسطى بزعم عجيب ، وهو أن مسيحيين ويهوداً أعدوا خصيصاً لهذه المهمة ، وهم الذين جمعوا القرآن من رقع الكتاب المقدس (Bible) وذلك إرضاء لحاجة الجماهير المسلمة ![2] وبالطبع ثبت بطلان هذا الزعم القديم ، بل وسقط تماماً عندما سمح لمزيد من المعلومات الدقيقة بالتسلل إلى الظلام الغربى .

والواقع ، أن أغلب هذه الأقوال والمزاعم ليست كلها من تأليف المستشرقين واختراعهم ، فقد قالها قادة المشركين على عهد النبى ﷺ ، فلم تكن تلك الخصومات المليئة بالحقد والكيد تدخر وسعاً لتكذيب نبوته، واضعة فى اعتبارها أنه يعتبر تهديداً رئيسياً لسيادتهم كقادة للمجتمع آنذاك ، ولقد جاء ذكر مزاعمهم واتهاماتهم هذه للنبى بصورة حية وصريحة فى القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ .
[الأنفال آية ٣١]

وجاء فى القرآن أيضاً : ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدّق المرسلين** ﴾ . [الصافات آيات ٣٥ ـ ٣٧]

أليس بغريب إذن أنه عندما يردد المستشرقون المعاصرون اتهامات رددت منذ أربعة عشر قرناً يعتبرونها اتهامات جديدة ومحدثة ؟

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Draycott) وفى المرجع انظر ص ٣٣٥ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٣٤ .

الادعاء بأن النبى كان شاعراً :

وهذه الدعوى قدمها (ستوبارت) (Stobart)[1] منذ مائة عام تقريباً ، وكررها (بل) (Bell)[2] فى العشرينيات من القرن الحالي ، ثم كررت مرة أخرى مؤخراً علي لسان (رودينسون) (Rodinson)[3]، فكان زعم (ستوبارت) بعد قراءته للقرآن أنه « يمكن لأى عربى كتابته ويكفيه أن يلم بالملامح الخارجية لتاريخ اليهود وبالتقاليد الخاصة ببلاده ، وأن يملك ملكة الشعر وخياله » ، ولكن (بل) اختلف قليلاً لدى وصفه للنبى ﷺ بأنه شاعر فقال : « لكنه ليس بكلام العرب العادى ، حيث إن الموضوعات الدينية والتقوي لم يكن ليتطرق إليها أى شاعر آخر » ، أما (رودينسون) فلم يقيّم القرآن إلا علي أنه شعر اختزن فى العقل الباطن لمحمد ﷺ ثم نطق به وتخيل أنه وحي أوحي إليه .

ولعل قراء الشعر العربى وأبياته يدركون تماماً تميزها بوزنها وبحرها وعروضها وقافيتها ، وهى المقاييس الضابطة للمقاطع من حيث الإيقاع والصوت ، والتى يتحتم التقيد بإطارها بمنتهي الحزم ، ولو علي حساب المعني وقواعد النحو ، وكل هذا بلا شك يختلف تماماً عن أسلوب القرآن الأدبى .

الادعاء بأن القرآن ناشئ عن خيال النبى :

جاء كل من (أندرسون) (Anderson)[4] و(وات) (Watt)[5] بنظرية مشابهة للآخر تقريباً فى سنة ١٩٦٠ ، لقد وصف (أندرسون)

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Stobart) وفى المرجع انظر ص ١٠٨ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ٩٦ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٩٤ .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٥٦ .
(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) وفى المرجع انظر ص ١٥ .

القرآن بقوله: « إنه نتاج التفكير الرغبى[1] (Wishfull thinking) » وذلك إيماناً منه بأن الكلمات والأفكار والقصص المختلفة المنطلقة سواء من خارج حدود اللاوعى العقلى أو داخله لدى النبى محمد ﷺ هى التى أوجدت القرآن ، أما (وات) فقد توصل باستخدام الطرق الحديثة للتحليل الأدبى إلى استنتاج أنه ربما يكون النبى ﷺ مخطئاً فى اعتقاده أن القرآن هو رسالة إلهية ، فقال : « إن ما يبدو للإنسان ويخيل إليه أن شيئاً ما قادم له من خارج عقله قد يكون فعلاً آتيا إليه من عقله الباطن » ، ثم وصف القرآن على أنه « نتاج خيال خصب خلاق » .

ولكن نظرية (أندرسون) و(وات) تنهار تحت ضغط الحقيقة القائلة بأنه لا يوجد « خيال » آخر مهما كانت درجة « خصوبته » استطاع أن يولّد مثل هذه المعجزة أو حتى جزءاً منها .

وستتم مناقشة محتويات القرآن بطبيعته الخارقة فى الفصول القادمة، ولكن يجدر بنا الآن أن نذكر أن هذه النظرية التى أعلنها كل من (أندرسون) و(وات) ليست بمبتكرة ، إذ إنها موجودة فى القرآن علي أنها إحدى الدعاوى التى صرّح بها الكفار فى وجه النبى ﷺ ، ولكنه استخدم تعبير « أضغاث أحلام » بدلا من كلمة « خيال » ، ففى الآية الخامسة من سورة الأنبياء قوله تعالي : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ .

الادعاء بأن النبى كان مصاباً بالصرع :

أكد (سان بدرو) (San Pedro) وبعض المستشرقين الآخرين فى القرون الوسطي وما بعدها ؛ محاولة منهم لتفسير حقيقة الوحى الإلهى - أن النبى ﷺ كان مصروعاً ، بمعنى أن الشياطين كانت تسيطر عليه وتتحكم فيه [2]، وكذلك وصف (رودينسون) (Rodinson) القرآن

(١) رغبى : مبنى على الرغبة لا على الحقيقة والواقع ص ٩ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) .

مؤخراً بأنه هلوسة سمعية وبصرية وهذيان[1] ، ولكن هذه الدعـاوى لا أساس لها من الصحة ، ولا مجال للبحث فيها ، وقد أُعلن ذلك علي لسان الكتّاب العقلانيين والمنطقيين ومنهم (دانيال) (Daniel) الذى علق فقال : « إن وصف النبى بالصرع هو تفسير من ينشدون الضحك والتسلية لا الإرشاد والتعليم»[2] .

وهنا سؤال يطرح نفسه ، هل يؤدى مرض الصرع ـ وهو ذلك المرض المضعف الكئيب إلى أن يجعل من ضحيته نبياً ؟ أو حتى مشرّعاً قانونياً ؟ بل وأن يصبح فى مكان رفيع يحاط فيه بالإجلال والنفوذ عبر القرون ؟ [3]

كيف يتسني هذا ومثل ذلك المرض معروف علمياً بأنه يؤدى فى نهاية المطاف إلى تدهور تدريجى وفساد ذهنى ممثّلين فى ذاكرة ضعيفة وتناقص فى الذكاء والفطنة وشذوذ فى الطباع ؟

ومن المعروف من الناحية الطبية أن آثار نوبات الصرع هى التمزق والحزن الشديد لكل من المريض المعذب وجليسه الذى معه ، ولكن لا توجد أية علامات من هذا القبيل فى أدق التفاصيل عن حياة النبى ﷺ التى تهادت إلينا معرفتها الكاملة عبر القرون ، « بل علي العكس لقد كان يسيطر وبشكل واضح وقاطع علي كل قدراته وملكاته العقلية والشخصية وحتي آخر لحظة من حياته »[4]، فما كان محمد ﷺ ليخطئ فى حدسه أو ظنه ، أو تخونه قوته ولو مرة واحدة ، فحكاية الصرع هذه كان يمكن أن تنجح لو أنه حدث ذات مرة أن انهار تحت إجهاد الحرب، أو الجدال والمناقشة ، أو لو أنه غاب عن وعيه عندما واجهته أية صعوبة .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) وفى المرجع انظر ص ٧٧.

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (.Morgan K) وفى الرجع انظر ص ٥٦ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) .

وعلي ذلك ينبغى هنا أن نقرر حقيقة هى : « أن إرساء قواعد نظرية الصرع على أسطورة لم يحدث مثلها فى التاريخ مطلقاً هو نوع من الإجرام المرتكب ضد النقد التاريخى بصفة عامة » [1].

الادعاء بأن النبى ألف القرآن بمساعدة المصادر اليهودية والمسيحية

نأتى الآن إلى تهمة مكررة ومعتادة وهى أن النبى ﷺ قد وضع القرآن بمساعدة مباشرة من آخرين ، وبعد قراءة كتب أخرى ، هذا على الرغم من الحقيقة المؤكدة التى هى أميته وعدم معرفته بالقراءة والكتابة ، وكذلك وضعه للقرآن بعد أن تعلم من أى إنسان ذى خلفية يهودية أو نصرانية ... إلخ .

وعلى غرار الدعاوى المذكورة قبل ذلك جاءت هذه الاتهامات لتردّد مؤخراً بعد أن ردّدت فى القرون الوسطى .

ومرة أخرى ، ينبغى أن نقرر أن هذه الاتهامات ليست من مبتدعات هذه الفترة (القرون الوسطى) ، وإنما امتطى صهوتها الكفار على عهد محمد ﷺ ليغالبوه عندما استمعوا إلى القرآن ، وهو ما ذكر فى قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [يونس آية ٣٨]، وقوله: ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [هود آية ١٣] ، وأيضاً قوله : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ [النحل ـ آية ١٠٣]

لقد افترض البعض أن النبى ﷺ تلقى تعاليم المسيحية واليهودية إما فى أثناء ترحاله ، وإما أثناء إقامته بمكة أو المدينة ، فقد سافر فعلاً مرتين إلى الشام ، مرة وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، ومرة أخرى وهو

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Guillaume) وفى المرجع انظر ص ٢٥ .

في الخامسة والعشرين ، ولكن ذلك كان لفترات وجيزة قبل بعثته بمدة طويلة مما لا يعطي مسوغاً أو تبريراً للمستشرق (بودلي) (Bodley)[1] وللآخرين ليصفوه بأنه : « ذلك الرجل الذى قضى معظم حياته على سفر » ، أو أن « أسفاره الكثيرة والطويلة كانت سبباً ومصدراً رئيسياً لمعرفته الضخمة المكدسة[2] ، حيث إن تاريخ العرب الذى وضعه (سيل) (Sale) بصورة غير متحيزة سجل فيه أن رحلة محمد ﷺ الأولى إلى الشام كانت عندما كان عمره ثلاثة عشر عاماً، وذهب مع عمه (أبي طالب) ، وكانت لهما مقابلة وجيزة مع راهب يدعى (سرجيوس)[3]ـ أو (بحيرا)[4] ، ونذكر هنا أن المقابلة لم تكن فقط قصيرة ، ولكنها أيضاً حدثت فى وقت مبكر بحيث لا يمكن أن تؤيد الزعم بأن الراهب قد ساعد النبى فى مسائل الوحي ، وذلك للسبب الواضح والبسيط وهو أن الوحى بدأ بعد هذه الواقعة بقرابة ثلاثين سنة .

وهناك افتراض أبعد عن الحقيقة وهو أن محمداً ﷺ كان ملماً بالمسيحية أثناء وجوده بمكة ، ولعله سمع شيئاً من الأساقفة والرهبان ، علماً بأن هؤلاء الرجال كانوا يقطنون عند أطراف الشام ، وكان فى استطاعتهم أن يوصّلوا نشاطهم التبشيرى إلى المناطق المجاورة ، فقد نسب (بودلى) (Bodley)[5] و(جيب) (Gibb)[6] إلي بعض الأساقفة أنهم كانوا يبشرون بالمسيحية من فوق ظهور الإبل ، وذلك من خلال الأسواق التى كانت تعقد سنوياً فى (عكاظ) بالقرب من مكة ، ومنهم الخطيب (قس بن ساعدة) ، وهذا صحيح من الناحية التاريخية ، إذ إن

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) وفى المرجع انظر ص ٤ .

(٢) انظر قائمة المراجع السابق ص ٣٦ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodlley) .

(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٧ .

(قس بن ساعدة) هذا ، وأسقفاً آخر هو (أسد بن كعب) ـ كانا يلقيان العظات الكثيرة للعرب فى أسواقهم ، إلا أن سوء الحظ لازم نظرية هذين الطاعنين فى النبى ﷺ ، ذلك أن كلا من هذين الأسقفين مات قبل مولد محمد بأكثر من قرن من الزمن[1] .

وتأتى النظرية لتضيف إلي الأساقفة والرهبان اثنين من صناع السيوف المسيحيين الذين زعم كل من الكفار علي عهد محمد ﷺ و(زويمر) (Zwemer)[2] فى عصرنا هذا أنهما قد علّما محمداً، فقد كان كل من جبر ويسار[3] عبداً حبشياً من أولئك الذين اعتنقوا الإسلام، وكان مولاهما وهو من بنى الحضرمى يعذبهما ويقول لهما : « إنكما

---

(١) مقال الأستاذ جودة السحار بعنوان : تعليق على كتاب بودلى ـ مجلة الاعتصام ـ القاهرة ـ عدد يونيو ١٩٧٣ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Zwemer) كتاب (المسيح الإسلامى) ص ١٢ .

(٣) فى قصة هذين ذكر القرطبى فى الجزء ٥ ص ٩٤ : اختلف فى اسم هذا الذى قالوا : إنه يعلمه ، فقيل هو غلام الفاكهة بن المغيرة واسمه جبر كان نصرانياً فأسلم ، وكانوا إذا سمعوا من النبى ﷺ ما مضى وما هو آت مع أنه أمى لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمى فقال الله تعالى : ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ ، أى كيف يعلمه جبر وهو أعجمى هذا الكلام الذى لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلم محمداً فيقول : لا والله ، بل هو يعلمنى ويهدينى وقال ابن إسحاق : كان النبى ﷺ ـ فيما بلغنى ـ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد بنى الحضرمى ، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يعلم محمداً ما يأتى به إلا جبر النصرانى ، وقال عكرمة : اسمه يعيش عبد لبنى الحضرمى وكان رسول الله ﷺ يلقنه القرآن ، ذكره الماوردى ، وذكر الثعلبى عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبنى المغيرة اسمه يعيش ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية ، فقالت قريش : إنما يعلمه بشر ، فنزلت المهدوى عن عكرمة : هو غلام لبنى عامر بن لؤى ، واسمه يعيش . وقال عبد الله بن مسلم الحضرمى ، كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر ، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر . كذا ذكر الماوردى والقشيرى والثعلبى إلا أن الثعلبى قال : يقال لأحدهما بنت ويكنى أبا فكيهة، والآخر جبر وكانا صيقلين يعملان السيوف ، وكانا يقرآن كتاباً لهم . الثعلبى : يقرآن التوراة والإنجيل . الماوردى والمهدوى : التوراة : فكان رسول الله ﷺ يمر بهما ويسمع قراءتهما ، وكان المشركون يقولون : يتعلم منهما ، فأنزل الله الآية وأكذبهم . (المترجم) .

تعلّمان محمداً » ، فما يكون منهما إلا الاعتراض ويقولان : « لا والله ، بل هو يعلمنا ويهدينا » ، ويبدو أن (زويمر) كان يستحسن رأى سيدهما ويفضله على رأيهما .

أمـا فى الوقت الحـاضـر ، فـقـد افـتـرض كل من (منيـزس) (Menezes)[1] و(جاردنر) (Gardner)[2] أن هناك معلماً آخر للنبى ! وجزماً بأنه سلمان الفارسى الذى شارك فى كتابة القرآن ، وسلمان رضى الله عنه كـان أول أمره مؤمناً بالزاردشتيـة فى بلاد فارس وذلك قبل أن يعتنق المسيحية فى بلاد الشام ، ثم رحل إلى المدينة بعد ذلك حيث قابل النبى ﷺ وارتضى الإسلام ديناً . ولقـد سجلت حياة سلمـان فى التاريخ الإسلامى حيث عرف أنه هو أول من اقترح فكرة حفر الخندق للدفاع عن المدينة وذلك عندما غزاها كفار مكة وهددوها بمساعدة حلفائهم ، وكـانت فكرته الذكيـة مع مـا أرسله الله من رياح شـديدة وعـواصف ـ السبب فى صد الأعداء ودحرهم .

وكلنا يعلم أن الجزء الأكبر من القرآن ، أى حوالى ثلثيه ، قد أوحى فى السنوات الثلاث عشرة الأولى للبعثة ، قبل هجرة الرسول إلى المدينة ، حيث حضر إليه سلمـان ، ثم إنه لا يخفى أن أسلوب القـرآن الأدبى رفيع جداً ، لدرجة أن العرب المولودين فى الجزيرة العربيـة ، والمتمكنين من اللغة ، والذين حاولوا عبر السنين أن يحاكوا القرآن لم ينجحوا أبداً فى ذلك ، فما بالك بسلمان الأعجمى الفارسى المولد .

ولقد اتُّهِمَ محمد ﷺ أحياناً بأنه قد تعلم من معلم غير معروف ، ولعل التهمة الموجهة بناء على « أن كل القصص المطوّل عن أحبار بنى إسرائيل وأسباطهم وأنبيائهم ، قد جاءت فى القرآن تطابق تماماً ما جاء فى التلمود، فى تفصيلات كثيرة،والذى لاشك فى منشئه اليهودى »[3].

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١٦١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gardner) وفى المرجع انظر ٩٤.

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Roberts) .

وكــذلك زعم (رودينســون) (Rodinson) مقتفياً نفس الأثر ولكن بسذاجة مشينة ، إذ زعم أن محمداً ﷺ قد عرّب اليهودية والنصرانية استناداً إلي أنها يمكن بالفعل أن تجذب رجال قبيلته وذلك لأنها تحكى عن حضارات أكثر رقياً من حضارتهم [١].

ولكن(بل) (Bell) كتب ضد هذه الاتهامات فقال : « مهما كانت معرفة الرسول العميقة بكل من هذين الدينين ـ والمقصود بهما اليهودية والمسيحية ـ أو حتى معرفته بالكتاب المقدس ذاته ، فإنه لا يوجد على العلاقة بينهما دليل مقنع ، إذ إن سورة (الإخلاص) فى القرآن تشكل تعارضاً شديداً مع أحد المبادئ الرئيسية فى المسيحية »[٢]. ولا ريب أن نظرية (بل) أيدت بوضــوح ذلك التناقض الشـديد بين القــرآن والإنجيل،وهو ما نراه في بحث (بوكاى) (Bucaille) وعنوانه (الكتاب المقدس ، والقرآن ، والعلم) (The Bible the Qur'an and science) .

وبالإضافة إلى الفارق الشاسع بين المفهومين القرآنى والكتابى عن الله ، والتناقض الرهيب بين أساطير الكتاب المقدس وحقائق القرآن ، فإننا نذكر ذلك الموقف العدائى الذى وقفه مجتمع اليهود فى المدينة تجاه النبى ﷺ، وهو ما يعطي برهاناً بالغاً علي خطأ الافتراض الذى يقول بأن اليهود والنصارى قد ساعدوه فى كتابة القرآن، ولقد ذكر (بوكاى) (Bucaille) حججاً بالغة أيضاً فى هذا الصدد .

وقد ناقش بعض المستشرقين[٣] أخيراً تطبيقاً لطريقة النقد العلمى ما جعلهم يظنون ، وبئس ما ظنوا ، أن محمداً كان يجمع ما يتلى عليه من الأساطير والأشعار ، ثم يعيد صياغته ، ثم يراجع ما يتلى عليه ، ثم يكتبه بعد ذلك على الصورة المعروفة الآن بقرآنه »[٤] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ٧٠.

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (ترجمة بعض سور القرآن).

ولابد أن يشار هنا إلى أن الكتّاب والعلماء المهتمين بهذا الموضوع قد فحصوا وعاينوا أهم الحقائق المؤكدة ، فقد كتب (ابن تيمية) كتاباً فى نفس الموضوع فى القرون الوسطى قرر فيه من خلال أشياء أخرى أن النبى ﷺ كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب ، **وثانياً** : لقد أثبت أن أسلوب القرآن الرفيع قد بقى كما هو خلال فترة وحيه ثلاثاً وعشرين سنة ، وهل يمكن لأى مؤلف مهما عظم شأنه أن يصل إلى درجة الكمال فى أسلوبه لمدة طويلة كهذه ؟ وكما يسجل التاريخ فإنه لا توجد سورة أو آية أو حتى كلمة حدث أن روجعت وعدّلت . **ثالثاً** : إن العرب فى تلك الأجيال قد برعوا فى حفظ تاريخهم وذكرياتهم وحوادثهم بدقة ، فقد كانت أخبارهم تنقل حرفياً عن طريق التلقى بالمشافهة من مؤرخ إلي آخر عبر السنين ، ولعل (علم الإسناد) والذى يعنى بهذا الموضوع قد طوره العرب قبل أن تظهر الكتابة والطباعة على مسرح الأحداث ، فعلم الإسناد يشمل تصنيف المؤرخين حسب معلوماتهم ونشأتهم وأسلوب حياتهم وطبائع أصحابهم ، وفوق ذلك حسب درجة دقتهم فى تسجيل الأحداث وتدوينها وحفظها ، كما يناقش هذا العلم الطريق التى سلكتها الحادثة الواحدة التى أنبأت بها مصادر الأخبار وسلاسل الرواة والمحدّثين ، وكذلك تعليل وتفسير أية تناقضات فى الرواية.

وعلى ضوء علم الإسناد الذى ازدهر فى بلاد العرب ، لم يأت على لسان أي مؤرخ ما يفيد بأن محمداً ﷺ قد جلس وتعلم شيئاً من أحد ، أو حتى جلس وتشاور مع أصحابه إلا بعد أن أصبح نبياً ، ولا شك فى أن تاريخ العرب يذكر كل التفاصيل عن حياة النبى ﷺ منذ مولده ، حتى صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى .

ثم ذكر ابن تيمية أخيراً أن محمداً ﷺ لم يبشر بشىء مطلقاً إلا بعد أن وصل إلى سن الأربعين ، ولم يتفوه لسانه بمقطع من القرآن ذلك الذى يبدو مختلفاً تماماً عن كلامه وأقواله هو ، رغم فصاحته صلى الله عليه وسلم .

إذن ، فإذا فرضنا أن محمداً ﷺ كان قد تعلم فعلاً على يد راهب مسيحى أو على كاهن يهودى أو حتى من عبيد نصارى ، فإن نتائج ذلك كانت تكون كما يأتى :

١ ـ إن محمداً ﷺ لم يكن لينكر ذلك ، وذلك لأنه كان قد اشتهر طوال حياته بالإخلاص والأمانة والصدق فى القول .

٢ ـ لم يكن لمحمد ﷺ أن يبشر بدين يختلف جوهرياً عن المسيحية واليهودية ، وعلى وجه الخصوص من ناحية عقيدتهما الأساسية .

٣ ـ تحت ظروف واعتبارات المناخ العدائى والكائن بينه وبين الذين لم يؤمنوا برسالته ، خصوصاً اليهود والمشركين ، فإن اسم معلمه صلى الله عليه وسلم لم يكن ليظل مجهولا طوال سنى بعثته الثلاث والعشرين، أو فيما بعد ذلك .

٤ ـ كان من الممكن لمن علمه ـ أياً كان ـ أن يكتب كتاباً أو على الأقل جزءاً من كتاب يشبه الوحى القرآنى .

٥ ـ لقد عُرف اليهود فى القرآن على أنهم (أهل الكتاب) الذين عادوا النبى ﷺ وتحدوه بإصرار ، حتى إنهم أخفوا كتبهم عن بعضهم ، فكيف إذن استطاعوا أن يعلموه ما فى هذه الكتب فى نفس الوقت ؟ وحتى لو كانوا قد علّموه شيئاً ؛ أى شىء ؛ ألم يكن بالأحرى وارداً أن يكونوا أول من يعلن ذلك ليثبتوا كذب دعوته؟ وإنه لمن الصعب التصديق بأنهم علّموه القرآن ثم لم يعلموه محو الآيات الذّامة لهم فى القرآن .

٦ ـ لو لم يكن محمد ﷺ مخلصاً فى نبوته وأميناً فى تبليغ ما أوحى إليه لما اتبعه صحابته وأتباعه ، ولما كانوا متشبثين بتعاليمه كل التشبث ، رغم الصعوبات والاضطهاد الشديدين ، ولعله من الخصائص العظيمة فى شخصية محمد عليه الصلاة والسلام أن أحداً من صحابته لم يخنْه على الإطلاق .

٧ ـ إن القرآن يعزز ما جاء فى الكتاب المقدس من إخبار مؤكد عن الأنبياء والرسل السابقين ، وهذا ما يجعلنا نتساءل : لماذا لا يعد هذا التعزيز من القرآن أمارة واضحة على وحدة المصدر الإلهى الذى أوحى إلى إلى موسى وسائر الرسل من قبل ؟

٨ ـ ومادام لم يدخل موضوع صدور العهدين القديم والجديد عن الله ضمن الدعاوى المسيحية ، فلماذا إذن يعرّض محمد ﷺ محمداً نفسه وصحابته لخطر الاضطهاد والتعذيب من أعدائه بأن يزعم أن القرآن من عند الله إذا لم يكن كذلك حقيقة ؟

وفى ختام هذه المناقشة يجدر بنا تدبر الآيات القرآنية التى تتضمن القول الفصل فى مصدر القرآن :

قال تعالي : ﴿ **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين * إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم * إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون** ﴾

[النحل آية : ١٠٢ ـ ١٠٥]

* * *

الفصل الثانى

البناء الإلهى للقرآن

وتطرح البديهة سؤالاً : أيعد أسلوباً علمياً ذلك التأكيد الصارم بأن « القرآن هو نتاج عمل نبى الجزيرةالعربية بلا نقاش »[1] وبدون محاولة إقامة أية حجة أو برهان على ذلك ؟

ولكن ، هل يوجد أى دليل منطقى يدعم قول المسلمين بأن القرآن قد نزل على قلب محمد ﷺ ، الذى نقله بدوره دونما تغيير لكلمة واحدة ؟

نعم ، هناك دليلان رئيسيان على ذلك ، أولهما : أن الأسلوب الأدبى العربى فى القرآن يعلو ويسمو فوق أسلوب أى عمل أدبى آخر ، حتى ولو كانت أقوال محمد ﷺ ذاته وكلماته .

وثانياً : مضمون هذا الأسلوب ، والذى يغطى مدى لا نهائياً من الأفكار ، يمس جوانب لم تكن مطروقة وقتئذ من أى عقل بشرى ـ هذه المادة لم يكن ليستطيع أن يتخيلها النبى ﷺ أو أى من معاصريه .

ولنلق الآن نظرة تفصيلية على كل من هاتين النقطتين :

الأسلوب الأدبى للقرآن :

يتميز الأسلوب الأدبى للقرآن بوضوح مذهل يفوق فيه أى عمل من الأعمال العربية الأخرى ، سواء أكان قصيدة أم نثراً مسجوعاً أو غير مسجوع ، أم لغة عامية مكتوبة أو مقروءة ، أم حتى لغة النبى نفسه ، ولعلنا قد عرفنا مدى فصاحة محمد ﷺ ، وهو ما بدا جلياً فى الآلاف من أحاديثه وأقواله ، ولكن لم يثبت فى واحد منها أدنى شبه بالوحى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wollaston) وفى المرجع انظر ص ٩ .

المنزل ، ذلك الذى يعد قوة فوق التصور ، تغمر الروح بنور ساطع ، حتى إنه لما أدرك الكفار على عهد النبى ﷺ عظم القرآن وتفرده مالبثوا أن اعتبروا الكتاب ظاهرة غير عادية اعتادوا أن يسموها (السحْر) بعينه .

ولعل أحسن من قدّر الأسلوب القرآنى هم العرب ، وخصوصاً أولئك الذين عاصروا تنزيله والذين أتقنوا الأدب وكانوا مغرمين بالشعر الذى تعودوا أن يعلقوا أجوده وأحسنه على جدار الكعبة ، أقدس مكان لديهم ، وهناك حادثتان تثبتان إلى أى مدى بلغ إعجابهم بالقرآن ، لتناغمه فى أسلوبه الأدبى :

أولاهما : أنه كانت هناك قصيدة شعرية لشاعر اسمه (لبيد بن ربيعة) ، واعتبرت هذه واحدة من أعظم ما قيل من الروائع فى بلاد العرب على عهد محمد ﷺ ، ولم يجرؤ أحد من الشعراء الآخرين على تقديم أى شيء منافس لها ، إلى أن علّقت بعض آيات القرآن من سورة قرآنية بجانبها ، ولم يكد (لبيد)[١] - وهو الوثنى - يقرأ أولى تلك الآيات حتى بهره الإعجاب بما قرأ ، وأعلن اعتناقه الإسلام فى الحال ، وقال : إن كلاماً كهذا ليس من قول البشر ، وإنه ولا شك وحى إلهى[٢] .

أما الحادثة الثانية فهى تسجل (إسلام عمر) ، وقد كان (عمر

(١) فى الأصل خطأ (لبيب) وهو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ابن ربيعة ابن صعصعة الكلابى الجعفرى ، أبو عقيل الشاعر المشهور ، كان فارساً شجاعاً شاعراً سخياً ، قال الشعر فى الجاهلية ثم أسلم ، ويقال إنه ما قال فى الإسلام إلا بيتاً واحداً هو :

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويقال بل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى   حتى لبست من الإسلام سِربالا

ومات سنة إحدى وأربعين لما دخل معاوية الكوفة ، ويقال بلغت عمره مائة وخمسا وأربعين منها خمس وخمسون فى الإسلام وتسعون فى الجاهلية . (الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٥ ص٦٧٥) - (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) وفى المرجع انظر ص ٨٨ .

ابن الخطاب) « فصيحاً لا نظير له »[1] ، وكان أحد قادة المشركين الذين عادوا محمداً ﷺ بكل وسيلة ، ولكن القوم سخروا منه عندما أسلمت أخته متخذة بذلك موقفاً ضد إرادته ، بل وبدون علمه ، فما لبث أن هجم على بيت أخته والسيف فى يده ، فوجدها تحمل صحيفة بها بعض القرآن ، فطلبها منها ، وهنا حدث الشيء الرائع ، فهذا الرجل الذى عرف بعنفه وقسوته تغير فجأة ، فقد ملأت الآيات القليلة القوية الجميلة قلبه إعجاباً ورهبة ، وأحس بدافع يدفعه نحو النبى ﷺ ليعلن إسلامه ، ومنذ تلك اللحظة أصبح عمر بن الخطاب واحداً من الأعمدة التى يرتكز عليها المجتمع المسلم آنذاك ، كما سجل التاريخ الإسلامى .

ولقد ذكرنا آنفاً أن المشركين على عهد محمد ﷺ أصروا على نعت القرآن بالسحر ، وحاولوا بشتى الطرق أن يحذر بعضهم بعضا من الاستماع إليه مخافة أن يفتنهم عن دينهم ، ولكن أحداً لم يجرؤ أن ينكر سموّه الأدبى وجماله وروعته .

ثم ظهرت بعد ذلك على مسرح الأحداث مجموعة من المستعربين الذين كانت معرفتهم باللغة العربية جد ضئيلة ، لأنها لم تكن لغتهم الأصلية ، كما أنهم لم يدرسوها دراسة وافية ، وهؤلاء اللغويون نصّبوا من أنفسهم نقّاداً، وأطلقوا العنان لحكمهم على الأسلوب القرآنى ، فزعم بعضهم بأن فيه « أخطاء أدبية كثيرة » وأنه « مشحون بالجمل المبهمة والكلمات الغريبة» ، وكذلك زعموا أنه « يتضمن تناقضات لا حصر لها» ، بل لقد وصفوه « بأن به أخطاء نحوية وصرفية وأسلوبية كان من السهل تلافيها ومعالجتها » ، حتى إن هؤلاء اللغويين الأدعياء نعتوا الشكل القرآنى بالتعقيد وبالخلط المربك المحير ، وبعدم الإتقان والبراعة ، وأخيراً وصفوه أيضاً بأنه يحوى الكثير من الكلمات التى ليست إلا خطأ » [2] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Draycott) وفى المرجع انظر ص ٧٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) ، وكذلك تحت (Jeffery) كتاب =

وبعض المستشرقين أذهلتهم فواصل القرآن ، وعباراته ، وبخاصة تلك التى تتكرر فيه ، ولا ريب فى أن هؤلاء قد أساءوا فهم التغييرات فى الوقفات وهى تسهم فى تناغم أسلوبه الأدبى ودفعهم ذلك إلى استنتاج خاطئ مفاده أن الآيات قد « جمعت بطريقة مبهمة ، وأنها تبدو مفككة مبتورة المعانى »[١] .

وقد أكد مستشرق معاصر « أن الأسلوب القرآنى حافل بالتكرار الممل ، وأن ثروته المعجمية تعد ضئيلة ، وأن بناء الجملة به غير متقن ، وأن كثيراً من أجزائه يحوى حشوا مبالغاً فيه من الكلام المزخرف والتعبيرات البلاغية البيانية ، كما يحوى فى أجزاء كثيرة منه كلاماً ضد العقل والمنطق وذلك فيما يصفه من تسلسل الأحداث »[٢] .

وأعلن أخيراً عن زعم متسرع ومتهور وينم عن الجهل الشديد باللغة يرى أنه « لا يوجد شىء غير عادى فى الأسلوب القرآنى ، وأنه يمكن ببساطة شديدة تفسير تلك الفتنة الطاغية التى تسلب لب قارئيه ومستمعيه على أنها نتيجة لحالة افتتان سببها سنوات وسنوات من القراءة والترديد اللذين لا يفتران على لسان أولئك الذين اعتنقوا الدين »[٣] .

ورأى نفس المستشرق أنه لا يوجد شىء مختلف فى القرآن ، وافترض أنه كسجع الكهان (Kahins) ، علماً بأنه لم يذكر أى برهان يتكئ عليه فى ادعائه[٤] . ولنسأل هنا كيف يفسر هذا المستشرق اعتناق الملايين للإسلام بعد النظرة المتأملة فى القرآن ؟ وكيف يرى قبول

= (سور من القرآن) ص ٢٠ ، وكذلك تحت (Lammens) ، وكذلك تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٦ ، وكذلك تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٦ ، وكذلك تحت (Daniel) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص ٧٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wansbraugh) وفى المرجع انظر ص١١٤ـ٢٤٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٩٢ .

(٤) انظر المرجع السابق ص ٨١ .

المسلمين الأُول للإسلام وقد كانوا مبهورين بأسلوب القرآن الأدبى ، واعتناق بعض العلماء الغربيين فى تخصصات شتى للإسلام لدى قراءتهم للقرآن مترجماً ؟

ولدحض هذه الدعاوى فإننا نلجأ إلى التفريق بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية ، ذلك أن التركيب اللغوى للجملة العربية **أولاً** يختلف عن مثيله فى الإنجليزية من عدة وجوه ، مما قد يفسر ظهور ارتباك فى المعنى عند ترجمته حرفياً ، **وثانياً لأن** فعالية التكرار فى العربية تكمن فى قدرته على توصيل الحقائق الهامة الأساسية إلي القارئ حين يكون متقناً للعربية ، وعلى العكس تماماً عند القراء قليلى الإلمام باللغة العربية حيث إنهم يعتبرونه نوعاً من الزيادة المفرطة ، لذلك فإن المعنى ما كان ليؤدى دوره بهذه القوة لو كان التأكيد والتكرار بصورة أقل مما هو عليه ، **وثالثاً** : إن الوحى الإلهى لا يستهدف سوى أن ينتصر الدين على الكفر ، وأن تزرع النزعة الخيرة فى صدور الناس بدلا من الفساد والتعفن الأخلاقى ، وأن يغرص الاعتقاد والإيمان فى القلوب بدلا من الكفر والضلال ، ومن ثم فإنه من الصعوبة أن يجانب ذلك الوحى فنون البلاغة والبيان ويحيد عنها، **ورابعاً** : تعتبر جميع الكلمات المستخدمة فى القرآن سهلة وواضحة بالنسبة إلى الغالبية العظمى من الذين يتقنون العربية ، بالإضافة إلى أن هناك من الدارسين المسلمين الذين وضعوا مؤلفات لشرح بعض النقاط القليلة المحيرة للبعض الآخر من المهتمين بعلوم القرآن .

وأخيراً ، فإنه من المعروف كقاعدة أن أية خارقة من الخوارق الطبيعية لا تتم إلا بوساطة الوحى . أما عن الرد على القول بأن (ثروة القرآن المعجمية ضئيلة) فإن هذه المقولة ولا شك تبيّن ذلك القصور فى فهم هؤلاء المستشرقين بخاصة ، حيث إن البعد البيانى المذهل للقرآن الكريم ينقل إلى المتحدث العربى جمالاً وتناسقاً لا مثيل لهما ، وهذا ما يجعلنا نمثل هؤلاء المستشرقين بطفل صغير باتت معرفته بالماس فى

حدود ما يلم به بمروره أمام بعض محال المجوهرات ، ولكنه بالرغم من ذلك قد نصّب من نفسه خبيراً بالماس ، وزعم أنه قادر على تحديد الفوارق بين أنواع الأحجار الكريمة المختلفة .

وهنا يجدر بنا أن نذكر أن الباقلانى وهو أحد الأئمة العرب المبرزين قرر فى كتابه (إعجاز القرآن)[1] أنه لا يمكن لأى كائن أن يقدر إعجاز القرآن حق قدره سوى أهل اللغة والبيان ذوى الخبرة بعلوم اللغة المختلفة . ومن المناسب أيضاً أن نلاحظ كيف أن السيوطى[2] قد صنّف خلال بحثه فى هذا الفرع العلوم والفنون المنتسبة إلى القرآن ، وعددها إلى ثلاثمائة عنوان ، وهو ما سوف نتعرض له ببعض التفصيل فى الفصل القادم ، ولكن ينبغى للإنسان أن يقدّر مدى الفشل والعجز الذى يلاقيه شخص أجنبى عن اللغة أقحم نفسه فى دروب القرآن دون أن يلّم بالعربية إلا إلماماً سطحياً ، ثم يملؤه الغرور والجهل فيزعم أن القرآن « أدب مشوش حافل بجمل وتراكيب بعيدة عن الإتقان » ؛ ويصف كلماته بأنها « تحتوى أخطاء متلازمة سخيفة »[3] .

فلابد للإنسان أن يتعلم اللغة ويتفهمها ويمسك بزمامها جيداً قبل أن يتصدى للحكم على مواطن الجمال فيها .

ويعد البلاغيون عملية تكرار العبارات والجمل الصغيرة لأكثر من مرة فى الفقرة الواحدة من ضروب الروعة فى الأدب العربى شعراً كان أو نثرا ، لما تحمله من تذكير دائم للقارئ بالمعلومات الهامة أو بالفكرة المحورية التى تحويها تلك الفقرة ، كما أن مثل هذا التكرار المصوغ ببراعة .

---

(١) ذكر الإمام القاضى أبى بكر الباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) ص ٥١ : « فأما من كان متناهياً فى معرفة وجوه الخطاب ، وطرق البلاغة ، والفنون التى يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه ...» (المترجم) .

(٢) جلال الدين السيوطى ـ كتاب (الاتقان فى علوم القرآن) الجزء الأول ص ٦ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٥ ، وتحت (Lammens) ، وتحت (Daniel) .

يجعل من الفقرة وكأنها لحن بديع يتكرر فى الوقت المناسب تماماً ، من خلال سيمفونية موسيقية ، على الرغم من أن ذلك اللحن المتكرر قد يبدو لأولئك الذين فقدوا الذوق الموسيقى أو أصيبوا ببعض الصمم - وكأنه عملية تكرار روتينية آلية .

وهناك ملمح آخر من ملامح الكتابة العربية المتناسقة ، وهو ممارسة عملية تقديم بعض أجزاء فى الجملة ، لإعطائها توكيداً أكثر ، ولنأخذ مثلاً على ذلك من الجملتين الآتيتين :

الأولى : (على الله نتوكل) ، والثانية: (نحن نتوكل على الله)، ولسوف نلاحظ أن المعنيين ليسا متماثلين ، فالحالة الأولى فى التعبير تبدو ولا شك جازمة ومؤكدة بأن إيماننا بالله وتوكلنا عليه هو أقوى بكثير من إيماننا بأى شىء آخر ، بيد أن هذا النمط فى التعبير لم يدركه بعض المستشرقين الذين رفضوا القرآن بحجة أنه كلام يقلب الأوضاع المنطقية العقلانية (hysteron proteron)(١) .

إذن فكل ما تم نقده فى القرآن ووصف بالتناقض يجد تفسيراً آخر لدى البلاغيين العرب على أنه نوع من الشبه أو التطابق ، وكمثال على ذلك هاتان المجموعتان اللتان تعبران عن شيئين متناقضين تماماً وجاء ذكرهما فى هذه الآية : **﴿ قل من رب السماوات والأرض ؟ قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾** [الرعد آية : ١٦]

فكما أنه لا يمكن منطقياً اعتبار معدومى البصيرة متساوين مع ذوى البصيرة الصائبة ، كذلك لا يمكن اعتبار الظلام الدامس مشابهاً للنور

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wansbrough) ص ١٨ ، ص ١١٤ .

الساطع ، وبنفس المنهاج لا يمكن مماثلة أى شيء بالله تعالى ، فلا يستطيع أى من الشركاء أن يدّعى أنه يشاركه فى خلقه .

ولقد أبدى الفصحاء من أهل العربية عبر القرون إعجاباً عظيماً بالقرآن ، بل وفتنوا بالتناغم الأدبى فى أسلوبه ، على العكس من كثير من المستشرقين الذين بدوا عاجزين عن تخيل ذلك ، وافترضوا أن العرب لم يروا أو لم يسمعوا بالروائع المكتوبة فى اللغات الأخرى فيقول أحدهم: « لا تجد فى شعراء الإغريق من يقارن بهوميروس (Homer) ، ومن شعراء الرومانية من يقارن بفريجيل (Virgil) ، أما عن شعراء الإنجليزية فلا تجد إلا شكيسبير (Shakespeare) الذى لا يبارى »[1] ، والواقع أن عقد مقارنة بين القرآن وسائر الأعمال الأخرى لشكيسبير أو هوميروس أو فريجيل إنما هى مقارنة بلا أساس بالمرة للأسباب الهامة والرئيسية التى نوضحها فيما يلى :

فلا شك أن أحداً لا ينكر أن مسرحيات شكيسبير هى من روائع الإنجليزية فى الأدب والدراما ، لأنها قد كتبت للتسلية ، وقد تتضمن أفكاراً من التاريخ القديم ومن الأحداث المعاصرة له شخصياً ، كما أن لهوميروس قصيدتين شهيرتين هما (الإلياذة) (Iliad) و(الأوديسة) (Odyssey) وأن كلتيهما عبارة عن قصة ، فالإلياذة مثلا تصف النزاع بين (أتشيلز) (Achilles) وبين (أجاممنون) (Agamemnon) ، وتصف حروبهما ومهرجاناتهما وجنازاتهما أيضاً ، وكذلك اشتهر فريجيل بقصيدته (أيند) (Aeneid) ، ولكن قصائد هوميروس وفريجيل وغيرهما لم تكن إلا لهدف التسلية ، وليس لهدف التعليم والهداية، على العكس تماماً من القرآن الذى لم يكن أبداً موجها لهدف التسلية واللهو ، وإنما أوحى ليكون هادياً لدين ، وليكون قانوناً متحكماً فى التصرفات والسلوك ، ومبشراً للمؤمنين الدين يعملون الصالحات ،

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١٥٦ .

ومنذراً لأولئك الذين يغفلون عن لقاء الآخرة والعمل لها .

والقرآن لا يعد مصدراً للراحة والطمأنينة فحسب ، أو مبعثاً للرضا لأجيال متعاقبة من المتحدثين بالعربية ، وينبوعاً للسعادة والإلهام لها طوال أربعة عشر قرناً من الزمان ؛ إنه ليس كذلك فحسب ، وإنما هو المعيار والمقياس للغته التي صانها منذ تنزيله ، وهو مالا يمكن للمستشرق (منزس) (Menezes) أن يزعمه بأى حال فى أى كتاب وضعه .

وفى مقابل ذلك ؛ فإننا نرى مدى الصعوبة التي يواجهها الآن الإنجليز فى فهم اللغة التى كتب بها شكيسبير كتبه ، أو أى مؤلف آخر يرجع تاريخه إلى أربعمائة سنة ، فقد طرأت على تلك اللغات تغييرات كبيرة وشاسعة ، فأين هذا من القرآن الواضح الجلى للناطقين بالعربية على مدى أربعة عشر قرناً وإلى ما شاء الله ؛ هذا على الرغم من أن روعة أسلوب القرآن وبساطته وعظمته التى لا تضاهى تجعل منه ظاهرة فريدة ، فشكيسبير أو هوميروس أو فريجيل لم يضع واحد منهم مؤلفاً ومكث فيه ثلاثة وعشرين سنة دون أى شيء من المراجعة أو التغيير فى كلمة أو جملة ، كذلك لم يتمكن كتاب واحد من كتب شكيسبير أو غير شكيسبير أن يحرك الملايين من البشر ، ويحولهم من الجهالة إلى النور ، ومن التعفن الأخلاقى إلى أعلى درجة من درجات الشرف والنزاهة ، ومن الهمجية البدوية إلى الحضارة الأخلاقية .

بعض تعليقات المستشرقين على الأسلوب القرآنى :

وعلى الرغم من وجود المستشرقين الذين نقدوا أسلوب القرآن بدرجات متفاوتة من الحدة ، إلا أن عدداً آخر منهم أعجبوا به إعجاباً عظيماً ، فمثلا قرر (سيل) (Sale)[1] أنه : « من المعترف به أن لغة القرآن قد بلغت الغاية فى الروعة والنقاء ، ... وقد استند محمد إلى إعجاز الكتاب لإثبات حقيقة بعثته ، وأعلن تحديه لأعظم الرجال

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٤٧ .

وأكثرهم فصاحة ، فقد كان الآلاف من الطموحين فى ذلك الوقت يسعون إلى معارضة الأسلوب القرآنى ومغالبته ، لكن القرآن تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله » ، كما ذكر المستشرق نفسه « ولا شك أن أسلوب القرآن مذهل ، فهو جميل مشرق ، وهو مفعم بذوق شرقى ، فضلاً عن أنه ممتلئ بالتعبيرات الهادية المنمقة التى تنطق بالحكمة ، كما أن المواضع التى تذكر عظمة الله وصفاته هى الذروة فيما قدم الأسلوب القرآنى من فنون البيان » .

هذا ولقد لاقت ترجمة (أربرى) (Arberry) للقرآن إلى الإنجليزية استحساناً كبيراً من كثيرين ، وهو يقول عن أسلوب القرآن : « لا شك فى أن الذخيرة الهائلة من الإيقاعات الشعرية الدقيقة ، قد توافرت فى القرآن بصورة كاملة ، كما برزت فيه الأصول المعجمية ، والمجازات والاستعارات بقوة ، وبصورة شائعة فى النص القرآنى ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه دقيقة الأداء »[1] .

وما من شك فى أن الأسلوب القرآنى قد أذهل العديد من الدارسين الآخرين ، إذ لم تمنعه خصائصه الشعرية من أن يصبح وسيلة للتشريع وللشعيرة ، ودستوراً للأخلاق ، ومنهاجاً للمعاملات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والحربية ، ودليلاً للمصلى العادى ، ومسرداً للأحداث التوراتية والإنجيلية ، فهو كل فى واحد ، وكما قال المستشرق (بودلى) (Bodley) : « لقد حول هذا الكتاب رعاة الأغنام البسطاء والتجار والبدو فى شبه الجزيرة العربية إلى قوم ذوى بأس وإلى بناة إمبراطورية»[2] .

وهذا التغيير غير العادى يرجع إلى قوة الكلمات المختارة بعناية ، والموضوعة فى أماكنها بكل إعجاز وفن ، حتى فاقت قدرة هذه الكلمات

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry) كتاب (ملامح الحضارة الإسلامية) ص ١١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) وفى المرجع انظر ص ٢٣٩ .

على الأخذ بالألباب والمشاعر قدرة الموسيقى بمراحل كبيرة ، « ولقد نجح القرآن فى خلب لب أتباعه ، فى حين أن كثيراً من المعارضين تصوروا أن ذلك بتأثير السحر والكهانة »[1] .

« لا يكفي أبداً أن نخلع صفات الإقناع والروعة على القرآن ، فالعقل يتشبع بأفكاره الوضاءة ، ومسلّماته التى لا نقاش فيها ، ولعله ليس بغريب على القرآن الذى يتلى بخشوع أن يفجر الدمع من أعين سامعيه من المتحدثين بالعربية ، كما أن الناس لم تفتر عن التفكير فيه وتأمله طوال أربعة عشر قرناً حتى أصبح يمكننا القول بأنه بالنسبة إلى جزء كبير من الجنس البشرى نجد اللغة العربية وكتابها هذا منذ القرن السابع الميلادى تمثل بحق لغة الخلود »[2] .

وكان تعليق (جوت Goethe) على الأسلوب القرآنى قوله : « إن القرآن يبدو إذا ما اقتربنا منه أنه غريب عن قارئه ، ولكنه تدريجياً سرعان ما يجذب ويدهش حتى ينتزع الإعجاب من قارئيه فى النهاية انتزاعا»[3] .

تعليقات اللغويين العرب المحدثين :

لقد أشارت المراكز الأدبية الحالية بجامعة الأزهر بالقاهرة إلى الطرق الآتية التى يعجز بها الأسلوب القرآنى قدرة الإنسان ، ويتحدى بها أيضاً أية محاولة للمحاكاة والتقليد[4] :

١ ـ فصورة القرآن لا تعكس نعومة أهل الحضر ، كما أنها لا تعكس الغلظة البدوية لأهل البادية ، ولكنها تمزج بالنسب المثالية ما بين حلاوة الصورة الأولى وقوة الصورة الثانية .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K. Morgan) وفى المرجع انظر ص ٢٧ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Williams) وفى المرجع انظر ص ٢ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) ص ٢٣٧ .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K.W. Morgan) ص ٢١ ، ص ٣٥ .

٢ ـ تغلب فى القرآن إيقاعات المقاطع اللفظية بصورة أكبر منها فى النثر ، كما أنها توجد فيه بصورة أقل منها فى الشعر ، وكذلك السكتات (الوقوف) بين المقاطع لا نراها لا فى النثر ولا فى الشعر ، ولكن تأتى بصورتها المتناسقة المتناغمة المستقلة .

٣ ـ إن حضور الكلمات رائع ، ففيه أقل عدد من الكلمات بحيث لا تعطى نوعاً من الاختزال ، ولكنها ثرية فى المعانى إلى أقصى حد .

٤ ـ كلمات القرآن فى التعبير منتقاة بكل عناية فهى ليست بالدارجة والبسيطة ولا هى بالنادرة المبهمة ، ولكنها جعلتنا نستشعر بغاية الإعجاب تعبيرها عن كل نبل وشرف وفضيلة .

٥ ـ إن إيجاز التعبير فى القرآن واضح وضوحاً كاملاً ، لدرجة أن أقل متعلم عربى يمكنه فهمه دون أية صعوبة . وفى نفس الوقت فإن ما فيه من القوة والمرونة والثراء العريض من الأفكار يجعله خادماً لأصول النظريات والقوانين فى العلوم الإسلامية ، والكلامية ، والمدارس الفقهية ، لدرجة أنه قد يبدو مستحيلاً أن نعبّر عن الأفكار الموجودة بالنص وشرحها بتفسير واحد ، باللغة العربية ، فضلاً عن أية لغة أخرى مهما بذل من عناية وتأنق .

٦ـ لا شك فى أنه يجمع بين كل من القوتين المتضادتين : فنحن نعلم أن الانفعال والإحساس يعاديان المنطق ، وأن الذكاء والفطنة يعاديان الشعور ، ولكننا فيه نرى أن الكلمات التى فى القصص ، وفى المناقشات والمناظرات ، وفى التعليم والقوانين التشريعية ، وفى النظريات الأخلاقية ، ما هى إلا وسيلة تعليمية مقنعة للغاية ، على الرغم من أن لديها فى نفس الوقت قوة فائقة تثير الإحساس والعاطفة .

لذلك نجد أن أسلوب القرآن فى كل سورة محافظ للغاية على مدى هيبته المعجزة ، وقوته وجلاله اللذين لا يمكن لأى شىء أن يغيرهما ولو تغييراً طفيفاً .

ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجماً فى شكل فقرات متفاوتة الأطوال ، وتم ذلك فى غضون ثلاثة وعشرين عاماً ، وأن هذه الأجزاء لم يكن ترتيبها حسب الترتيب الزمنى للنزول ، ولا حسب الموضوع الذى تتطرق إليه هذه المقاطع ، ولكن جاء ترتيبها بطريقة متنوعة لا تعتمد على شيء إلا على الأمر الربانى ، حتى لقد يظن بعض الجاهلين أنه ترتيب اعتباطى . فمتى شرعنا فى دراسة القرآن ، بدءاً بمستوى تركيب الآية الواحدة ، ومروراً بمستوى مجموعة من الآيات التى تتناول نفس الموضوع حتى نهاية السورة ، وانتهاءً بنهاية الكتاب ـ فإننا نجد خطة شاملة يعجز البشر عن وضعها لما لها من إيقاع خاص متناسق يسير بالتساوى فى كل أجزائه ، كما نجد فيه أسلوباً مشتركاً فى اللحن والنغمة ، ويصاحب ذلك خطة منطقية تؤدى بتلازم تام كل الأفكار المتولدة بكل وضوح .

وإذا نظرنا نظرة موجزة إلى التطور فى التعاليم القرآنية عبر المرحلتين[1] اللتين مرت بهما البعثة ، فإننا نجد أن المبادئ الأولية الأساسية للدين قد تم عرضها فى السور المكّية ، ثم حفلت السور المدنية بالتطبيقات المنظمة لهذه المبادئ . ولا شك فى أن هذه الملحمة من الأحداث قد استمرت منذ اليوم الأول للنداء الإلهى حتى حجة الوداع عندما ألقى النبى خطبته الخالدة ، فلا شيء قد بات مرتجلاً فى القرآن ، وإنما تم التنبؤ بكل شيء من البداية إلى النهاية حتى أدق التفاصيل ، بل وشاملة أيضاً موت النبى ﷺ وتوقيته ، مما يدفعنا إلى التساؤل ، من كان يستطيع أن يضع ذلك المخطط الكامل الشامل غير الله سبحانه وتعالى الذى جاءت من لدنه هذه الرسالة السماوية ؟

فمن الواضح إذن أنه لكى يشرع أى مؤلف للقيام بتأليف مثل هذا الكتاب ، لابد له من أن يتنبأ بوقوع الأحداث وتفاصيلها ، ولا يكون هذا

(١) المرحلتان : المكية والمدنية (المترجم) .

التنبؤ متعلقاً فقط بالأحداث التى تقع طوال فترة البعثة ، سواء أكانت مشكلات أو حلولاً لها ترد فى الآيات المتعلقة بها ، وإنما ينبغى عليه أيضاً أن يصوغ الأسلوب الأدبى ، وأن يحقق الإيقاعات المتناغمة لهذه الآيات ، بحيث تتناسق مع ما سوف يأتى بعدها ، كذلك لابد أن يضع الهيكل الكامل الملائم للفقرات التى سوف ترد وتصف ما سوف يأتى بعد ذلك ، مع تحديد الموقع لكل فقرة ، بحيث تتناسق جميعاً عند كمال الكتاب فى نهاية الفترة .

ومن ثّم فإننا لا بد أن نسلّم بأنه لا يوجد إنسان قادر على معرفة الغيب بنفس التفاصيل التى نسبت للقرآن حتى يمكنه تأليفه بتلك الصيغة المعجزة ودون حاجة لمراجعة أية سورة أو آية ، أو حتى أية كلمة .

تردد ظهور الحروف الهجائية فى القرآن :

لقد أجريت دراسة احصائية جادة أخيراً[١] حول توزيع الحروف الأبجدية فى المائة والأربع عشرة سورة الموجودة بالقرآن ، وتم التوصل إلى الاستنتاجات الآتية :

أولاً : يوجد شكل عام للتوزيع الأبجدى للحروف فى كل سورة .

ثانياً : إن السور التى تبدأ بحروف مستقلة بذاتها مثل (ألف ، لام، ميم) فى سورة (البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة) لديها أكبر معدل لوجود هذه الحروف بها بخاصة ، كما أنها تتبع نظاماً معيناً للتوزيع مع سائر السور الموجودة فى القرآن ككل .

ثالثاً : لقد أثبتت التحليلات أن الشكل العام للتوزيع الأبجدى فى كل سور القرآن، وكذلك فى الآيات داخل كل سورة، بل وحتى فى هجاء الكلمات ، هذا الشكل ليس بعشوائى ، بل إنه اختير بحكمة بالغة[٢] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (R. Khalifa) كتاب (معجزة القرآن) .

(٢) مع أن هذه المعلومات الخاصة بتردد الحروف وأعدادها ـ هى من حقائق القرآن، فقد =

فنجد فى كل من سورة (الشورى) وسورة (ق) مثلاً توضيحياً ، فكلتا السورتين تبدأ بحروف مستقلة تشمل الحرف (ق) ، وهذا الحرف يظهر سبعة وخمسين مرة فى كل منهما ، مع أن طول سورة (الشورى) يبلغ ضعف سورة (ق) ، كما أن الحرف (ق) قد ظهر فى السورتين مجتمعتين بعدد (١١٤) مرة وهو نفس عدد السور الكلى فى القرآن الكريم .

وهناك مثال آخر يتعلق بتلك الآية الأولى فى المصحف ، وهى : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ ، فعدد الحروف العربية فى هذه الآية هو تسعة عشر حرفاً ، وكررت كلمة (الله) فى القرآن كله بعدد (٢٦٩٨) مرة ، وكررت كلمة الرحمن بعدد (٥٧) مرة ، وكلمة (الرحيم) بعدد (١١٤) مرة ، وكما نعلم أن كلا من هذه الأرقام تقبل القسمة على الرقم (١٩) ، وكذلك عدد السور الكلى فى القرآن الكريم .

ولكى ندرك تلك المعجزة القرآنية ، دعنا ننصرف إلى المثال المبسط التالى ، ولنفترض أنه قد طلب منك أن تؤلف كتاباً مكوناً من عشرة فصول غير متساوية ، حيث يحوى الفصل الأول أعلى تكرار للحرف (ألف) ، بينما يحوى الفصل الثانى أعلى تكرار للحرفين (باء) و(جيم) ، بالطبع قد يبدو ذلك صعباً نوعاً ما ، ولكنه ليس بمستحيل ، إذ ينبغى عليك أن تختار كلمات مناسبة بحيث يتم تحقيق هذه الشروط فى النهاية.

والآن ، وقد أضيفت شروط جديدة ، وهى أن الفصول الثلاثة الأولى لابد وأن تحوى نسبة أعلى فى حرف (ذال) من الفصل الرابع ، كما أن الفصول الثلاثة الأخيرة ينبغى لها أن تحوى عدداً أقل فى عدد مرات التكرار الأبجدى للحروف (زاى) و(كاف) ، من عددها فى

= استغلها بعض ذوى الأغراض المعادية للإسلام للبرهنة على وجهة نظرهم البهائية ، وهو ما نرفضه جملة وتفصيلاً . (المترجم) .

الفصل السادس ! لا شك فى أنك ستجد الكتاب الذى تؤلفه قد صار هائلاً رهيباً فى صعوبته وتعقيده .

ويجب ألا ننسى أيضاً أن هذه الكلمات المحكومة بنظام رياضى دقيق لابد لها أن تبنى جملاً تعبيرية على درجة كبيرة من الإفادة ، وأن هذه الجمل تبدو متقنة للغاية من الناحية اللغوية والنحوية ، والرياضيات تخبرنا أن الإنسان لكى يكوّن التوزيع الرياضى للحروف الهجائية فى القرآن لابد وأن يعرف على الأقل ٨٢٦ كوادريليون[1] من تجميعات الحروف الهجائية . ومن ثم فإن كتابة الآيات على النحو الذى هى به يعد إنجازاً لا يبارى فى عظمته ، كما أن نزول الآيات على مراحل متتابعة لفترة استغرقت أكثر من عقدين من الزمان دون مراجعة أية آية أو كلمة ، كل ذلك يضيف ولا شك إلى الطبيعة الإعجازية للقرآن المجيد .

الحروف الخاصة فى مطالع السور :

وعددها أربعة عشر حرفاً ، وتأتى فى أربع عشرة مجموعة فى مطلع تسع وعشرين سورة ، والمثال الوارد آنفاً يكفى ، ولكن هناك مثالاً آخر هو (ألف ، لام ، راء) ـ (ألر) وقد جاء فى السور (يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر) ، ولا شك أن هذه الحروف ومجموعاتها قد دفعت بكثير من الدارسين من الشرق والغرب ليعلقوا عليها ، على حين رأى كثير من الباحثين المسلمين فى هذه المجال أن هذه المجموعات من الحروف الخاصة ذات سر غامض ، وقد يكون هذا السر ذا علاقة وثيقة بالطبيعة الإعجازية للقرآن ، ويمكن تلخيص النظريات الرئيسية كما يلى :

إن هذه الحروف تمثل تحدياً صارخاً لأى إنسان بأن يحاول أن يخط عملاً أدبياً يضارع به روعة القرآن وجلاله ، مستخدماً نفس الحروف

(١) الكوادريليون : رقم مؤلف من واحد وإلى يمينه أربعة وعشرون صفرا كما فى القاموس البريطانى . (المترجم) .

الهجائية ، والتى تعتبر هذه الحروف الخاصة أمثلة لها ، فهى إذن بمثابة رموز سرية ، كما أنها تعتبر أسماء رمزية للسور أو لمجموعات السور التى تحتويها .

وقد تناول (عبد الله يوسف على) موضوع السور التى تبدأ بالحروف المستقلة[١] فى ترجمته للقرآن ، فكتب عن سورة (ص) التى تستهل بالحرف (صاد) فقال : إن الحرف يعبر عن (القصص) ، ففى هذه الكلمة يعتبر حرف الصاد (ص) هو الحرف الصامت الرئيسى فيها ، ويكمل مستطرداً : « لقد اهتمت هذه السورة بقصتى داود وسليمان ، وجعلتهما مثالين واضحين للقوى الغيبية فى مواجهة قوى الدنيا »[٢] .

فى حين زعم (سيل) (Sale)[٣] زعماً غريباً متعلقاً بنفس السورة، سورة (ص) ، وهو أن الحرف (ص) يقصد به سليمان ! وكفى بالحدس دليلاً على خطئه إذ إن حرف الصاد لا يأتى أبداً فى اسم (سليمان) عند كتابته بالعربية كما نرى .

وهناك زعم آخر أطلقه (نولدكه) (Noldeke) عن الحروف الخاصة المذكورة فى مطالع السور،فقد افترض أنها عبارة عن مجموعة اختصارات ترمز لأسماء الأشخاص الذين جمع منهم (زيد)[٤] أجزاء القرآن بعد وفاة الرسول ﷺ وذلك لوضعها فى مصحف واحد ، فأخذ (ألف لام ميم) ـ (ألم) ليشير إلى (الزبير)[٥] ، وأخذ (ألف لام ميم راء) ـ (ألمر) رمزاً إلي (المغيرة)[٦]، وكذلك أخذ (طه) ليرمز لاسم (طلحة)[٧]؛

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A.Y. Ali) وفى المرجع انظر ص ١٧ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A.Y. Ali) ص ١٢١٧.
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) ص ٣٣٩ .
(٤) هو زيد بن ثابت (المترجم) .
(٥) هو الزبير بن العوام (المترجم) .
(٦) هو المغيرة بن شعبة (المترجم) .
(٧) هو طلحة بن عبيد الله (المترجم) .

وهكذا، ثم يكمل زعمه فيقول (نولدكه) : « ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الحروف ربما كانت عبارة عن حروف أبجدية وضعت علامات على صناديق الرقاع التى حوت أقوال الوحى مبعثراً غير منتظم ، ثم جمعه زيد ابن ثابت فى المصحف » .

ولقد يبدو غريباً أن (بالمر) (Palmer)[1] قد احتفى بمزاعم (نولدكه) وأعلن أنها نظريات تدل على براعة وإبداع ، ولكن يظهر لنا لأول وهلة أن أولئك المستشرقين قد ضلوا طريقهم فى البحث عن حقيقة هذه الحروف الخاصة وذلك لأسباب عديدة :

أولها : أنه لا يمكن بدء الزعم بالتجرؤ على صحابة رسول الله ﷺ وهم الذين لم يخطر ببالهم أن يحذفوا من الوحى الإلهى حرفاً أو يضيفوا إليه حرفاً .

وثانيا : إن التاريخ يروى أن هذه الحروف قد أوحيت فى مطلع سورها ، وأن النبى ﷺ نفسه هو الذى نطق بها فى مواقعها مع الآيات ، وقد حدث ذلك قبل أن يشرع زيد ورهطه فى جمع الرقاع أو استعمال العلامات الأبجدية لترقيم صناديقها إن كان حقاً قد استعمل أية علامات.

وأكثر من ذلك يجب أن نسأل، إن كانت هذه الحروف اختصارات أو حتى علامات أبجدية لترقيم صناديق الرقاع ، فما الذى يمكن قوله عن الأغلبية من السور التى لا تبدأ بهذه الحروف ؟

لقد غامر (مارجوليوث) (Margoliouth)[2] بفرضية سقيمة حين وصف الحروف الخاصة بقوله : « إنها ليست بذات معنى أو مضمون ... والاحتمال الأكبر أنها عبارة عن اختبارات أجريت بالقلم أو بالصوت قبل بدء كتابة الوحى أو قبل النطق به » .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) ص ٣٨ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) ص ٧١ .

وهكذا ، نكون قد اطلعنا على التناقض الواضح بين الآراء الدارسة والأخرى غير المسئولة حول موضوع الحروف الخاصة ، وقد يبدو من الحكمة أن نتدبر كل حرف من قول الله تعالي : ﴿ **ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ [هود آية : ١]

موضوع القرآن :

وبعد أن انتهينا من تناول الأسلوب القرآنى ، ومختلف التعليقات عليه ، فإننى أرى أن نشرع الآن بدراسة بعض من الآيات التى لا يمكن لمحمد ﷺ ولا لأى بشر أن يخترعها مهما كانت درجة خصوبة فكره ، والتى لا يمكن أن يكون قد تعلمها من أحد ، وسوف نتطرق لدراسة آيات أخرى كثيرة فى مواضع أخرى من الكتاب[١] ، فالله تعالى يقول : ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة** ﴾ [لقمان آية : ١٠]

وتشير الآية إلى أن السماوات تبقى فى أماكنها بعيدة عن الأرض تحت تأثير قوتين ، هما : قوة الجاذبية الأرضية وقوة الطرد المركزى ـ وهما قوتان لا يمكن بالطبع رؤيتهما بأعيننا ، فلو أن محمداً ﷺ هو الذى كتب هذه الآية قبل اكتشاف الجاذبية بين الأرض والكواكب الأخرى ، بل وقبل معرفتنا الحالية بالكون من حولنا ، فلماذا تحوى الآية تعبير (ترونها) ؟ ولماذا لم يقل ببساطة « خلق السماوات بغير عمد » ؟ بل وأكثر من ذلك ، كيف استطاع محمد ﷺ أن يفكر فى أن وجود الجبال فى أماكنها ، وبفعل وزنها الخاص يحدث نوعاً من الاتزان الميكانيكى للأرض حول محور دورانها فلا نشعر ـ نحن ساكنيها ـ بأى اضطراب أو اهتزاز أثناء دورانها بسرعتها الهائلة ؟

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (El-Ghamarawy)
وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille).

ولنقرأ هذه الآيات أيضاً :

﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾[1]

[الواقعة آية : ٦٨ ـ ٧٠]

وهذه الآيات إن كانت من ضمن قول محمد ﷺ ، فكيف بلغ إلى علمه أنه ستكون هناك محاولات للإنسان لاستنزال المطر ؟ وكيف عرف أن المطر ، والذى يكون عادة مقطراً ونقياً ، يمكن أن يتملح أو يصبح من العسير شربه ؟ ولِمَ لَمْ يقل فقط مثلاً : « لو نشاء لأوقفناه » ؟

ولنقرأ أيضاً قوله تعالي :

﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ [يونس اية ٥]

وقوله : **﴿ ألم تر كيف خلق الله سبع سماوات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً ﴾** [نوح آية : ١٥ ـ ١٦]

وقوله : **﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾** [يس اية : ٤٠]

ونسأل ، كيف عرف محمد ﷺ ـ أو كيف علّمه أحد أن الشمس هى مصدر الضوء ـ السراج ـ وليس القمر مع أنه مضاء ؟ وكيف استطاع أن يعرف أن البدر المنير ليس بسراج يصدر ضوءه الخاص به ؟ بل وكيف أدرك أن الشمس أيضاً تسبح فى فلك وحولها مجموعتها التى يسبح كل من أعضائها فى مداره الخاص به ، **﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾** .

---

(١) إن كلمة أجاجا لا تعنى كما ترجمت (المالح قليلا) ، ولكنها تعنى أنه لا يمكن تذوقه إما لأنه مر أو حامض أو كاو ، وعلماء طبيعة الأرض بلغ إلى علمهم أن شحنات البرق والتى تكون عادة مصاحبة بالمطر قد تؤدى إلى تفاعلات كيميائية بين أكسوجين الهواء الجوى ونتروجينه مما يكوّن أكسيد النيتروز الذى يذوب فى ماء المطر قبل نزوله مكوّناً حمض النتريك .

ثم لنقرأ قوله عز وجل : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين**﴾
[يونس آية : ٦١]

وقوله : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ [النساء آية : ٤٠]

فكيف خطر على بال محمد صلوات الله وسلامه عليه ذكر الذرات؟ وكيف أفردها ـ بمعنى جعلها مفردا ـ فقال : ﴿ **من مثقال ذرة**﴾ ؟ وكيف تطرق إلى خاطره أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أصغر من الذرات فى (يونس اية ٦١) ، بل وتمعن التعبير ﴿ **من مثقال ذرة** ﴾ الذى ينم عن اختلاف مثاقيل الذرات المنفردة بعضها عن بعض ، نفهم ذلك من الآية الكريمة ونرى أن العلم الحديث لم يتمكن إلا من معرفة متوسط أوزان الذرات المكونة لكل من المواد الأساسية ، ولكل(أيزوتوب)(١) لها ، أما معرفة مثقال كل ذرة على حدة وتحديد التفاوت بينها فلم يتم حتى الآن ، فسبحان من أنزل القرآن منذ أربعة عشر قرناً ، وفى الوقت الذى اعتبر فى العرب أن أقل كتلة فى الوجود هى لحبة الخردل أو لجناح البعوضة ؟

وإليك قوله تعالي :

﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ [فصلت اية : ٥٣]

ومرة أخرى ، كيف عرف النبى عليه الصلاة والسلام أو عرّفه مخلوق آخر أن الإنسان سيأتى عليه يوم يستطيع فيه رؤية أشياء بعيدة عن الأرض فى الفضاء الخارجى ، وكذلك يقدر أن يرى أشياء قريبة ، بل فى داخل نفسه ، وذلك قبل قرون عديدة من اختراع التليسكوبات أو

(١) الأيزوتوب هو : النظائر المشعة .

الميكروسكوبات، ومن اكتشاف الأشعة السينية، والموجات فوق الصوتية؟!

وهذه آية، من كتاب الله: ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين**﴾ [النحل آية ٦٦]

إن الحقيقة القائلة بأن اللبن الناتج عن الغدد الثديية فى الحيوانات ، وهذه الغدد تستمد غذاءها من نواتج هضم الطعام التى يحملها إليها مجرى الدم ، هذه الحقيقة تعتبر كشفاً علمياً حديثاً لم يطّلع عليه أحد قبل القرن العشرين ، إذن ؛ فكيف استطاع محمد ﷺ أن يفكر فيها إن كان هو واضع الآية السابقة ؟

وآية أخري : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين *ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ [المؤمنون اية : ١٢ ــ ١٤]

وأيضاً قوله عز وجل : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما** ﴾ [النساء آية : ٥٦]

ولنرجع ثانية ، ونسأل من علّم محمداً تلك المعلومات العلمية الدقيقة عن المراحل المتميزة لنمو الجنين داخل الرحم ؟ ومن عرّفه ذلك الوصف الصحيح تماماً للسائل المخصب ، كما جاء فى سورة الإنسان : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا** ﴾ [الإنسان اية : ٢] ، من أين له تلك الحقيقة القائلة بأن أعصاب الحس تتركز فى الجلد ، فما إن يحترق الجلد حتى تتلاشى حاسة الإحساس ؟

وهذه آية من كتاب الله :﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك اية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ [يونس اية : ٩٢]

فهذه الآية تتحدث عن فرعون مصر الذى تعقب موسى وبنى

إسرائيل إلى البحر الأحمر حيث غرق فيه ، ثم استنقذ جسده ودفنه المصريون فى مقبرته الملكية قبل حوالى ألفى سنة من ميلاد الرسول ﷺ ؟!!

ثم حدث أخيراً ، وفى أوائل القرن الحالى ، وبعد حفريات كثيرة فى أرض مصر ، أن اكتشف جسد الفرعون ، ووضع للعرض فى المتحف بالقاهرة حيث تتسنى رؤيته الآن .

فهل يمكن التسليم بأن محمداً ﷺ قد تعلم من بشر أى شىء عن نجاة جسد فرعون ، وعن اكتشاف مقبرته وعن عرضه على الملأ اليوم ، وليكون لمن خلفه آية ؟

وهل أتى بشر على عهد محمد بشىء من هذا القبيل ؟

إن القرآن يحوى آيات كثيرة تشمل الطبيعة التنبئية والتى توكد من حيث إنه وحى من السماء ، فكما يسجل التاريخ ؛ هاهى ذى بعض الأحاديث التى تنبأ بها وحدثت بالفعل بعد ذلك بسنوات ، ومن ذلك قوله تعالي : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ [الضحى اية : ٥]

﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ [القمر اية : ٤٥]

لقد نزلت الآيتان السابقتان على قلب محمد ﷺ عندما كان فى مكة ، حيث كان هو والمؤمنون معه تعانون من جميع أنواع الاضطهاد ، والذى حدث أن النصر والمجد اللذين لم يتوفرا لأحد قط على لعهده ، سارعا إليه وحالفاه بعد ذلك فى المدينة .

وهذه آية من إعلام النبوة : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾ [الفتح آية : ٢٧]

ونزلت هذه الآية بعد أن منع كفار مكة النبى ﷺ ورفاقه المعتمرين

من دخولها ، ثم اتفقوا معهم على أن يعود محمد ــ هو وأصحابه لقضاء عمرتهم بعد عام (لا يحملون معهم سلاحاً)[١] .

وإليك آية من أغرب آيات القرآن : ﴿ **ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون** ﴾ [الروم آية : ١ ــ ٤]

وهذه الآيات من الوحى المكى ، وهى تتنبأ بأن إمبراطورية الروم الشرقية ، والتى كانت تعانى من وقع هجمات الفرس فى بدايات القرن السابع ، هذه الإمبراطورية سوف تنتصر ! ففى نفس الوقت الذى أوحيت فيه هذه الآيات كانت المعركة الأولى بين الفرس والروم ، والتى احتل فيها الفرس الشام ونصبوا من أنفسهم حكّاماً لفلسطين ، ونهبوا بيت المقدس، وبذلك فقدت الإمبراطورية الرومانية جزأين هامين جداً من أراضيها . لقد أجهدت هذه الحرب الروم حتى لم يكن أحد يتصور أنهم من الممكن أن يستردوا بلادهم الضائعة ، ولكن على العكس من كل التوقعات آنذاك ، لقد تحققت النبوءة السابقة بعد حوالى تسع سنوات !! حيث لم يكتف الروم بطرد الفرس من إمبراطوريتهم (بيزنطة) ، ولكنهم طاردوهم داخل حدود بلاد فارس ، وسلبوا مدينة (المدائن)[٢] ، ونلاحظ هنا أن نفس الآية تحتوى أنباء أخرى طيبة وهى ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون** ﴾ ، والواقع أن المسلمين قد فرحوا بنصر الروم لكونهم أهل كتاب ، على العكس من الفرس الذين يكفرون بوجود الله ، فهم مجوس من أتباع (زرادشت) ، وأحرز المسلمون نصراً مؤزراً على قريش فى المعركة الأولى الفاصلة فى نفس الوقت تقريباً .

وهذه آية أخرى : ﴿ **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل**

---

(١) كان الاتفاق فى صلح الحديبية (سنة ست للهجرة) ، وكانت العمرة فى العام السابع للهجرة وسميت عمرة القضاء .

(٢) انشر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) ص ٣٤٤ .

تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾ [الطور آية : ٣٠ ـ ٣١]

إن المقصود فى هذه الآيات هم كفار مكة ، وقد قررت أن النبى ﷺ لن يموت فجأة إلا بعد توصيل الدعوة إلى الافاق . وبالفعل لقد رحل النبى إلى الرفيق الأعلى بسلام بعد حوالى اثنين وعشرين عاماً من نزول هاتين الآيتين ، وبعد أن وصلت كلمات الله كلها إلى الناس . ولنسأل ؛ لو كان محمد ﷺ هو واضع الكتاب بنفسه أو بمساعدة غيره فكيف تجرأ إذن أن يُضَمِّنَ مؤلفه عبارات لا مبرر لها ، معرضاً دعوته للخطر ؟ أو بمعنى آخر ، كيف تأكد صلى الله عليه وسلم من المستقبل ؟

وفى القرآن الكريم نبوءة أخرى تتعلق بحفظه ، فمن المعروف والمسلّم به من الجميع شرقاً وغرباً أن ما فى المصاحف التى توجد فى أى من بلاد العالم ـ على مدى أربعة عشر قرناً ـ يطابق بعضها بعضا ، وهى كذلك تطابق ما نزل على قلب الرسول ﷺ .

لقد شهدت تلك القرون تغييرات شتى فى العالم ، فقامت حضارات وانطوت إمبراطوريات ، وماتت لغات ، وما جرى للعالم العربى والإسلامى من تطورات سياسية عبر تلك القرون لا يخفى على أحد ، وبالرغم من كل ذلك فالقرآن الكريم كتاب الله مازال محفوظاً ، وسوف يظل بإذن الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها مصداقاً لقوله تعالي :

﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر آية : ٩]

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾

[فصلت اية : ٤١, ٤٢]

﴿ إنه لقرآن كريم* فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون ﴾

[الواقعة اية : ٧٧ ـ ٧٩]

﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾ [الكهف اية : ٢٧]

هذا الحفاظ لكل كلمة ، بل لكل حرف ، من كتاب الله من أى تبديل عبر القرون هو تحقيق لما ورد فى الكتاب نفسه .

كذلك ينبغى علينا أن نلاحظ أن الرسول ﷺ لم يأت بصورة المتكلم فى القرآن ، وإنما كان يشار إليه بضمير الغائب برذعان وتسليم كما ترى ذلك مسجلاً فى القرآن إلى الأبد ، كما أننا نجد أن هناك آيات تريحه وتهون عليه عندما كان يكتئب أو يغتم ، وهاهى ذه بعض أمثلة لمثل هذه التوجيهات :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ [المائدة آية : ٦٧]

﴿ تنزيل من رب العالمين . ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة آية : ٤٣ ـ ٤٧]

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجرى الله الشاكرين ﴾ [آل عمران آية : ١٤٤]

﴿ ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذلكر * فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب ﴾ [الشرح آية : ١ ـ ٨]

المحصلة :

والآن ، وبعد أن تناولنا بعض الأفكار حول الأسلوب الأدبى فى القرآن ، وحول قضاياه وتنبؤاته ، وحول كيفية التعرض لمحمد ﷺ من خلاله ، فلنقرأ ونتدبر قوله تعالي : **﴿ وإن كنتنم فى ريب مما نزلنا على**

عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة آية : ٢٣ ـ ٢٤]

فإن كان محمد ﷺ مختلقاً للقرآن ، فهل كان يجرؤ على تحدى الكافرين بأن يأتوا بصورة من مثله ؟ وهل كان يعلن ذلك بنفس نبرة التأكيد ﴿ **ولن تفعلوا** ﴾ ؟

وفى الواقع ؛ لا يزال هذا التحدى قائماً إلى يومنا هذا ، وإلى أن تقوم الساعة .

* * *

الفصل الثالث

الكتابة الأولى للقرآن

نزول القرآن منجماً :

عرف المجتمع المسلم الأول محتويات القرآن على مراحل فى غضون الفترة ما بين سنة (٦١٠) وسنة (٦٣٢) ميلادية ، وهو ما أدركه المورخون والدراسون فى الشرق والغرب ، سواء فى ذلك المسلمون وغير المسلمين .

وقد ذكر بعض العلماء(١) أن الخمس سنين الأولى لبعثة النبى ﷺ ، والتى قضاها فى مكة تضمنت إثنتين وخمسين سورة أغلبها كانت من قصار السور ، فشكلت بذلك عشر حجم القرآن ، ثم أوحى إليه خلال الثمان سنوات الباقية ستون بالمائة أخرى من القرآن ، أما بعد نمو المجتمع المسلم تدريجياً فى السنوات الشعرى التالية وأثناء نمو المجتمع الإسلامى بالمدينة ، نزلت الثلاثون بالمائة الباقية من القرآن وكانت متضمنة طوال السور .

كتابة القرآن وحفظه المبكر :

وقد حدث من وقت مبكر للبعثة النبوية ، بل ومنذ الوحى الأول ذاته ، أن شدّد الحق سبحانه وتعالى على كتابة آيات القرآن وتلاوتها فقال فى أول محكم آياته : ﴿ **اقرأ باسم ربكم الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [العلق آية ١ ــ ٥] ، ثم جاءت السورة الثانية مبتدأة بـ :﴿ **ن**

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.A. Ali) ، وكذلك كتاب (علوم القرآن) للمؤلف أحمد عادل كمال والذى صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٤ .

والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلمآية : ١ ـ ٢]

وعلى ذلك فإننا نرى أن التوكيد على القراءة والكتابة قد بدا جلياً واضحاً منذ أوائل الوحى .

ولنقرأ فى السورة الثالثة : **﴿ يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾**

[المزمل آية : ١ ـ ٤]

ومن الملاحظ أن الترتيب الزمنى لهذه السور هو (١ـ٢ـ٣) ، على حين جاء ترتيبها فى المصحف (٩٦ـ٦٨ـ٧٣) ، وهى ملحوظة سيتم تناولها فى هذا الفصل .

ونعود فنقول إن عمليات الحفظ والكتابة والاهتمام بكل جزء من أجزاء القرآن قد لازمت رعاية بالغة منذ الأيام الأولى للدعوة الإسلامية ، فمن المعروف تاريخياً أن كتّاب الوحى قد سجّلوا القرآن تحت الإشراف المباشر للنبى ﷺ وهو الذى لم يكتب لأميته ، فكان يكتفى بأن يملى عليهم(١) ، ثم يعيدوا قراءة ما كتبوه .

ومن المسلمين الأوائل أبو بكر ، وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وعمر بن الخطاب وآخرون ممن كانوا يتقنون القراءة والكتابة ، وهؤلاء لحبهم للنبى عليه الصلاة والسلام ـ وهو حال المسلمين جميعاً ـ اعتادوا ملازمته أغلب الوقت ، ليتعلموا الدين منه ، وليحفظوا ما يقول وما يفعل ، لدرجة تصل إلى أدق التفاصيل ، وقد عيّن النبى ﷺ عثمان وزيداً واخرون كتبة له ، وكان يزيد عددهم تباعاً وفقاً لزيادة عدد المجتمع الإسلامى ، حتى بلغ عددهم اثنين وأربعين كاتباً قرب ختام الوحى .

---

(١) كتاب الاتقان فى علوم القرآن (الجزء الأول) ـ دار الحلبى ـ القاهرة سنة ١٩٥١ ، وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Burton) .

ولا شك أن المسلمين يقدسون القرآن تقديساً شديداً ، ويحبونه حباً جمّاً ، فهو لهم كتاب الله ، لذلك فقد استخدم العرب المسلمون ذاكراتهم الحديدية بحماس لحفظ كل ما تعلموه عن ظهر قلب ، ولصون كل وحي منزّل حملة إليهم رسول الله ﷺ في صدورهم ، وقد كان لديهم الوقت الكافي لحفظ كل تنزيل على حدة ، إذ إن القرآن استمر نزوله مدة طويلة بلغت ثلاثا وعشرين سنة ، ومحتواه من الكلمات يقدر بسبعة وسبعين ألفاً وستمائة وتسع وثلاثين كلمة .

ومن أحكام العبادات المهمة لدى المسلمين تلاوة عدد من ايات القرآن خلال الصلوات الخمس المكتوبة كل يوم ، وقد اتبع المسلمون المتحمسون ما ضربه لهم الرسول مثلاً ، فكانوا يتلون طوال السور ولساعات في صلاتهم أثناء الليل ، حيث اعتاد الكثيرون في الماضي وفي الحاضر على تلاوة القرآن كله عن ظهر قلب ، أو على ختمه خلال شهر أو زقل ، وبات شيئاً أساسياً لكل مسلم أن يحفظ بعض السور ، وعلى الأقل تلك التي تساعده لأداء صلواته اليومية .

ومن المسلّمات في التاريخ الإسلامي أن مئات من صحابة الرسول ﷺ كانوا حافظين للقرآن ومتمكنين منه ، فعن عثمام بن عفان أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلّم القرآن ثم علّمه ، فمن قرأ القرآن نال حسنة عن كل حرف يقرؤه ، والحسنة بعشرة أمثالها »[1] .

ولقد اقترنت الوظائف في الإسلام كإمامة جماعة المصلين ، بل وقيادة أية جماعة من المسلمين لأداء أي عمل ديني بأولئك الحافظين للقرآن أكثر من إخوانهم الذين لم يحفظوا .

دلائل تاريخية :

وهناك نوعان من الأدلة التاريخية على أن القرآن كتب بصورة

---

(١) كتاب رياض الصالحين للإمام يحي بنشرف الدين النووي ـ دار الجمهورية للنشر ـ القاهرة سنة ١٩٦٥ ، ص ١٩٤ .

متكاملة على عهد النبى ﷺ هما : القرآن ذاته ، ثم تسجيل وقائع بعينها حدثت أثناء بعثة النبى ﷺ ، ويكفينا دليلاً أن القرآن نفسه قد سجل هذا.

فقد جاء فى القرآن كلمتا (القلم) و(القراءة) فى بعض من اياته التى سبق ذكرها ، وأكثر من ذلك أنه وصف نفسه فى أماكن متعددة بلفظة (كتاب) ، والتى تأتى أحياناً معرّفة (الكتاب) ، وذكرنا مثلاً لذلك من قبل ، وهذا مثال آخر ، قوله تعالي : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق بين يديه** ﴾ [الأنعام آية : ٩٢]

ولقد عُرف القرآن منذ فجر الدعوة على أنه ذلك الكتاب الذى يضم أجزاء معنونة ومعرّفة،وأن لكل وحى منزّل المكان المخصص له فيه،وأن هذه الكتاب قد استقر مضمونه كاملاً بكل تفاصيله قبيل وفاة الرسول ﷺ .

وينبغى علينا أن نؤكد هنا أن أى كلمة فى القرآن كانت بلا شك جارية على زلسنة العرب ، ومعروفة منذ نزولها على النبى ﷺ ، ومنذ قيام كتّاب الوحى بكتابتها ، كما أن موقع كل كلمة كان أيضاً معروفاً ، على الرغم من أن المواد المستعملة آنذاك فى الكتابة لم تكن صفحات من الورق تحمل أرقاماً مسلسلة ومجموعة بين دفتين .

ولقد تحدى القرآن الكافرين فى أكثر من مناسبة أن يأتوا بعشر سور أو حتى بسورة واحدة من مثله ، ومعنى ذلك أن السور كانت معروفة باعتبارها وحدات قائمة بذاتها ، يقول الله سبحانه : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزّلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة اية : ٢٣] .

فهذه الآية تثبت أن السور القرآنية كانت معروفة على عهد النبى ﷺ ، وأن كل سورة تبنى من آيات مكونة لها ، كما أن كل سورة هى عبارة عن تحدٍ حقيقى للكفار أن يأتوا بمثلها ، من حيث هى وحدة متكاملة .

ويحمل التاريخ الإسلامى بين طياته دليلاً واضحاً على أن الوحى قد سُجِّل كتابةً تحت الإشراف الشخصى للرسول ﷺ ، فكتّاب الوحى الذين كانوا دوماً مع الرسول، والذين كان يملى عليهم الوحى السماوى، كانوا معروفين تماماً لدى بقية الصحابة ، وقد ظل هؤلاء ملازمين للنبى ﷺ طوال الوقت ، حتى فى أحلك المواقف ، عندما هدد المشركون المجتمع المسلم النامى بضراوة ، وباتوا ملتفين حوله لتسجيل كل آية توحى إليه ، وكذلك اصطحب الرسول وصاحبه أبو بكر الصديق فى هجرتهما من مكة إلى المدينة أدوات الكتابة من بين مستلزمات الرحلة ، فقد كان أبو بكر نفسه كاتباً من كتّاب الوحى[1] .

وكذلك كان عثمان بن عفان، ذلك الذى لازم اسمه رسم القرآن، وظل مع النبى ﷺ منذ أيام الدعوة الأولى ، ثم قدّر له أن يكون ثالث الخلفاء الراشدين ، وقد نسب إليه قوله : « كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا[2] .

وبالإضافة إلى الكتابة الرسمية للقرآن ، والتى قام بها كتبة الوحى تحت إشراف النبى ﷺ ، كتب بعض الصحابة نسخا[3] لاستعمالهم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) (المقدمة) .

(٢) النظر المرجع السابق ، وانظر كذلك إلى (الاتقان فى علوم القرآن) ، إذ ذكر الحافظ السيوطى فيه فى الجزء الأول ص ٢١٢ : عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين (بمعنى أكثر من مائة آية) فقرنتم بينهما ولم يكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السور التى يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها ، فقبض رصول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها فى السبع الطوال. (أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم) (المترجم) .

(٣) كانت أحياناً عبارة عن مجموعات من السور متفاوتة الحجم . ودون الكمال غالباً ، =

الشخصى ، ومنهم (على بن أبى طالب) و(عبد الله بن مسعود) الذى اعتاد على كتابة ملاحظات تفسيرية وتعليلية فى هوامش نسخته .

ولقد تم تلخيص قصتى إسلام كل من لبيد بن ربيعة وعمر بن الخطاب فى الفصل الثانى ، وظهر أنه فى كلتا الحالتين كان جزء السور مكتوباً على رقعة ، وهو ما يثبت أن السور القرآنية كانت قد دونت فى ذلك الوقت ، وأن عملية التسجيل هى تقليد إسلامى عرف منذ ظهوره ، لذلك فقد اعتبر النبى ﷺ وصحابته معرفة القرءة والكتابة من الأمور الهامة فى حياتهم ، مما دفعهم إلى اتخاذ كل سبلها الممكنة بتلهف وشوق ، ففى غزوة بدر ـ وهى المعركة الأولى الفاصلة بين النبى وبين أعدائه المشركين ـ تمكن المسلمون من أسر عشرات منهم ، وقد أعطى بعضهم حريته لقاء تعليم عدد من المسلمين الأميين كيفية القراءة والكتابة[1] .

وعلى الرغم من كل هذه الحقائق المؤكدة ، فإن كثيراً من المستشرقين أنكروا التكوين المبكر للسور فى القرآن ، وافترضوا أنها عبارة عن « رسالات مبعثرة جاءت على مراحل طرحت فى اللحظة التى أحسوا أنها قد أدت غرضها »[2] ، وقد أصر (نولدكه) (Noldeke) على زعمه الذى قال به بعد نظرة متجاهلة لحقائق التاريخ الواضحة ، واستند فيه على تلفيقات خياله ، فقال : « إن النبى لم يكن لديه متسع من الوقت ليكتب ما يوحى إليه ، بل إنه لم يهتم بذلك خلال حياته »[3] .

وهناك أمثلة هابطة لمعلّقين آخرين ظهروا فى القرن الحالى ،، وقد

= فقد كان اعتماد ذلك على الحفظ أكثر من اعتمادهم على التدوين (المراجع) .

(١) كنا نتمنى أن تسجل كتب السيرة أسماء من افتدوا أنفسهم بهذه الوسيلة من بين أسرى المشركين (المراجع) ،

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Burton) ص ٢٣٤ .

حملوا بين أيديهم مزاعم متهافتة ، من مثل : « بعيداً عن الترتيبات المنافية للعقل والمنطق ، فإن القرآن ليس كتاباً على الحقيقة ، بل هو مجموعة من البيانات الرسمية ، والنقد والأوامر والخطب والمواعظ وأشياء من هذا القبيل » . وما من شك فى أن وصف القرآن بأنه (مناف للعقل والمنطق) إنما يبين كيف يضل مستشرق قد أعماه الحقد ، ويبعد به حقده عن المسلك العلمي والمنطقى فى دراسته للكتاب الكريم .

وقد ذكر الحافظ السيوطى أن الكثير من صحابة النبى ﷺ قد حفظوا القرآن كله ، ومنهم من حفظ عدداً من السور ، ولقد تعلم عبد الله ابن مسعود سبعين سورة من فم النبى ﷺ ، ومن ناحية أخرى فإنه صلى الله عليه وسلم قرأ زهاء سبعين سورة وهو على فراش الموت ، مما يبين مدى الحرص الشديد على حفظ القرآن لدى جميع المسلمين[1] .

وعلى ذلك يبدو واضحاً تماماً أن كل اية قرانية قد دونت تحت إشراف النبى ﷺ المباشر ، حيث يتم بتوقيف منه إلحاق الآيات بالسور الموجودة . فالرسول إذن هو الذى نظم الآيات فى كل سورة ، بل ووضع ترتيب السور فى القرآن ، وأعطى السور أسماءها ، والتزام المجتمع الإسلامى بهذا التنظيم ، حتى إن أعداداً كبيرة من المؤمنين حفظوا بحماس شديد كل السور ببنفس الترتيب الذى وضعه النبى ﷺ .

الترتيب الزمنى والمصحفى :

ذكرنا فى الفصل السابق أن الترتيب المصحفى للسور - إى ترتيب السور داخل المصحف - يختلف تماماً عن الترتيب الزمنى لنزولها ، فنجد مثلاً آيات من سور مدنية تأتى ضمن آيات نزلت فى مكة قبلها بسنين عدة !! والتفسير هنا أن كل تنزيل نزل فى ظرف من الظروف التى وافت المجتمع المسلم سواء بمكة أو المدينة .

(١) كتاب الاتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطى - الجزء الأول ص ٥٨ -

فبالرغم من أن هناك آيات قليلة تؤرخ إلى ما قبل نزول بقية السور التى تحويها أو بعدها ، إلا أن جميع الآيات فى كل سورة كل متكامل ، ويبدو فى صورة متماسكة متقنة ، كما أن المواضيع تنساب بلباقة انسياباً منطقياً جميلاً من خلاله ، وحكل آية من الآيات بما يحويه من ثروة فكرية أشبه ما تكون بالدر الكريم ، النظيم ، وقد انبهر عدد من المستشرقين بالبرق الشديد لتلك الأفكار اللامعة الذكية الموجودة بكل آية على حدة ، وبدوا عاجزين عن إدراك ذلك الإطار الذى يربط بعضها ببعض .

وقد خلق الترتيب الزمني للنزول تطوراً تدريجياً فى تعاليم الدين ، وفي التشريعات اللازمة لنمو المجتمع ، ولتوضيح ذلك ، لنأخذ فى اعتبارنا الشكل الرئيسى لمراحل التبليغ الناجح الذى اتبعه الرسول ﷺ منذ أن نزلت (اقرأ) فى سورة العلق ، وهى السورة التى لها ترتيب زمنى هو (١) وترتيب مصحفى[1] هو (٩٦) .

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ [العلق آية : ١]

ثم يجئ بعد ذلك الأمر الإلهى ببدء مهمة الرسول بزن (أنذر) فى قوله تعالي : ﴿ **يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر** ﴾ [المدثر آية ١-٣] [سورة المدثر : ت ز (٤) ، و ت م (٧٤)] .

وبعد ذلك أمر الرسول أن يبلّغ عشيرته الأقربين ، وجاء ذلك فى سورة الشعراء [ت ز (٤٧)، و ت م (٢٦)] وهو قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾

[الشعراء اية ٢١٤-٢١٥]

ثم يحين الحين لتبليغ الدعوة لكل زرجاء مكة ، أم القرى ، وأن تبيلغ كذلك إلى القرى من حولها ، وذكر ذلك فى سورة الأنعام (ت ز

(١) سوف نختصر العبارتين فى رمزين هما : ت. ر. = ترتيب زمنى ، و ت. م. = ترتيب مصحفى .

(٥٥) ، ت م (٦)] وذلك فى الآية الكريمة : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون** ﴾

[الأنعام آية : ٩٢]

وأخيراً ، تكون الدعوة للإنسانية جمعاء : ﴿ **إن هذا لبلاغاً لقوم عابدين * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ [الأنبياء اية ١٠٦-١٠٧]

وهكذا يتضح الآن أن القرآن الكريم ليس كتاباً عادياً ، إنه ليس مجرد كتاب تاريخ ، تخضع حسابات أحداثه لترتيب النزول ، ولكنه فى تسجيله للأحداث فى حياة النبى ﷺ وحياة الدعوة كان مترسماً لقواعد تختلف اختلافاً كبيراً ، فهو بالطبع ليس كأى من الأناجيل التى تناولت بصورة حرفية تفصيلية أفعال السيد المسيح وأقواله ، والتى استرجعها حواريوه وفى قترتيبها الزمنى ، كما أنه ليس بالكتاب الجامد الى يناقش بابا معيناً ، فيسبقه بمقدمة تقوده إلى صلب الموضوع ، ويختمه بمحصلة فكرية معينة . إنه ليس كتاباً من هذه الكتب ، ولكن الله تعالى أوحاه إلى قلب محمد ﷺ ليمنح القلوب الراحة العظمى ، ويهب العقول قناعتها القصوى ، وهيدى كل نفس تقرؤه أو تستمع إليه صراطها المستقيم ، فكل إنسان أياً كان ، حتى ولو كان ممن لا يؤمن بالله - لاشك أنه سوف يفتقد هذه الرسالة المحمولة إليه عبر الوحى الإلهى .

ولعل ما يجعل القرآن متفرداً أن كل آية من آياته ، وكل مجموعة من الآيات ، بل كل سورة من سوره يمكن أن تكون وحدة مستقلة تبنى الإيمان ، وتشحذ الإلهام .

عناوين السور :

لقد اعتاد محمد ﷺ أن يضع لكل سورة اسماً يعبر عن قضيتها ، ومثلا ذلك السورة الثانية فى الترتيب المصحفى وهى سورة (البقرة) ، إذ

هى تذكر قصة موسى عليه السلام عندما أمر قومه أن يذبحوا بقرة ، وكذلك السورة الثالثة فى نفس الترتيب وهى سورة (ال عمران) وتحكى عن آل عمران ، ومنهم مريم البتول ، والمسيح عليه السلام ، ومنهم زكريا ويحيى عليهما السلام ، أما السورة السادسة عشرة وهى سورة (الكهف) فتتناول قصة أهل الكهف السبعة الذين فروا بدينهم ، واتخذوا من الكهف مخبأ يبعدهم عن طالبيهم ومضطديهم ، وهكذا ..

وقد أطلق النبى وصحابته أكثر من اسم على بعض السور ، فسورة الفاتحة مثلاً هى فاتحة المصحف ، ولها أسماء أخرى منها (أم القرآن) أو (جوهر القرآن) ، أو (الحمد) أو (الحمد لله رب العالمين) باعتبارها أول آية من السورة .

الترتيب المصحفى كما عُرف على عهد الرسول ﷺ :

كُتبت النسخة الأولى للقرآن الكريم على رقاع مبعثرة ، وعلى ألواح من مواد مختلفة ، كانت أيضاً غير مرتقة ، وذلك فى نفس الوقت الذى كان الوحى كله محفوراً بشكله المعروف فى قلب النبى ﷺ ، وفى صدور صحابته ، حيث اتخذت كل آية أو مجموعة آيات مكانها المحدد لها فى الهيكل القرآنى الكلى ، حتى أُطلق على مئات من الصحابة لقب (حفظة القرآن) ، إذ كانوا يقومون بتلاوته عن ظهر قلب ، من بدايته إلى نهايته ، وكانوا يعرفون موضع كل سورة فى المصحف ، بل لقد عرف كثيرون منهم مناسبة نزول كل آية فيه .

فكيف إذن لم يكن آنذام ترتيب مصحفى ؟ إنه لو لم يكن مروفاً حينئذ لبات مستحيلا على المومنين حفظه ، ولعل هناك دليلاً هاماً أيضاً هو أن المؤمنين قد تعلموا أن يجعلوا لجماعتهم إماماً للصلاة منذ عهد النبى ﷺ ، والقاعدة هنا تملى بأن الإمام ينبغى عليه أن يتبع الترتيب المصحفى أثناء تلاوته للقرآن ، فإن أخطأ فما على أى مأموم من خلفه إلا

أن يرده ، فهل كان من الممكن أن يكون هذا الرد مستطاعاً إلا إذا اعتاد المصلون جميعاً على ترتيب مصحفي واحد للآيات .

وعلى ذلك فإننا نجد بينة واضحة وكافية على أن الرسول ﷺ هو الذى رتّب السور داخل المصحف بطريقتين : **إحداهما** : إعطاؤه تعاليمه وتوجيهاته إلى صحابته ، **والأخرى** : تلاوته الخاصة للسور المختلفة ، فيخبرنا أنس[1] ـ وهو من صحابة الرسول ﷺ ـ كيف أرشدهم النبى إلى تقسيم بقية القرآن دون الفاتحة إلى سبعة أجزاء متعاقبة ، أولها يتكون من ثلاث سور ثم تأتى بقية الأجزاء بعد ذلك محتوية لأعداد السور الآتية على التوالى : خمس سور ثم سبعة ثم تسع ثم احدى عشرة ، ثم ثلاث عشر سورة ، ثم يأتى الجزء الأخير متضمناً لبقية السور مستهلاً بسورة (ق) ، وبإضافة سورة (الفاتحة) إلى هذا التتابع نجد أن سورة (ق) هى السورة الخمسون ، وهو نفس ترتيبها فى مصاحف اليوم ، وهو ما يثبت مرة أخرى أن الترتيب المصحفى للسور ، والذى وضعه محمد ﷺ ـ قد ظل ثابتاً لم يتغير ، كما أن سورة الفاتحة ، والتى أطلق الرسول عليها ذلك الاسم بوحى الله ـ تتبوأ الآن نفس المكان فى مصحف اليوم وهو أوله .

وقد روى بعض صحابة النبى ﷺ ومنهم عثمان بن عفان ، وسعيد ابن خالد[2] أن النبى قد تلى سورة (البقرة) وأتبعها بسورة (آل عمران) أثناء إمامته للصلاة ، ثم فى صلاة أخرى تلى السور الثمان الأولى على التعاقب وبنفس الترتيب المدونة به فى المصحف ، وتلى فى صلاة ثالثة سور الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء ، وهذه السور تأتى اليوم متعاقبة

(١) هو أنس بن مالك (المترجم) .

(٢) يرجح أن المقصود هنا هو أبوه خالد بن سعيد بن العاص ، وذلك لحداثة سن المذكور ، حيث ولد أثناء هجرة الحبشة ، كما أن خالد بن سعيد من السابقين للإسلام ، ومن كتبة الوحى ، فيروى أنه أول من كتب (بسم الله الرحمن الرحيم) . (المترجم) من كتاب الأصالة فى تمييز الصحابة ـ الجزء الثان ص ٢٣٦ ـ ص ٢٣٦ .

وبنفس الترتيب وأرقامها على التوالى (١٧, ١٨, ١٩, ٢٠, ٢١) .

فلا شك إذن فى أن ذلك إدحاض لاتهام (ونزبوخ) (Wans-brough) للقرآن بأنه « عبارة عن أفكار مبعثرة مجمّعة بشكل ردئ » ، وأنه « نتاج التصور الأساسى للأفكار خلال فترة نقله الطويلة » ، والذى يستطرد فيقول : « إنها فترة نقله التى جاوزت أجيالاً عدة ، أو بالتقريب هى قرنان من الزمان ، حيث إن المصحف لم يصل أبداً إلى صورة ثابتة»[1] !! ونعجب كل العجب ونتساءل : على أى قواعد منطقية ارتكز أمثال هؤلاء المستشرقين فى انطلاقهم فى هذا الزعم الجامح ؟ ولكن لعل الاحتمال الأكبر أن يكون قد التبس على الأستاذ (ونزبروخ) التفريق بين القرآن والحديث ، وذلك من خلال نظرته الشاملة للحقائق المذكورة آنفاً ، فعملية التدقيق والتسجيل للحديث لم تتم فعلاً إلا بعد وفاة الرسول ﷺ بحوالى قرنين عندما كتب صحيحا البخارى ومسلم الشهيران .

ولقد أثبت القرآن نفسه حقيقة وجود الترتيب المصحفى إبان عهد محمد ﷺ ، وجاء ببرهان قوى مقنع ، ففى سورة (القيامة) نقرأ قوله تعالى : ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرآناه فاتبع قرآنه** ﴾ [القيامة اية ١٧ ـ ١٨] ، وجمعه تعنى وضعه معا ، أى بتنظيم الآيات والسور ، وهذا (التجميع) أو (التنظيم) للسور لا يمكن صنعه إلا وفق ترتيب محدد ، ألا وهو الترتيب الإلهى ، وعلى ذلك ، يبدو واضحاً أن الله سبحانه لم ينزّل الوحي فقط ، ولكنه أنزل معه تنظيمه وجمعه .

ويبدو أنه من المحتمل أن غفلة المستشرقين عن هذه الحقائق التاريخية ناجمة عن عدم إلمامهم الكامل باللغة ، فمنهم من لم يحكّم غير فواصل القرآن وإيقاعاته ، ومثالهم (بل) (Bell)[2] الذى ذكره :

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wansbrohgh) وفى المرجع انظر صفحات ٤٧ ، ١١٥ ، ٢٢٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) ص ٨٣ .

« أنه بعد دراسة مفصلة ودقيقة للهيكل العام لمقاطع القرآن فقد ثبت أنها قد بُدلت وروجعت ... كما أن عباراته لم توضع فى أماكنها فقط ـ مجرد وضع ـ فى السور ، ولكنها تعرضت لنوع من التكيف مع أماكنها، وهو ما يبدو من خلال وقْع الايقاعات الخفية المحتجبة »[1] ، ولو حرّفت أى آية أو بدلت بأى طريقة كانت ، لبات من الصعب ، بل من المستحيل إخفاء ذلك عن الدارسين للتاريخ الإسلامى ، أولئك الذين يصفون أدق التفاصيل المتعلقة بما وجد فى القرآن »[2] .

ولقد افترض بعض المستشرقين أن القرآن لم يرتّب مصحفياً ، واضعين فى اعتبارهم أن الوحى قد كتب على الرقاع وعلى الألواح والجلود ، كما كتب على عضام أكتاف الإبل وعلى سعاف النخيل ، فنجد (بل) مثلاً يرى : « أن القرآن ما هو إلا عدد لا نهائى من الجزئيات غير المتصلة ، وذات تغيرات مفاجئة فى الموضوع ، كما أنه يحوى أخطاء نحوية » ، ثم مضى فى محاولة منه لتأكيد الاتهام فقال : «ولتعليل ما مضى ذكره من عيوب ، فإنه ليس أمامنا إلا أن نفترض أن عملية الكتابة شملت أحياناً كتابة ما فى ظهر الرقعة تاليا لما فى وجهها مما أعطاها الترتيب » ، ثم استشهد (بل) بالآيات الآتية على زعمه فقال: « نحن نجد فى سورة (الانشقاق) وفى الآيات من (١٣ـ١٥) هدماً للتوازن المذكور فى الآيات المتقدمة عليها ، وهى الآيات (٧ـ١٢) والتى يمكن اعتبارها وحدة متكاملة مستقلة لو بقيت وحدها . والآن دعنا نعرض الآيات :

﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيرا * وينقلب إلى أهليه مسرورا * وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف

---

(١) انظر كتاب الاتقان فى علوم القرآن (الجزء الأول) ـ دار الحلبى ـ القاهرة سنة ١٩٥١م .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) ص ٩٠ .

يدعو ثبورا * ويصلى سعيرا * إنه كان فى أهله مسرورا * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيرا ﴾ [الانشقاق آية ٧ـ١٥]

وتمثل هذه الآيات تصويراً لمشهد الآخرة بشىء من التفصيل ، فتعقد مقارنة بين شخص مستقيم وآخر آثر الحياة الدنيا ، وأنكر بيوم الحساب ، فالأول سيحضر حسابه وكتابه في يده اليمنى ، وسيكون مسروراً بأعماله ، مبتهجاً بمصاحبة أهله (الآيات ٧ـ٩) ، فى حين نرى صورة الكافر الذى سيشعر بالتعاسة حيث سيلُقّى كتاب أعماله السيئة بصورة مخزية ، إذ سيلُقّاه من وراء ظهره ، وسيعذب عذاباً شديداً فى جهنم (الآيات ١٠ـ١٢) فلا يلومن الكافر إلا نفسه حيث أغرق نفسه فى شهوات الدنيا أثناء حياته ، وأهمل عبادة ربه الذى هو به بصير دائماً، وأنكر حقيقة الرجوع إليه تعالى ليحاسبه (الآيات ١٣ـ١٥) .

وعلى ذلك فإننا نرى أن الآيات (٧ـ١٢) ليست كاملة المعنى ، وإن بدت وحدها ، لأن الآيات (١٣ـ١٥) تهتم بإتمام معالم الصورة بإعطاء الخلفية للأحداث المذكورة فى الآيات (٧ـ١٢) .

جمع أجزاء القرآن مكتوبة :

لم يقلق أحد بعد وفاة الرسول ﷺ بشأن النسخة المكتوبة من القرآن وحتمية جمعها ، وذلك لوجود العديد من حافظى القرآن حسب ما تلقوه متلوا عن النبى ﷺ نفسه ، ولكن بعد سنة أخرى ، استشهد أكثر من سبعين صحابياً من حفظة القرآن، وذلك فى معركة اليمامة[1] ، فخلق تأثير هذا الفقد المفاجئ العام ضرورة ملحة ، وبات لزاماً على المسلمين أن يجمعوا مادة القرآن فى كتاب واحد ، وذلك لتسهيل تناوله واستعماله كمرجع لهم ، وقد اقترح (عمر بن الخطاب) فكرة هذا المشروع على (أبى بكر) خليفة رسول الله ﷺ ، وكان أقرب صحابته

(١) وهى معركة قادها خالد بن الوليد لتأديب مسيلمة الكذاب (المرتد) على عهد الخليفة أبى بكر الصديق . (المترجم) .

إلى قلبه ، وكان عمر نفسه من الصحابة البارزين ، وقد تردد (أبو بكر) في البداية قائلا : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ » ، ثم مالبث أن اقتنع تدريجياً بصواب اقتراح (عمر بن الخطاب) .

ولعل هذه الحادثة ترينا كيف كان صحابة رسول الله ﷺ بخاصة ، والمسلمون بعامة ، يحبون القرآن ويقدسونه ، ولذلك فما لبث أبو بكر أن أرسل إلى (زيد بن ثابت) ، وهو أحد كتّاب الوحي الذين كتبوا أغلبه على عهد النبي ، وتحت إشرافه ، وكان واحداً من أولئك الذين تميزوا بحفظ القرآن عن ظهر قلب ، فكان مرجعاً لمواضيعه المختلفة وطرق قراءته، ذلك أن زيداً قد عنى بجمع القرآن وحضر العرضة الأخيرة التى أُثرت عن الرسول ﷺ ، كما كان مشهوداً له بالكمال والعقل .

ويومها خطب عمر فى الناس ، واشتملت خطبته على أمر إلى كل أرجاء المجتمع الإسلامى فقال : « من كان تلقى شيئاً من رسول الله ﷺ من القرآن فليأت به »[1] ، وعلى ذلك جلس زيد ومعه عمر على باب المسجد ، وأخذ من كل من لديه أية آية قرآنية مكتوبة ، ولم يقبلا أية آية حتى يشهد اثنان من صحابة الرسول على أنها قد كتبت فعلاً فى حضرة النبى ﷺ ، وتحت إشرافه ، فكانت شهادة الشاهدين نوعاً من المحافظة التامة على نقاأ الكتاب وصدقه ، أو بمعنى آخر ، لم تكن كتابة القرآن من الذاكرة بالشىء الكافى ، على الرغم من أن كثيراً من المسلمين قد حفظوه عن ظهر قلب ، كذلك لم يكن أبو بكر مقتنعاً بمجرد عملية جمع المكتوب وذلك لوجود العديد من الكتابات التى كان بعضها يحمل ملاحظات تفسيرية ، وبعضها الآخر لا يحوى . ومن ثم فإننا نخلص إلى أن المجتمع المسلم ـ الذى يحمل كل الحب لكتابه المقدس ـ لم يدّخر وسعاً فى التدقيق والتمحيص أثناء جمعه .

---

(١) انظر كتاب الاتقان فى علوم القرآن (الجزء الأول) ـ ص ٥٨ .

ولقد تميزت النسخة الرسمية للقرآن عن باقى النسخ التى يمتلكها الأفراد بدقتها المطلقة ، التى تمنع عنها كتابة أية ملاحضات تفسيرية أو حتى أسماء السور ، وقد كتبها زيد على رقاع من الورق ، وجمعت هذه الرقاع معاً ، وفرضت عليها وصاية أبى بكر ، وعند موته أورثها عمر ابن الخطاب الخليفة من بعده .

أما عندما حانت منية عمر فإنه لم يشأ أن ينصب خليفة من بعده ، وآثر أن يترك ذلك لاختيار الناس ، لذا فقد حفظت تلك النسخة الوحيدة للقرآن الكريم لدى حفصة ابنة عمر بن الخطاب ، التى كانت أماً للمؤمنين[1] .

ولكن بعض الكتّاب أهملوا هذه الحقائق التاريخية ، ومنهم من فوجئ بها عندما عرفها ، بينما فكّر آخرون وعللوا أن القرآن ليس إلا نتاجاً للتطور الطبيعى عبر القرون[2] .

إصدار النسخ المعتمدة للقرآن :

يسجل التاريخ الإسلامى أنه فى خلال رحلة عودة (حذيفة بن اليمان) وهو أحد الصحابة ـ إلى المدينة ، وكان قادماً من منطقة (أرمينية) ، قابل عدداً من المسلمين من مختلف أقاليم الدولة الإسلامية، ثم عاد فأخبر الخيلفة (عثمان بن عفان) بما رأى من تصور مزعج ، لقد لاحظ فرقاً واضحاً بين أساليب قراءة القرآن عند أهل الشام ، وزهل العراق ، وكما نعلم كان الشام والعراق إقليمين حديثى عهد بالإسلام ، ولم تكن لغتهما عربية أصلاً ، وقد عبّر حذيفة عن قلقه البالغ لعثمان بأن قال : « أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى » .

---

(١) أم المؤمنين : لقب زوجات الرسول ﷺ ، وقد كانت حفصة تجيد القراءة والكتابة . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wansbrough) وفى المرجع انظر صفحات ٤٧ ، ١١٥ ، ٢٢٥ .

فانزعج عثمان ، وألف لجنة فى الحال من اثنى عشر عضواً تحت رياسة (زيد بن ثابت) وهو الذى سبق أن عهد إليه بمهمة جمع القرآن على عهد الخليفة (أبى بكر) ، وقد أشرف عثمان بنفسه على هذه اللجنة التى اشتملت على عدد من كتّاب الوحى ، واشترط عيليهم أثناء قيامهم بنسخ القرآن ألا يكتبوا أى شيء سوى آيات القرآن ، وزن تكون بنفس ترتيبها الذى اتبعه النبى ﷺ نفسه ، والذى يذكره عنه حفضة القرآن ، وأن يلتزموا بنفس طريقة الكتابة التى يسهل قراءتها بالعديد من طرق القراءة المعروفة على عهد رسول الله ، وكذلك الخط ينبغى أن يكون متوافقاً مع لهجة قريش العربية ، وهى قبيلة محمد ﷺ[1] .

وقد سجّل التاريخ ، أنهم اختلفوا فيما بينهم أثناء نسخهم حول كلمة (تابوت) ، فقال أعضاء اللجنة القرشيون: « نحن ننطقها تابوت» ، ولكن زيدا وهو الخزرجى من المدينة أعلن : « ونحن ننطقها تابوه » ، فاحتكموا إلى عثمان الذى أصدر تعليماته باتباع اللهجة القرشية فى الكتابة ، وأن تنسخ الكلمة على أنها (تابوت)[2] .

وفور الانتهاء من كتابة النسخ الأربعة الرسمية ، أمر عثمان بإرسال ثلاث منها إلى كل من الشام والعراق ومكة ، وأن تحفظ الرابعة فى المدينة ، ثم أعيدت النسخة الأصلية إلى حفصة مرة أخرى ، وأخيراً أصدر الخليفة أمراً بإحراق جميع نسخ المصحف الأخرى .

ولا ريب أن كثيراً من المستشرقين قد أقروا بهذا التوضيح التاريخى ، بل إن (منزس) (Menezes)[3] سلّم به فقال : « إن تبجيل جميع المسلمين الرائع للقرآن ، وتقواهم منذ البداية وورعهم ، هذه المعانى هى التى جعلتهم يحفظونه عن ظهر قلب ، وهى التى تؤكد وجود نسخة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر المقدمة .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر المقدمة .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes)وفى المرجع انظر ص ١٠٥ .

مكتوبة على عهد النبى لكل ما نزل من الوحى ، كما أن جمع زيد للقرآن قد حظى بالقبول الإجماعى مباشرة وبصورة فورية . وكل هذا لا يترك مجالاً للشك فى أن القرآن يحوى بالفعل كل الكلمات التى أوحيت إلى النبى ، ولكن الاختلاف يتمثل فقط فى بعض الأوجه الصوتية والإعرابية ، والتى لا تعد إلا أمراً طارئاً جاء فيما بعد ذلك ، ولم يكن قط موجوداً على عهد زيد » .

والواقع أنه لم يكن هناك أدني حاجة لتحديد قواعد للضبط أو الإعجام فى السنين الأولى للإسلام عندما كان المجتمع المسلم كله عربياً، وكان متمكناً من لغته ، ففى تلك الأيام كانت الحروف : الباء والتاء والثاء والنون والياء تزخذ كلها الشكل الواحد (ٮ) ، وكان القراء العرب فقط هم الوحيدين الذين يميزون بعضها عن بعض ببساطة ، لاعتمادهم على سلائقهم وحفظهم ، وعلى فهمهم لمحتوى السياق ، ولكن فى القرن الأول بعد الهجرة حدث أن أسلمت أمم بكاملها غير عربية ، وبدأت فى تعلم اللغة العربية ، كيما تستطيع قراءة القرآن وأداء الصلوات . وقد واجه أفراد هذه الأمم صعوبات فى قراءة اللغة ، إلي أن اقترح أحد اللغويين البارزين ، وهو (أبو الأسود الدؤلى) استخدام النقط لتعيين الحركات فى أواخر الكلمات ، لتستقيم الألسنة فى أداء النص القرآنى . وبذا تيسيرت القراءة الصحيحة حتى لذوى الإلمام باللغة العربية .

مصحف اليوم :

لقد أعيد طبع القرآن الكويم وآلاف المرات باللغة العربية فى غضون الأربعة عشر قرناً الماضية ، حدث ذلك دون أى تغيير ، ولو طفيف ، فى أية آية ، أو آية كلمة ، أو أى حرف ، كذلك لم يحدث أى تغيير فى ترتيب الآيات داخل السور ، ولا فى ترتيب السور خلال الكتاب وكل الذى حدث أن ظهرت بعض الاختلافات فى قراءة النص وضبطه ، تؤثر على نطق بعض الأصوات ، والهدف منها أنها قد تؤكد معنىً واضحاً ،

أو آخر خفياً ، لبعض الكلمات وهو ما دفع (سيل) (Sale) لأن يقرر أن : « هناك سبع طبقات رئيسية ، إن صح لى أن أطلق عليها ذلك ، أو لنقل سبع نسخ قديمة ، اثنتان منها صدرتا فى المدينة ، والثالثة بمكة ، والرابعة بالكوفة ، والخامسة بالبصرة ، والسادسة بالشام ، أما السابعة فقد اعتبرت مشتركة بين هولاء ، وقد عدد آيات الأولى ستة آلاف آية ، وبلغ عددها فى الثانية والخامسة ستة آلاف ومائتين وأربع عشرة آية ، وفى الثالثة ستة آلاف ومائتين وتسع عشر ، أما فى الرابعة فقد بلغ ستة آلاف ومائتين وستا وثلاثين ، وبلغ فى السادسة ستة آلاف ومائتين وستا وعشرين آية ، بينما اعتبرته السابعة والأخيرة ستة آلاف ومائتين وخمسا وعشرين ، ولكن ينبغى أن نعلم أن كل هذه النسخ قد حوت نفس العدد من الكلمات وهو سبعة وسبعون ألفاً وستمائة وتسع وثلاثون كلمة ، وكذلك نفس العدد من الحروف وهو ثلاثمائة وثلاثة وعشرون ألف وخمسة عشر حرفاً »[1] .

وقد أشار (موير) (Muir) متحدثاً عن خلو المصحف من العيوب ـ إلى أنه لا يوجد كتاب فى العالم ـ غير القرآن ـ بقى على صورته النقية طوال قرون عدة ، وعلق (مارجوليوث) (Margoliouth) قائلاً بأن نظرية (التلون بالوسط) (Coloring by the medium) التى أعدها اللاهوتيون المسيحيون مبررين بها التناقضات التى حفلت بها كتبهم المقدسة ، هذه النظرية ليست معروفة مطلقاً فى الإسـلام[2] ، ثم صرح (منزس) (Menezes) أيضاً فقال : « من المؤكد جداً أن زيداً قد توخى الأمانة فى صنيعه ، كما أن قبول (على)[3] وأتباعه للقرآن ـ وهم الذين عادوا عثمان ـ هو أعظم ضمان لصحته وأصالته » .

وجاء (بارتون) (Birton) بزعم مناف تماماً لكل ما هو طبيعى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٤٠ .
(٢) يقصد علياً بن أبى طالب .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) ص ٦٣

منطقى أو معقول ، فقد وقف أمام إجماع المجتمع المسلم بأسره على العناية الفائقة التى سجل بها القرآن ، كما سبق ذكره ، وأعلن أن : « المصحف ما هو إلا تسجيل منقوص غير كامل للقرآن »[1] ، وكما يبدو فإن ما فرضه بارتون يعد خطأ ، وما نسبه إلى القرآن قد جاء نتيجة لسماعه عن بعض النسخ الشخصية غير الكاملة للمصحف ، كالتى كانت لابن مسعود أو لأبى[2] ، اللذين اعتادا أن يكتبا ـ خلال النص ـ ملاحظات تفسيرية هامشية .

العلوم والفنون المتعلقة بالقرآن الكريم :

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أن أى شخص مهما بلغت معرفته بموضوع ما فإنه لابد أن يكون ملماً بشتي النواحى المتعلقة بالموضوع الذى هو بصدده ، وكذلك ، فإن من يدعى القدرة على الإتيان بمثل القرآن لا بد أن يكون ملماً تماماً بمختلف علومه وفنونه ، وزيادة على ذلك ينبغى أن يكون متقناً تماماً للغة العربية .

ولقد قسم (جلال الدين السيوطى) العلوم والفنون المتعلقة بالقرآن الكريم فى كتابه (الإتقان فى علوم القرآن) إلى ثمانين مجموعة ، وذلك منذ حوالى خمسة قرون ، وقد يصل مجموعها إلى ثلاثمائة عنوان فرعى إن قمنا بتقسيم هذه المجموعات إلي أجزاء أصغر . ولضيق المساحة التى لدينا فإننا نذكر أن هذه المجموعات تشمل ما يلى :

١ ـ العلوم المتعلقة بالمناسبات وبالتواريخ وبأماكن النزول ، وتبين الايات التى أنزلت فى مكة أو فى المدينة أو فى أى مكان آخر ، وتشمل الآيات ألتى أنزلت فى النهار أو فى الليل ، وتلك التى أنزلت فى الشتاء

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) ص ١٠٥ ـ ١١٢ .

(٢) هو أبى بن كعب بن قيس الأنصارى ، وكان من أصحاب العقبة ، وشهد بدرا والمشاهد كلها ، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ ، وكان عمر بن الخطاب يسميه بسيد المسلمين ، ويقال مات فى خلافة عثمان سنة ثلاثين . (المترجم) .

أو فى الصيف ، بل وتشمل الآيات التى نزلت على رسول الله ﷺ وهو مقيم ، أو وهو مسافر ، وهكذا ...

٢ ـ العلوم المتعلقة بترتيب وأسباب التنزيل لمختلف الآيات ، وما قد قُنّنَ منها قبل نزولها على قلب محمد ﷺ أو بعده ، كما تتعلق هذه العلوم أيضاً بما قد أوحى للأنبياء السابقين وبما لم يوحَ ، وكذلك بالكيفية التى نزلت بها هذه الآيات .

٣ ـ العلوم المتعلقة بالناسخ والمنسوخ ، وما يتصل بذلك من موضوعات ونظريات تدور حول النص القرآنى .

٤ ـ العلوم التى تغطى الأسلوب الأدبى ، وتغطى الكلمات وأصلها، والقواعد النحوية والبيانية والبلاغية والاستعارات والمجازات ، وإعراب الكلمات ، كما تشمل علم دلالات الألفاظ وتطورها .

٥ ـ تاريخ كتبة الوحى ـ وهم أول من كتبوا القرآن ، وتاريخ حفضة القرآن الذين حفضوه عن ظهر قلب ، كما يتضمن هذا العلم تاريخ أولئك الذين كانوا أول من علّموه للناس .

٦ ـ علوم تناقش الجوانب الإعجازية للقرآن ، وتناقش الأحداث التى تنبأ بها ، والتاريخ الذى صاحب هذه النبؤات وتحقيقها ، كما تعبر عن السبل التى تفوق فيها القرآن وبرع ، وعن خصائصه ، وهكذا ...

٧ ـ العلوم الفقهية من فقه العبادات وفقه المعاملات والقواعد والقوانين التى سارت عليها الأفراد والمجتمعات المذكورة فى القرآن ، فتناقش النواحى المختلفة للحياة التى عاشوها ، وتتعرض للدراسات الدقيقة التى تناولتهم ... إلخ .

٨ ـ العلوم الفيزيائية ، والعلوم الأخرى التى ذكرت فى القرآن ولو بالإشارات ، وما يتعلق بسرد هذه العلوم ، ومنجزات المسلمين فيها ، وكذا تاريخهم ، وهكذا .

٩ ـ تاريخ الشخصيات المذكورة فى القرآن ، وأسماءها وكناها وألقابها ، بل وتاريخ الأمم التى جاءوا منها.

١٠ ـ العلوم التى تتعلق بتأويل القرآن وتفسيره ، والقواعد التى يرتكز عليها ، وكذلك عرض كامل للدارسين الذين تخصصوا فى هذا العلم مع أعمالهم وتحليلاتهم ، والطرق التى اتبعوها وارتضوها فى التفسير ، إلخ ... إلخ .

١١ ـ العلوم والفنون المتعلقة بقواعد الخط ، وتاريخ تطوره ، والأصول التى تتبع فى ضبطه .

١٢ ـ فنون وقواعد قراءة القرآن وتلاوته ، والطرق المختلفة لمخارج الحروف ، ونطق الصوامت والحركات ، والآداب المتّبعة أثناء الصلاة .

ويوجد بجانب هذه المجموعات من العلوم والفنون فروع أخرى غنية من العلوم المرتبطة بالقرآن ، ولنبدأ أولاً بتلك التى تتعلق برسول الله ﷺ والتى تشمل : سيرته وتعاليمه وأحاديثه وكذا دراسات حول المؤرخين الذين سجلوا أقواله (علم الحديث) ، وهؤلاء يأتى تصنيفهم وفقاً لشخصياتهم وأخلاقهم ودقتهم فى التسجيل ، وتشمل كذلك سلاسل الإسناد التى جاءت الروايات عن طريقها ، ذلك أن علم الإسناد يهتم بالتدقيق فى كل حلقة من سلسلة الرواة الذين سجلوا أحاديث النبى ﷺ الشريفة ، فيبدأ بمن يروى الحديث ثم يمضى صعداً بالترتيب إلى أن يصل إلى الرسول ﷺ .

وهناك علوم تعنى بتنظيم هذه الأحاديث المكتوبة فى عدة مراتب ، ويعترف من خلالها ما يسمى بالصحيح ـ ويعنى الموثوق فى صحته ـ ويحتوى الصحيح الأحاديث عن طريق أكثر سلاسل الإسناد قوة ، ودرجات تقسيمها هى : حديث صحيح ، وحديث ضعيف ، والضعيف هو ذلك الذى وصل الإسناد فيه إلى رواية ضعيفة ، أو فقدت فيه واحدة من حلقات الإسناد القوية التى يعتمد عليها عند تسجيل الحديث ،

ولكن نوضح مدى التدقيق والتمحيص الذين اتبعهما مدونو الأحاديث ، يمكننا أن نشير هنا إلى (صحيح البخارى) ، ذلك الذى يعد واحداً من أعظم الكتب فى هذا المجال، فقد جاء فيه تحت باب (الكذب على النبى ﷺ)(١) ، فيقول البخارى : « حدثنا على بن الجعد قال أخبرنا شعبة قال أخبرنا منصور قال : سمعت ربعى بن حراش يقول : سمعت علياً يقول : قال رسول الله ﷺ : لا تكذبوا علىّ ، فإنه من كذب علىّ فليلج النار » .

ويقول البخارى فى نفس الباب : « حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن جامع بن شداد عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال قلت للزبير : إنى لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ؟ قال : أما والله إنى لم أفارقه ، ولكن سمعته يقول : من كذب علىّ فليتبوأ مقعده من النار » .

وذكر البخارى فى نفس الباب أيضا: « حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز قال : قال أنس : إنه ليمنعنى أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن النبى ﷺ قال: «مت تعمد علىّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار » .

هذه بعض الأمثلة تبين مقدار العناية الفائقة المصاحبة لتسجيل أسماء الحضور وقت نطق النبى للحديث ، فضلاً عن تسجيل كل كلمة نطق بها صلى الله عليه وسلم ، وتلك التى صاحتبت تسجيل أسماء كل الذين تناقلوا أقواله صلى الله عليه وسلم عبر الأجيال المتعاقبة على الرغم من اختلاف مصادر الأخبار .

ولنسأل الآن سؤالاً أخيراً ؛ كم عدد الكتّاب الدارسين من المستشرقين الذين تطرقوا بأقلامهم للدراسات الإسلامية والعربية ، والذين تمكنوا جيداً من كل هذه العلوم والفنون المصاحبة للقرآن قب أن ينصبوا من أنفسهم نقّاداً للقرآن وسوره وأسلوبه ولغته ، ليخرجوا علينا بهذه الانتقادات التى نقرؤها وتسمعها ؟

---

(١) كتاب العلم ـ الجزء الأول من صحيح البخارى ـ باب (٣٨) . (المترجم) .

الفصل الرابع

الترتيب المصحفى للقرآن

نقرأ كثيراً من التعليقات والإدعاءات حول الترتيب المصحفى للآيات والسور، على لسان المستشرقين الذين تناولوا الموضوع من نواحيه المختلفة، على أن حصر أعداد من أقر بالترتيب التقليدى للمصحف بات مستحيلاً لعدم جدواه ، فى حين أن بعض المستشرقين قد انتقدوا ترتيب القرآن المصحفى واقترحوا ترتيباً آخر له يناسب ذوقهم الخاص،فهل من الشرورى أن يؤدى جهلهم إلى كل هذا العداء المسبق للحق والعدل ؟ لقد وصف المستشرقون الذين ظهروا فى العصور الوسطى وأمثالهم (ريكاولدو) (Ricoldo) و(فينست دى بوفيس) (vincent de Beauvais) وصفوا القرآن بأنه : « مختبَع ، ومشتت ..... ، ولا يوجد به أى تحديد للتاريخ عن طريق الحقبات الزمنية وعهود الملوك »[1].

وحاكاهم ـ بكل أسف ـ بعض المستشرقين الذين جاءوا من بعدهم، فكرروا مزاعمهم بصورة ميكانيكية تلقائية ، وكأنْ لم يبذل أدنى مجهود علمى لإثبات صحتها ، ولسوف نستعرض نخبة ممثلة لهذه الإدعاءات على الصفحات القادمة متناولين كافة زواياها بالتحليل ، وساردين لآيات قرآنية تتضمنها المناقشة .

فلقد انتقد كل من (موير) (Muir) ، و(نولدكه)(Noldeke) ، و(بالمر) (Polmer)[2] و(رودريل) (Rodwell)[3]، و(لين) (Lane)[4]،

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٦٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmar) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) .

كما زعم بعد ذلك مؤخراً مستشرقون أُخر مثل (جفرى) (Jeffery)[1] و(كراج) (Cragg)[2] ، و(كريتزيك) (Kritzeck)[3] انتقدوا القرآن لأن السور قد رتبت فيه بصورة معاكسة لتلكل التى نزلت بها حسب ظنهم .

واتهم (رودويل) و(تريتون) (Tritton)[4] زيد بن ثابت ورهطه بإهمال جل جزئية من جزئيات نظام السور ، متغاضين عن حقيقة أن مجموعة زيد كانت تتبع المنهج المصحفى القرآنى الذى انتهجه الرسول ﷺ نفسه بمنتهى الدقة ، كما تخيل كل منهما أن زيداً وضع بكل بساطة « الجزء الأكبر وما رآه معروفاً بالنسبة إليه أولاً ، ثم اتبعهما (كريتزيك) (Kritzeck) بأن اتهم زيد بن ثابت رضى الله عنه بتلفيق نظامه الخاص لترتيب السور فقال : « تم هذا بدون أى اعتبار لتواصل الموضوع ، وتناسق الأسلوب » حسب تقديره ، ثم استطرد : « والمحصلة التى لدينا هى عمل من أصعب ما يكون من ناحية القراءة وكذلك من ناحية تضارب الأفكار »[5] ، وبعد ذلك جاء (جفرى) (Jeffery) فاتهم زيداً وجماعته باتخاذهم وحى النبى ﷺ قاعدة « انطلقوا منها لترتيب المصحف وفق ما استحسنوه ، وأضافوا إليه مواد أخرى رأوها مناسبة »[6] ، وهذا الاتهام الأخير هو من أكثر الاتهامات شناعة وضحالة واستهتاراً بالحق ، ولكن ما يدهشنا هو أن هذه التخمينات لم تشتمل على مثال واحد يثبتها ويجسدها للحقيقة ، فهذه « المواد الأخرى » التى زعمها (جفرى) إن وجدت يوماً ما خارج خيال المستشرقين ـ لابد وأن تكون

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (الإسلام ومحمد) ص ٤٧ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Cragg) كتاب (الإسلام المعاصر) ص ١٧٥ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Kritzeck)

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) وفى المرجع انظر ص ١٥ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Kritzeck) وفى المرجع انظر ص ٣٥ .

(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (القرآن) ص ١٥ ، ١٦ .

واحدة من اثنتين : إما شيئاً على غرار باقى أسلوب الآيات القرآنية ، أو مختلفاً عنه ، فإن كانت هذه المواد تنتهج نفس أسلوب القرآن فى آياته ، فلاشك حينئذ أن هناك مؤلفين آخرين للقرآن استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، ولكن الذى حدث هو أن التاريخ قد أثبت أن هذا لم يحدث مطلقاً ، وأن التحدى لا يزال قائماً إلى يومنا هذا ، وأما إن كانت هذه المواد الأخرى من أسلوب آخر ، فمن المؤكد أن الخبراء اللغويين كانوا سيميزونها ويستخرجونها من بين الآيات بكل بساطة ، ولكن لم تثبت فى أى من المؤلفات عبر القرون أدنى وجود لأى شائبة فى الأسلوب القرانى ، وبرغم ذلك يصر (جفرى) فيقول : « إن كل ما يحتويه المصحف أصله إلى الرسول، ولكن توجد أجزاء قليلة به توجب علينا أن نشك فى أصالتها وصحتها » ، مع العلم أن إصراره هذا لم يؤيد بمثال واحد لثبت مثل هذه الإدعاءات المزعومة[1] .

وقد دفع بعض الكتّاب بأنفسهم إلى مجال الاتهام الطائش للنبى ﷺ نفسه ، فوصفوه : « بتعمد الخلط بين الوحى القديم والجديد فى القرآن ، ولم يكن هذا الخلط من أجل الحصول على هذا الأسلوب العجيب الذى بدا باهراً لكل من يقدرون حقيقته ... ، بل كان لغرض تخفيف الحدة لبعض العبارات التى نزلت قبلاً »[2] . والآن ؛ هل يمكننا وصف اتهام كهذا للهيكل التاريخى المتين لحقائق كل سورة ، بل لكل آية ، إلا بأنه ثمرة لفقدان الوعى والمعرفة ؟ إن هناك العديد من الكتب العربية والأجنبية التى تبحث فى تفسير القرآن ، فيها تدرس كل آية ، ويتم تحليلها بناء على ما بها من قواعد نحوية ، وأشكال تركيبية ، كما يتم تحليل مناسبة نزولها ، ونواح أخرى تتعلق بها ، فهل بات أولئك المستشرقون دارسين ومراجعين لأمثال هذه الكتب ؟ لقد جهلوا إذن وضلوا ضلالاً بعيداً .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jettery) كتاب (القرآن) ص ١٥ ، ١٦ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٧ .

محاولات التغيير فى الترتيب المصحفى :

لقد استبدت بعقول بعض المستشرقين فكرة تتابع السور القرآنية حسب ترتيب النزول ، ولكن الحقيقة التى بقيت واضحة هى أن فكرتهم هذه ـ حتى إذا سلمنا جدلاً بمعقوليتها ـ تبدو مستحيلة التطبيق على كثير من السور ، لسبب بسيط ؛ هو أن هذه السور تشتمل كل منها على نوعى الوحى، القديم منه والحديث ، وهو ما سيتم شرحه فيما يلى، ولكن يمكننا الإشارة هنا إلى أن بعض المعلقين على القرآن قد بدوا غير محددين للترتيب الصحيح لسورة كما زعموا ، ومثالهم (موير) (Muir) الذى اعتقد أن سورة (الفاتحة) هى السورة السادسة على حين تصور (رودويل) (Rodwell) أنها الثامنة ، وتصورها (نولدكه) (Noldeke) الثامنة والأربعين ، بينما أنكر (جفرى) (Jeffery) أنها من القرآن أصلاً، وغير ذلك من المزاعم الخاطئة التى سنعرضها لها فى الملحق الأول من هذا الكتاب حيث سيتم حصر الترتيب المصحفى للسور ومقارنة الترتيب الحقيقى لنزولها بما وضعه كل من (موير) و(نولدكه) و(رودويل) و(جفرى) ، ولكن ما يبدو مثيراً فعلاً هو ملاحظة تنظيم (موير) الذى وضعه سنة ١٨٦٠م واقتبسه (هيوز) (Hughs)(١) واستشهد به سنة ١٨٩٤ ، فهذا التنظيم يختلف فى نواح كثيرة عما جاء به (موير) نفسه واستشهد به (بل) (Bell) واقتبسه بعد ذلك عام ١٩٥٨م (٢)، وهو ما يدفعنا للتساؤل ؛ أليس غريباً وعجيباً أن تتباعد الاستنتاجات والمحصلات الفكرية لهؤلاء الرجال بالرغم من أنهم يسلكون نفس المنهاج فى التفكير والبحث ؟

إن الشيء الوحيد الذى يشتركون فيه جميعاً هو ذلك الإصرار العنيد على عدم تقبل مارسخته المعتقدات الإسلامية ، وارتضاه المسلمون عبر القرون لموضوع الترتيب المصحفى لقرآنهم الكريم !!

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٢٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص١٠٩ ـ ١١٥

افتراضات (رودويل) :

لقد ظهر أن (رودويل) (Rodwell) كان فى غاية التحمس لتأليف نظرية ـ أية نظرية ـ يفسر بها ما اختلقه من ترتيب تنزيل آيات القرآن ، وابتدأ من حقيقة أن الآيات التى نزلت مع أول الوحى كانت تتسم بالقصر ، وحاول أن يضع على أساسها ترتيباً جديداً للسور المختلفة ، ومثال ذلك ، لقد علق على سورة (الملك) فقال : « إن الآيات من ٨ ـ ١١ من الواضح أنها نزلت متأخرة عن بقية السورة ثم ألحقت بها لأن كلا منها أطول بكثير من بقية آيات السورة »(١) .

ولا شك فى أنه بمجرد النظر إلى المصحف العربى ـ وهو المادة الوحيدة الجديرة بالدراسة من دون الترجمات ـ نجد أن الآيات المذكورة فى تعليق (رودويل) وهى (٨ ـ ١١) فى سورة الملك تحوى أعداد الكلمات الآتية على التوالى (١٣ـ١٩ـ١٢ـ٥) ، على حين تتفاوت بقية الآيات فى السورة فى أطوالها ما بين (٨ ـ ١٨) كلمة ، ولكن الأهم من ذلك هو أن الآيات من (٨ ـ ١١) والتى نعتها (رودويل) بالدمج المتأخر تبدو مترابطة بدرجة كبيرة مع الآيات التى تسبقها والتى تأتى بعدها ، إذ إن الأفكار تنساب بجمال ورقة ، وهاهى الآيات : ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير * إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير * وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور** ﴾ [الملك آيات ٦ـ١٣]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ـ ٦٥ .

والآن ، وإذا كانت الآيات من (٨ ـ١١) لم تنزل فى نفس الوقت الذى أنزلت فيه بقية السورة ، فما هذا إلا دليل وإثبات لما جاء به الإسلام من أن آيات القرآن وسورة ليست مرتبة فى المصحف حسب ترتيبها التنزيلى ، ولكنها مرتبة وفق خطة إلهية وكفى .

ولقد ادعى (رودويل) أيضاً أن : « الآيات من (٢٤ـ٦٠) من سورة (الذاريات) لا تنتمى إليها أبداً ، وإنما أضيفت إليها بعد ذلك ، ولعلها جاءت إثر عملية تنقيح الكتاب وتعديله على عهد عثمان الذى أراد أن يصلها بما سبق عليها من آيات »[1] . ويمكن هنا أن نثبت خطأ هذا الإدعاء ، فالآيات من (٢٤ـ٦٠) من السورة المذكورة هى تكملة طبيعية للموضوع الذى بدأ الحديث عنه فى الآيات من (١ـ٢٣) حيث تستهل السورة بالقَسَم (١ـ٤) ، ثم يأتى التحذير من الآخرة فى الآيات (٥ ـ ٦) ، فالذين آثروا الحياة الدنيا وزينتها وأنكروا الآخرة ينتقدون فى الآيات (٧ ـ ١٢) ، ثم يوصف بعد ذلك الثواب للمؤمنين ، والعقاب للمشركين فى الآيات (١٣ـ ١٩) ، ثم ينبه فى الآيات (٢٠ـ٢٣) إلى النظر إلى آيات الله فى الكون من حولنا ، أما الآيات (٢٤ـ٥٣) فهى تذكر بآيات الله فى التاريخ ، وكيف جاء هلاك كل أمة كافرة اتهمت نبيها بالسحر والجنون ، وأخيراً تجئ إشارة للذين يكفرون برسالات الأنبياء فى الآيات (٥٤ ـ٦٠) فتحوى تذكيراً وتحذيراً لهم .

ويبدو واضحاً أن (رودويل) قد استخدم ترجمة رديئة للأصل القرآنى العربى ليقوم بإرساء دعائم نظريته التى حاول تأليفها ، فهو يؤكد أن كلمة (سَقَرٌ) المذكورة فى سورة (المدثر) تعطى نوعاً من النشاز فى النغمة فيقول : « إنها ربما دسّها الكتّاب أثناء كتابتهم للكلمة الملائمة » مع العلم بأنه لم يذكر تلك (الكلمة الملائمة) التى دارت

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ ـ ٦٥ .

بخلده[1] ، ولكن لنر كيف تنتهى الآيات من (١٨ـ٣٠) من سورة (المدثر) من المصحف :

﴿ إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقى ولا تذر * لوّاحة للبشر * عليها تسعة عشر ﴾ [المدثر ١٨ ـ ٣٠]

ولا شك أن وجود التناغم هنا فعّال جداً ومؤثر ، بل إن كل كلمة قد أخذت مكانها المناسب الذى يؤكد معناها ويقويه .

افتراضات (جفرى) :

لقد جاء (جفرى) (Jwddey) بالتخمينات الخاطئة الآتية ، أولها أنه قد نفى انتساب سورة (الفاتحة) إلى القرآن الكريم ، وجهل سورة (آل عمران) فأغفلها من ترتيبه الخاص للقرآن ، ثم مضى فى زعمه بأن سورة (المسد) قد أوحيت فى السنة الثانية بعد الهجرة فى المدينة ، هذا على الرغم من أن هذه السورة هى من ضمن الوحى المبكر بمكة ، وأنها قد أوحيت قبل عشر سنوات من الهجرة كما يسجل التاريخ الإسلامى[2] ، فترتيبها فى النزول السادسة ، وكذلك اعتبر (جفرى) سورتى (التكاثر) و(الماعون) مدنيتين ، على حين أنهما فى الحقيقة مكيتان ، ثم اخترع ترتيباً تنزيلياً خاصاً به للقرآن ارتكز فى عمله على ملاحظاته الشخصية التى ربما جمعها من ترجمة القرآن التى عكف على قراءتها ، ولنظرب مثالاً على ذلك : لقد افترض أن سورة (الفاتحة) قد سبقت السورة (٩٩ ـ الزلزلة) ، و(٨٢ ـ الانفطار) و(٨١ ـ التكوير) و(٥٣ ـ النجم) و(٨٤ ـ الانشقاق) و(١٠٠ ـ العاديات) ، على حين أن

---

(١) انظر المرجع السابق نفس الصفحات .

(٢) تفسير القرطبى .

التتابع الصحيح لهذه السور طبقاً لأخبار السيرة هو (٣٠)، (٩٣)، (٨٢)، (٧)، (٢٣)، (١٤) .

وحول موضوع حذف سورة الفاتحة تماماً من القرآن ، قال جفرى: « إن الإنسان ـ كما يظهر فى هذه السورة ، يخاطب الله على العكس تماماً من بقية الكتاب حيث نرى أن الله دائماً هو الذى يخاطب الإنسان»[1] ، ولعل خطأه هنا يبدو واضحاً حسب ما نراه من الآية الآتية من سورة البقرة : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطزنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**﴾ [البقرة آية : ٢٨٦]

ففى هذه الآية ، نرى كما نرى فى سورة الفاتحة وكما نرى سوراً كثيرة أخرى ـ أن المؤمنين قد هدوا إلى الطريقة المثلى لمخاطبة الله سبحانه وتعالى .

ثم يجئ جفرى بعد ذلك بفرضية أخرى فيقول عن سورة (العصر) « إنها سورة مكية ، ماعدا الآية الأخيرة فإنها مدنية »[2] ، ولنقرأ السورة :

﴿ **والعصر . إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [العصر آية : ١ ـ ٣]

ولدى قراءتها من الأصل العربى أو حتى من ترجمة له ، فإننا نجزم بعدم صحة فرضية (جفرى) ، لأن السورة تظهر بصورة كاملة متكاملة.

ووفقاً لفرضية أخرى (لجفرى) جاء بها حول سورة (الجن) فيقول : « إن الآيات الخاتمة للسورة تختلف كثيراً فى الشكل والأسلوب

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب القرآن ص ١٥ ، ١٦ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ ـ ٦٥ .

وتظهر وكأنها قطعة غريبة وضعها جامعوا القرآن أو كتبته »[1] ، ولنقرأ الآيات السبع الأخيرة من سورة الجن التي يبلغ عدد آياتها ثمانيا وعشرين آية : ﴿ **قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا ما يوعدون فيسعلمون من أضعف ناصراً وأقل عددا * قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وإحصى كل شيء عددا** ﴾

[الجن اية : ٢٢ ـ ٢٨]

وهكذا نشعر تلقائياً فور قراءة هذه الآيات كيف بات (جفرى) مخطئاً فى مزاعمه .

المعيار الملفق للتمييز بين الوحيين المكى والمدنى :

مما لا شك فيه أن الحافز لتأليف أية نظرية مهما كانت تتعلق بالترتيب المصحفى والتنزيلى لم يقتصر فقط على (رودويل) (Rodwell) و(جفرى) (Jeffery) ولكنه شمل أيضاً (لامنس) (Lammens) ذلك الذى لفق معياراً للآيات المدنية ، فحواه أن تلك الآيات قد ابتعدت تماماً عن الترهيب الإلهى من يوم الحساب[2] ، ولكن ذلك يظهر منافياً تماماً للحقيقة التى بدت واضحة فى الأمثلة القرآنية التى سردناها فى هذا الفصل والفصول الأخرى .

لقد ضل أولئك الملفقون الذين حاولوا خلق مقياس للتفريق بين السور المكية والمدنية يغاير حقائق التاريخ . ولنضرب لذلك مثالاً ؛ لقد

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) وفى المرجع انظر ص ٦٣ ، ٦٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٢٣ ـ ٦٥ .

افترض (بل) (Bell) أن « اهتمام محمد بأخلاقيات المجتمع ، ومحاربة الفساد والخيانة والتعفن الأخلاقى فيه ، كان ذلك فقط فى بداية المرحلة التشريعية فى المدينة »[1] .

ولكن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت ، وبات خطأ نظريته واضحاً للعيان ، ذلك أن النبى ﷺ قد حارب الاختلال الأخلاقى فى كل مراحل بعثته ، وكلمة (الفساد) وجدت فى كل من الوحى المكى والوحى المدنى على السواء ، وسورة (الفجر) وهى سورة مكية شاهدة على ذلك : ﴿ **وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب** ﴾ [الفجر آية ١٠-١٣]

ثم انعطف أولئك الدارسون إلى منعطف آخر فى تفكيرهم ، ويتمثل ذلك فى عبارة (بل) التى تقول : « من السور المشكوك فى أمرها سورة (البينة) ، تلك التى اعتبرها (موير) مكية التنزيل ، واعتبرها (جريم) كذلك بعد تردد ، ثم اعتبرها (نولدكه) مدنية . كذلك ارتاب الدارسون فى سورة (الحج) ، فصنفها (نولدكه) على سبيل التمثيل لا الحصر ضمن السور المدنية الممزوجة بعبارات مكية . ومن ثم فإننا نرى أن المستشرقين قد صنفوا السور المكية إلى مجموعات تتضمن ما لا يعترفون بكمال ترتيبها على نحو تنزيلى »[2] .

لقد استبدت بعقولهم فكرة غير سوية أملت عليهم معياراً ملفقاً لا يقبل إطلاقاً ، وذلك ليتسنى لهم تقرير زعمهم بأن سور القرآن يمكن ترتيبها على نحو تنزيلى ، مع قناعتهم التامة باستحالة دحض الترتيب الحقيقى والقائم لسور القرآن ، ومتجاوزين للأسف تلك الحقيقة الناصعة، وهى أن سور القرآن الكريم وآياته لم يكن مقصوداً مطلقاً أن ترتب تنزيلياً حسبما يهبط على الرسول ﷺ من وحى السماء .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص١٠٩ ـ ١١٣ .
(٢) انظر المرجع السابق فى نفس الصفحات .

تجميع الآيات المكية والمدنية :

أشرنا فى الفصل السابق إلى أن كثيراً من السور القرآنية تحوى عدد قليلاً من الآيات المكية ويكون الباقى كله موحى فى المدينة ، والعكس صحيح .

والآن لننظر إلى ما بين أيدينا ؛ إن مثل هذه الآيات القليلة على الرغم من أنها قد أوحيت قبل بقية السورة التى تحويها أو بعدها بعد سنوات ، فإن الشكل العام للسورة ككل يبدو غاية فى الإتقان والضبط ، كما أن توارد الأفكار « والذخيرة الضخمة من الإيقاعات الدقيقة المعقدة» كما حدّث عنها (أربرى) (Arberry) ولّد ذلك كله تدفقاً وسهولة ، من غير صدع أو إعاقة .

ولسوف نعرض الآن لبعض الأمثلة التى سنتناولها بالمناقشة ، كما أن (الملحق ٢) سيقدم قائمة بعدد أكبر من السور التى أوحى جزء منها بمكة والجزء الآخر بالمدينة .

١ ـ فى سورة (٩ ـ التوبة) أحيت الآيات المائة والتسع والعشرين على قلب النبى ﷺ فى المدينة ، عدا الآيتين الأخيرتين اللتين أوحيتا فى مكة قبل ذلك بأعوام ، وهاهى آخر ست آيات فى السورة :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون * وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون * لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العريش العظيم ﴾ [التوبة آية ١٢٤ ـ ١٢٩]

ويتضح من الآيات ذلك التمييز بين موقف الكافرين وموقف المؤمنين من أى سورة منزّلة ، فالذين فى قلوبهم مرض فقدان الدين يتناقص إيمانهم بصورة مطردة لدى سماعهم لأى سورة ، ويولون الدبر سراعاً بسبب من عدم الوعي والفهم ، وهو ما نراه فى الآيات من (١٢٤_١٢٧) . أما فى الآية (١٢٨) فإن المؤمنين مخاصبون فيها بما يتعلق بوصف رسولهم المرسل إليهم من بينهم ، ثم يريح الله تعالى نبيه صلي الله عليه وسلم فى الآية (١٢٩) فيقول تعالى ما معناه : لو أعرض الكافرين عن قبول الرسالة فما عليك يا محمد إلا أن تتوكل عليّ ـ أنا الله ـ فأنا رب العرش العظيم .

والغريب أن يأتى مستشرق يدعى (لامنس) (Lammens) بنقد مريب ناجم عن عدم القدرة على فهم الهدف وتمييزه من الآيات السابقة، فيقول : « إن هذه الآيات مدنية التنزيل ، إنها ضلت طريقها وشردت لتدخل فى عداد الآيات المكية » !!

٢ ـ إن سورة إبراهيم ، وعدد آياتها ثنتان وخمسون آية ، قد نزلت كلها فى مكة ، عدا الآيات (٢٨)،(٢٩)،(٣٠) اللواتى نزل بهن الوحى فى المدينة ، بعد ذلك بسنوات ، وهى الآيات من (١٤_٣١) :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * توتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء * ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار * وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٤٧ .

قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار * قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ [إبراهيم آية ٢٤ـ٣١]

ونرى أن هذه الآيات تناقش قضية المشابهة بين الكلمة الطيبة والشجرة الشامخة القوية ، ذات الجذور العتيدة ، وذات الثمرة الناضجة والوافرة فى جميع فصول السنة ، وكذلك المشابهة بين الكلمة الخبيثة والشجرة الفاسدة الضعيفة التى تجتث من فوق الأرض بكل بساطة ، وهذا هو المضمون حتى نهاية آية (٢٦) . بعد ذلك يأتى سيرة الكافرين وخاصة أولئك الجاحدين منهم ، الذين بدّلوا نعمة الله وأحلوا محلها الكفر والعصيان فما كان مصيرهم إلا التيه والضياع كما جاء فى الآيتين (٢٨) ، (٢٩) ، ثم تأتى آية (٣٠) بتوضيح أن أولئك الجاحدين ابتعدوا عن الله تعالى الذى يخبرهم : إن تمتعوا الآن فمأواكم بعد ذلك هو النار ، وأخيراً فى آية (٣١) أمر النبى ﷺ بأن يخبّر عباد الرحمن أن يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقهم الله فى السر والعلن ، قبل أن يأتى يوم تحاسب كل نفس عما اقترفت من أفعال ، ولن يكون هناك أى نوع من المقايضة أو المنح على غرار ما كان يفعله الناس فى الحياة الدنيا .

٣ ـ لقد نزلت سورة الحجر بأياتها التسع والتسعين فى مكة ، باستثناء اية (٨٧) التى لها أصل مدنى ، ونستعرض الآن الآيات من (٨٥ ـ ٨٩) :

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لاتية فاصفح الصفح الجميل * إن ربك هو الخلاّق العليم * ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ [الحجر آية : ٨٥ ـ ٨٩]

والخطاب فى هذه الآيات للنبى ﷺ ، وهو يؤمر فيها أن يتأمل خلق الله من حوله ، فى السموات والأرض ، ويرى أن كل شىء قد خلق بالحق ، وأن كل دليلة من الدلائل تؤكد حقيقة اليوم الآخر ، وهو ما تتضمنه آية (٨٥) ، أما آية (٨٦) فتجزم بأن الله تعالى هو الخالق العليم بكل شىء ، وتحوى آية (٨٧) تذكيراً دائباً للنبى ﷺ بفضل الله تعالى عليه ومنته ، وتشتمل آية (٨٨) على أمر للنبى بأن يخفض جناحه للمؤمنين ، يعنى أن يكون طيباً متجاوباً معهم ، وألا يحزن على من أعرضوا من قبل دعوته ، من أجل عالم شهواتهم المحدود ، وأخيراً تحوى آية (٨٩) إرشاداً للنبى ﷺ أن يدعو الناس وينذرهم من عذاب الله تعالى.

الروابط بين السور المتعاقبة :

وعلمية دراسة الروابط بين كل سورتين متعاقبتين فى المصحف تعطى برهاناً آخر على حقيقة وحى الترتيب المصحفى للقرآن على قلب محمد ﷺ ، وأن ذلك لم يكن جزافاً ، وهاهى بعض أمثلة لتوضيح هذه النقطة :

١ ـ إن العلاقة بين سورة (١ ـ الفاتحة) وسورة (٢ ـ البقرة) تبين أن الأولى تنتهى بتضرع إلى الله تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ فى حين تستهل السورة الثانية بإشارة إلى معنى الهداية نفسه ، ففى مطلع سورة البقرة : ﴿ **ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ [البقرة آية ١ ـ٢]

ونرى أنها تعطى إجابة إلهية عن توسل الإنسان فى نهاية سورة الفاتحة .

٢ ـ إن الآيتين الأخيرتين من سورة (الأنفال) تصفان السلوك التعاونى والأخوى للمؤمنين ، وتبشرهم بالثواب الإلهى ، ثم تأتى سورة (التوبة) التالية لها مباشرة فى المصحف فتستهل بالتحذير للكافرين

والمشركين والمنافقين ، وبذلك تمثل السوتان معاً تعارضا مؤثراً بنّاء للقارئ المؤمن ، فيقنعه على الدوام باتباع الطريق المستقيم والبعد عن الطريق المعوج .

٣ ـ تخاطب كل من سورتى (٩٣ ـ الضحى) و(٩٤ ـ الشرح) الرسول ﷺ ، فتحدثه الأولى أولاً بصورة مريحة لينة ، يقول تعالى :

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللأخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ [الضحى آية ١ـ١١]

فهو هنا يذكر النبى برحمته به ، وفضله عليه ، إذ آواه عندما كان يتيماً ، وهداه عندما كان ضالاً حائراً ، وأغناه عن السؤال عندما كان فى حاجة إلى الناس ، وهو ما نراه فى الآيات (٦ـ ٨] ، ثم نراه فى نهاية السورة يحظر عليه تعالى أن يقهر يتيماً أو يرد سائلاً بقسوة ، وإنما ينبغى عليه أن يعلن ربه عليه ، ويحدّث بها الناس .

ثم نرى بعد ذلك من سورة (الشرح) نوعاً من التكملة لسورة (الضحى) ، فنراها مبتدأة بتذكير النبى ﷺ ببعض ما أنعم الله تعالى به عليه ، فيقول تعالى : **﴿ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك ﴾** [الشرح اية ١ـ٤] ، ولعل العلاقة بين السورتين تبدو قوية واضحة .

ومن أمثلة كهذة كثيرة ، ومن صفحات القرآن يبين لنا أنه ليس مجرد كتاب تأريخ عادى ، بحيث ينبغى على كل جملة أن تتبع الجملة السابقة عليها زمنياً .

ولا ريب الآن فى أن المستشرقين السابق ذكرها قد بذلوا قدراً هائلا من الوقت والجهد فى محاولتهم لترتيب آيات القرآن فى شكل آخر مختلف عن هذا الموجود فى المصحف . ولنسأل ؛ هل وجه هؤلاء المستشرقون جهدهم واهتمامهم لمادة القرآن العظيمة ، وإلى الثروة الهائلة من الأفكار النبيلة التى يحفل بها هذا الكتاب المقدس

كم كانت نتائج مجهوداتهم الجبارة ستكون مثمرة ، لو أنهم وجهوها فى هذه السبيل !!

* * *

الفصل الخامس

ترجمات القرآن الإنجليزية

جاء عن كلمة (الترجمة) فى قاموس (أكسفورد)[1] أنها التعبير عن معنى أو جملة أو كتاب تعبيراً كاملاً بلغة أخرى ، ولا شك فى أن كل أولئك الذين حاولوا ترجمة القرآن من صورته العربية الأصلية قد وجدوا أن التعبير عن فيضه الهائل من الأفكار بالكلمات المحدودة القليلة التى لديهم يعد شيئاً مستحيلا ، ومن ثّم فقد أحجم بعضهم ، وهم أولئك الذين أدركوا هذه الصعوبة البالغة عن تسمية أعمالهم بالترجمة ، ومثالهم (بيكثال) (Picktall)[2] الذى أطلق على طريقته الخاصة لترجمة القرآن اسم (معنى القرآن العظيم) ، أما المستشرق الألمانى (محمد أسد)[3] فقد أطلق على ترجمته (رسالة القرآن) ، فى حين أن (أربرى) (Arberry)[4] قد أطلق اسم (تأويل القرآن) على مؤلفه ، مع العلم بأنهم قد قاموا بترجمته نقلاً مباشرة عن العربية ، وهو ما يجعلنا فى غنى عن القول بأن الترجمات من الدرجة الثانية أو الثالثة ، كالتى نقلت عن العربية إلى اللاتينية أو الفرنسية ، ثم إلى الإنجليزية لا شك فى بعدها كل البعد عن الأصل العربى .

وعلى الرغم من الخطأ الواضح فى ذكر كلمة (ترجمة) إلا أنها تبقى الأكثر ملاءمة ، مما يدفعنا إلى استخدامها تجاوزاً فى هذه الفصل . ولا شك أن القارئ يقدّر ما نعنى .

---

(١) (The concise Oxford Dictionary)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pickthall)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Asad)

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry)

نبذة تاريخية :

كانت الترجمة الأولى للقرآن ـ إلى لغة من اللغات الغربية ـ هي إلى اللاتينية ، وكان الذى قام بها هما (روبرتوس روتنسيس) (Robertus Rotenesis) و(هرمانوس دالماتا) (Hermannus Dalmata) في عام (١١٤٣) ، وقد بقيت هذه بدون طباعة حتى عام (١٥٤٣) ، وفى عام (١٦٤٧) قام (أندرى دى راير) (Andre' du Ryer) الذى كان قنصلاً بمصر لعدد سنين بترجمته إلى الفرنسية ، ولكن (سيل) (Sale) قد وصف هذه الترجمة باحتوائها على أخطاء فى كل صفحة ، وكذلك على أخطاء فى الترجمة نفسها فضلاً عن الإسقاطات والإضافات .

وفى عام ١٦٨٨ قام (ألكسندر روس) (Alexander Ross) بترجمة عمل (أندرودى راير) من الفرنسية إلى الإنجليزية مما جعلها تعد أول نسخة إنجليزية مترجمة للقرآن الكريم ، وقد وصف (سافارى) (Savary) هذه الترجمة بأنها تستحق الازدراء والاحتقار ، ونعتها (سيل) بالسوء والرداءة وأنها ليست بأحسن من أصلها الفرنسى ، وتوالت الترجمات الإنجليزية التى استند الكثير منها على ترجمة لاتينية قام بها الأب (لادوفيك ماراكس) (Fother Ludovic Maracci) عام (١٩٦٨) ، وكان كاهناً للاعتراف بالكنسية الكاثوليكية ، وتعلم العربية على يد أحد الأتراك !

ولعل من أشهر الترجمات الإنجليزية للقرآن تلك التى قام بها (جورج سيل) (Gorge Sale) فى عام (١٧٣٤)، وقد احتوت هذه على مقالة مفصّلة مفسّرة ، ويظهر فيها اعتماد (سيل) على ترجمة (ماراكسى) اللاتينية[٢] وذلك لعدم تمكنه الكامل من اللغة العربية ، فقد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wollaston) وفى المرجع انظر ص ١١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سورة من القرآن) ص ١٠ـ ٤٠

تعلمـهـا من إيطالى ويدعى (داديتـشى) (Dadichi) وكان مترجماً للملك آنذاك .

وعلى الرغم من أن (فولتير) (Voltair) قد جزم بقضاء (سيل) لفـترة « خمس وعشرين سنة فى الجزيرة العربيـة حيث حصّل معرفة عميقـة وعالية بلغة العرب وعاداتهم ، إلا أن المؤرخ (ر. أ. دافنبورت) (R.A. Davenport) نفى هذا الزعم نفياً قاطعاً ، وأفاد بزنه يتعارض تماماً مع البيانات الصارمة عن التواريخ والوقائع والأحداث » ، وبناء على ذلك « استحال وجود سيل فى جزيزة العرب لأية فـترة تذكـر ، وترتب عليه صرف النظر عن تلك القصة لنمضم إلى الأساطير التى كانت دائماً عبئاً على كاهل المؤرخين الصادقين »[1] .

ومن الأشيـاء التى لا يمكـن إنكارها أن ترجـمـة (سـيل) للقـرآن تحـوى العـديد من الأخطاء التى يشـيـر كل خطأ منهـا إلى عـدم إدراك (سيل) نفسه للغة العربية ، وهو ما سوف نضرب أمثلة عليه فى جزء لاحق من هذا الفصل ، ولكن على الرغم من احتواء ترجمته على الوفير من المغالطات والأخطاء إلا أن كتابه هذا أعيد طبعه نيفا وثلاثين طبعة ، وأعيدت ترجمته إلى الهولندية فى عام (١٧٤٢) ، ثم إلى الألمانية عام (١٧٦٤) ، وإلى الفرنسية سنة (١٧٥٠) ، والروسية فى عام (١٧٩٢) ، وكـذلك إلى السـويسـرية عـام (١٨١٤) ، وبعـد ذلك ترجم فى عـام (١٩٠٢) إلى اللغة البلغارية .

ولقد حاول كثير فيمـا بعد ترجمةالقرآن إلى الإنجليزية ، وكان أغلبهم من الكتّاب الإنجليز الذين اعتمدوا اعتماداً على تر جمة (سيل) أو على ترجمات أخرى ، وهكذا ظهرت ترجمة (رودويل) (Rawood) فى عام (١٨٦١) ، وترجمـة (بالمر) (Palmer) فى عـام (١٨٨٠) ،

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sweetman) وفى المرجع انظر ص ٥ .

وترجمة (بل) (Bell) وأسلوبه فى الترجمة فى عام (١٩٣٩) ، ثم ظهرت ترجمة (داود) (Dawood) فى سنة (١٩٥٦) .

أما ترجمة (البروفسور أوبرى) (Professor Arberry) للقرآن والتى نشرت فى عام (١٩٥٥) فقد وصفها (وات) (Watt) و(يليامز) (Williams) بأنها « أعظم النسخ المترجمة مكانة من ناحية الأسلوب »[١] ، ولو أنه بفحص تلك الترجمة يتبين أن بها أخطاء كبيرة. أما ترجمة المستشرق (داود) فيمن أشنع أخطائها أنه تعمد التلاعب فى ترتيب السور .، وتحريف بعض الكلم عن مواضعه ، ومن المؤسف أن هذه الترجمة من أكثر التراجم انتشاراً فى انجلترا وكندا والولايات المتحدة.

ومن ناحية أخرى فقد قام عدد من الرجال فى البلاد الإسلامية بترجمة القرآن ، فكانت ترجمة (عبد الحكيم خان) فى عام (١٩٥٠) وترجمة (ميرزا أبو الفضل) فى عام (١٩١١) ، وترجمة (محمد على)[٢] فى (١٩١٦) ، ثم ترجمة (عبد الله يوسف على)[٣] فى عام (١٩٣٨) ، كما قام مستشرقان غربيان اعتنقا الإسلام هما (مارمادوك بيكثال) (Marmaduke Pickthall)[٤] و(محمد أسد) (M. Asad)[٥] بترجمة القرآن من العربية مباشرة فى سنة (١٩٣٠) وسنة (١٩٨٠) على الترتيب .

تقييم الترجمات الإنجليزية :

يجب ألا نتوقع قدرة أية ترجمة على أن تنقل كل الأفكار المعبرة عنها فى الأصل العربى للقرآن بحذافيرها ، ولعلنا نستشهد هنا بما قاله

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص٢٤٣
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Y. Ali) .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pickthall).
(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Asad) .

(وليامز) (Williams) فى هذا الموضوع : « لا يمكن لأية ترجمة أن تكتب لها النجاح مهما بلغت دقتها فى نقل المعنى »(١) ، ولا شك فى أن الإنسان عندما يقرأ القرآن بالعربية يجد نفسه مجبراً على التسليم بما قاله (وليامز) ، وذلك لأن استخدام العربية بصفة عامة فى التعبير عن الأفكار يكشف دائماً أنها فعلاً لغة جامعة قوية خصبة ، كما أن عربية القرآن الكريم تبدو مدهشة ، رفيعة المستوى ، مفعمة بالحياة والقوة ، بل ومشبّعة بالرقة والدقة والشدة فى آن واحد، فهى فى الحق أخّاذة بالألباب، حتى لقد جاء على لسان (البروفسور جيب) (Gibb) قوله : « إنه لا يمكن لأى إنسان أن يعزف على هذه الالة القوية العميقة الصوت ـ يقصد اللغة العربية ـ مثل عزف القرآن عليها بمثل هذه القوة، وهذا الوضوح ، ومصاحبة هذا المدى الواسع من العواطف المؤثرة »(٢) ، كما قال (بودلى) (Bodley) : « إن من يستمع إلى رنين القرآن وهو يتلى بلسان عربى لا يستطيع أن ينقل هذا الرنين مترجماً إلي الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية »(٣) .

ومع ذلك ؛ فإن بعض الترجمات قد أدت الغرض منها إلى حد كبير فعملت على تحريك مشاعر قارئى القرآن الصادقين الباحثين عن الحقيقة ، كما ساعدت على تقديم الكثير لغير المسلمين لكى يعتنقوا دين الإسلام وتؤمن به قلوبهم .

ولا ريب فى أن مقارنة أى ترجمة للأصل القرآنى العربى تشبه إلى حد كبير مقارنة صورة رسمها أحدنا بأظفره لمنظر طبيعى خلال غنى بأضوائه وبألوانه وظلاله ، ونابض بالحركة والأصوات من خرير المياه ، وحفيف الأشجار ، وتغريد الأطيار ، حيث إن مفردات اللغة العربية كما

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Williams) وفى المرجع انظر ص ٢ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٦ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bodley) وفى المرجع انظر ص ٢٣٧ .

استخدمت فى القرآن تعطى ثروة ضخمة من الأفكار ذات الظلال والألوان الرقيقة ، والتى يستحيل التعبير عنها بصورة كاملة بعدد محدود من الكلمات فى أية لغة أخرى .

ولتوضيح هذه النقطة ، لننظر إلى الكلمتين العربيتين ، (اسطاع) و(استطاع) ، لقد قام كل من (سيل) (Sale) ومحمد على و(بيكثال) (Pickthall) و(رودويل) (Rodwell) وآخرون بترجمتهما معا على أنهما إما (أصبح ذا قدرة) أو (كان قادراً) متغاضين بذلك عن الفارق الواسع بين معنييهما ، حيث إن كلمة (اسطاع) تستخدم فقط فى حالة الأفعال السهلة نسبياً كصعود تل أو جبل ، فى حين تستخدم كلمة (استطاع) فى المهام الأكثر جسامة كحفر نفق فى جبل مثلاً .

وهذا مثال آخر يتعلق بصفات الله فهو (الخالق) وتعنى أنه منشئ الأشياء من عدمها، وكذلك هو (الخلاّق) وتعنى أنه منشئ كل شيء، وكذلك هو (الفاطر) وتدل على أنه تعالى هو مبدئ أصل كل شيء إذ لم يحدث أن حاكى سبحانه مثالاً سابقاً عليه فى الخلق ، وهو (البديع) بمعنى أنه هو الذى أبدع وأتقن الأشياء ؛ صنعها من غير اتباع أو تقليد لشيء ، وهو (البارئ) أى إنه هو الذى خلق وأنشأ المادة من عدم ، ولكننا نرى أن كل هذه الأسماء الحسنى قد ترجمت إلى (الخالق) (Creater)[1] وإلى (الصانع)(Maker)[2] وإلى المنشئ (Originator)[3] أو إلى (المنتج) (Producer)[4] .

وبنفس الوتيرة تجيء الكلمات العربية (الملك) و(المالك) و(المليك) ، مختلفا كل منها عن الآخر فى الكتابة والمعنى ، فنرى أن (الملك) هو السيد الأعلى منزلة ، على الرغم من أن (سيل) و(رودويل)

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Pickthall) وتحت (M. Ali) وتحت (Sale) .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وتحت (Sole) وتحت (Rodwell) .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وتحت (Roberts) .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٦ .

قد عبر كل منهما عن الكلمات الثلاث بكلمة واحدة هى (King) وعبر (بيكثال) عن كلمة (مالك) بالذى يملك الأشياء (Owner) بينما عبر (على) عنها بأنها (الرب) (Lord) .

وكذلك نجد كلمة (قادر) تعنى أن لديه المقدرة ، ولكن (قادر) و(مقتدر) هما صيغتان مختلفاتن من الصفات المشبهة ، أى (الأسماء الحسنى) ، والتى لها نفس الجذر ، مع العلم أن (سيل) (Sale) قد فهم (مقتدر) على أنها الأكثر فعالية (Most potent) ، وفهمها (رودويل) (Rodwell) بمعنى فعّال (Potent) ، فى حين فهمها (بيكثال) (Pickthall) على أنها قوى وجبار (Mighty) ، وفى الحقيقة أن الصحيح الذى يمكن أن يترجم إليه هو الذى لديه القرة على فعل عظائم الأمور (Most capable of great) .

ولقد ترجم (على) كلمة مقتدر على أنها القوى (Powerful) على حين ترجم (قادر) إلى مالك القوة (Possessor of power) ، وذلك فى نفس الوقت الذى ترجمها (سيل) إلى المتناهى فى القوة (Almighty) ، وبترجمها (بيكثال) إلى المستطيع (Able) ، مع العلم بأن التعبير الأقرب لهذه الكلمة هو ذو القدرة اللانهائية (Imfimtely copable) .

كذلك يوجد فى اللغة العربية كلمات مفردة من الصعب ترجمته إلى أقرب من عدد كلمات فى اللغات الأخرى ، ومثال ذلك كلمة (نطفة) التى نقلها (بوكاى) (Bucaille) إلى الإنجليزية بمعنى (كمية صغيرة من السائل) (Small quantity of liqgid) ، وكان (بوكاى) آسفاً على عدم استعمال«المصطلحات الملائمة بصورة كاملة» ،فقد ترجم كلمة (مكين) إلى « المسكن المستقر الثابت الوطيد » (Firmly eastablished lodging) ، ثم علّق عليها بعد ذلك بأنها كلمة « صعبة الترجمة »[1] .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille) وفى المرجع انظر ص ٢٠١ .

ومع أننا قد قرأنا عديداً من الترجمات إلا أن الفارق البسيط بين (متى) و(أيان) لم يتم توضيحه فى أى منها ، ذلك أن كلمة (متى) تعطى معنى الاستفهام ، فى حين أن كلمة (أيان) تتضمن إنكاراً لحادثة قد تحدث مستقبلاً ينص عليها فى السوال .

الترجمات الإنجليزية الخاطئة :

ونقصد هنا أنه لم يتم أبداً التعبير عن الفهم الحسى للكلمة أو الآية، ولا شك أن ذلك ناتج عن أسباب عديدة ، منها :

١ ـ الجهل بالمعانى الدقيقة للكلمات العربية .
٢ ـ الفهم المقتصر على جانب واحد من المعنى .
٣ ـ الخلط بين الكلمات العربية المختلفة .
٤ ـ المعرفة المحدودة بالعربية ، والمقترنة بالتلفيق الخيالى .
٥ ـ الخلط بين العربية وكل من العبرية والسريانية .
٦ ـ بعض الخلط مع المعتقدات اليهودية .

وسوف نحاول فيما نستقبل من الحديث أن ندرس هذه النقاط بصورة مفصّلة :

١ ـ الجهل بالمعانى الدقيقة للكلمات العربية :

وذلك كما نرى فى ترجمة (بالمر) (Palmer) لسورة الكهف ، الآية رقم (٢٦) ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا** ﴾ فيقول عن ﴿ **أبصر به وأسمع** ﴾ أنها تعنى: (أنه يستطيع أن يرى ويسمع)[1] (He can see and hear) ، على حين ترجمها (سيل) على أنها : « هل أنت الذى تستطيع أن تجعل الله تعلى يرى ويسمع »[2]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٢٤٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٢٧ :

(Do thou make him to see and to hear) ، ويترجمها (رودويل) بأنها « انظر وأصغ إليه تعالى وحده »[1] (Look thou and hearken to him) ، بينما يمضى (بيكثال) فيقول فى معناها أنه « ما أنقى بصيرته تعالى وأقوى سمعه » (How cleor of sight is he and keen of ، مما يجعلنا نقول : إن هذا هو المعنى الوحيد القريب من المعنى المذكور فى الترجمة الصحيحة .

ولقد كتب (بالمر) (Palmer) فقال فى محاولة منه لترجمة الآية: ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾ [التغابن آية ٩] ، وخاصة عن « ذلك يوم التغابن » فقال : « ذلك يوم الغش والاحتيال »[2] ، وأراد أن يوضح ويزيد فقال : « بمعنى أن كلا من الأخيار والأشرار سيخيب كل منهما ظن الآخر وذلك بتبديل مواضعهم ، فيعاقب الأشرار ، وينعم الأخيار » ، ولكن ما نعرفه أن القرآن الكريم يبين أن المؤمنين والكافرين لن يبدّلوا مواضعهم مطلقاً ، كما أن المؤمنين لن تخيب آمالهم أبداً فى يوم الفصل وذلك لأن كلمة (التغابن) لا تعنى الخداع ولكن تعنى أن يقاضى كل طرف الآخر ويرفع ما يشبه الدعوى فى محكمة الفصل يوم القيامة ، كذلك إن الآية الكريمة لا تقول بأى حال من الأحوال بما جاء به المستشرق عن موضع كل من المؤمنين والكافرين .

ثم كتب (سيل)[3] فى محاولة لترجمة آية (٧٥) من سورة (الواقعة) وهى : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ فقال : « علاوة على ذلك فإننى أقسم بأماكن النجوم » ، ولكن كلمة (فلا) هنا لا تعنى

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ١٨٣ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ٤٨٦ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٤٣٧ .

(علاوة على ذلك) ولكنها تعنى : (لذلك فإننى لا أفعل ...) ، كما أن مواقع النجوم لا تعنى بالضبط مكانها الفعلى ، وإنما تعنى ذلك المكان الذى تتواجد فيه ، أو تهوى إليه[1] .

أما (جفرى) فقد أتى بمجموعة من الاستنتاجات الخاطئة لدى محاولته لترجمة الآيتين : ﴿ **أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى** ﴾ [القيامة آية ٣٤_٣٥] فقال : « أقرب لك ودائما أقرب إلى الساعة ومن ثم فهى أقرب لك ولا تزال أقرب » (Nearer to thee, ever nearer to the hour; then nearer to thee still nearer) ، ثم مضى (جفرى) ليقول : « إن هذه عبارة محاولة للربط بين هاتين الآيتين اللتين لا مكان لهما بعيداً عن الآيات السابقة عليها واللاحقة بها »[2] ، ولكن (جفرى) أهمل هنا نقطة هامة هى أن الآيات السابقة على هاتين الآيتين تصف أحوال أولئك الذين آذوا النبى ﷺ وكفروا به ، وتجذب انتباه القارئ إلى القيامة التى وصفت قبل هذه المجموعة من الآيات ، وكذلك تجنب انتباهه إلى الآيات اللاحقة بعد ذلك والتى تعطى دليلاً إضافياً على أن القيامة محددة بلا لبس كهذا العالم الذى نراه من حولنا كل يوم .

ولنستعرض مجموعة الآيات :

﴿ **فلا صدّق ولا صلى * ولكن كذل وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى . أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى . أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يكن نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى** ﴾ [القيامة آية ٣١ _ ٤٠]

وكتب (رودينسون) (Rodinson) فى كتاب ظهر مؤخراً بعضاً

---

(١) انظر تفسير القرطبى الجزء السابع ص ٦٣٩٣ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سور من القرآن) ص٦٢ ، ص ٢٠٨ .

من مفاهيمه الخاطئة حول الآية : ﴿ **إن هو إلا وحي يوحى** ﴾ [النجم آية ٤] فقال : « إن هو إلا إيحاء يوعز به » بدلاً من أن يكتب (إن هو إلا وحي يوحى) ، وكتب كذلك عن الآية : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ [يس آية ٦٩] فقال : « إننا لم نعلمه الشعر ولا يليق به أن يقرضه » بدلاً من أن يقول (إننا لم نعلمه الشعر ولا ينبغي له أن يتعلمه) ، كما ترجم معنى الآية : ﴿ **أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون** ﴾ [الطور آية ٤٣] ، فقال عنها : «هل لهم إله إلا الله ؟ ما أبعد الله عن أولئك الذين يشركونهم معه » بدلا من أن يقول: « إن الله هو الأعلى بكثير من أولئك الذين يشركونهم معه»[1] .

إن (رودينسون) فيما يبدو قد ضل طريقه إلى القرآن ، ومن ثم فقد عمد إلى التطاول عليه باصطناع فقرات مغايرة لأسلوبه أدخلها من عنده[2] .

٢ ـ الفهم المقتصر على جانب واحد من المعنى :

لعل ترجمة (لين) (Lane) للآية : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ [البقرة آية ٩٣] ، ونظرة خاطئة لذلك الجزء منها : « ... وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ... » توضح هذه النقطة ، فقد جاء على لسانه أنها تعني : « أنهم قد رووا ظمأهم بأن وضعوا العجل في بطونهم »[3] ولكن الآية لم تأت بشيء عن الشرب ـ بمعنى ري الظمأ ـ

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٧٢ ، ٩٦ ، ١١٤ .

(٢) المراجع السابق ص ٨٤ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) وفي المرجع انظر ص ٢١١ .

ذلك أن كلمة « أُشربوا » تعنى أن قلوبهم قد امتلأت وتشبعت بحب العجل ، ومع ذلك يصر (لين) على أن « الكلمة التى تفيد معنى (القلب) ذات مغزى يفيد أنها (البطن) » ، وهذا تفسير خاطئ لأن المَعدات فى اللغة العربية تدل على البطن ، ثم يمضى (لين) متشبثاً بإصراره فيقول : « إن الرواية تتفق مع توراة موسى حين جاء فيها [... **ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار مسحوقاً ناعماً وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل**] (سفر الخروج - إصحاح (٣٢) رقم ٢٠) » ، ولكننا هنا نرى أنه لا علاقة لفحوى هذه الرواية كلها بما فى الآية القرآنية الكريمة .

وقد يتضح الفهم المقتصر على جانب واحد من المعنى لدى تناولنا لترجمة (سيل) (Sale) للآية : ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون** ﴾ [النحل آية ١٥]

فقال فى معناها : « وألقيت الجبال على الأرض خشية أن تتحرك الأرض بكم »[١] ، لكن جملة (فى الأرض رواسى) تعنى (أجزاء صلبة ثقيلة [فى الأرض] ، وليست [على الأرض]) ، كما أن (تميد) تعنى : أن حركتها قد تصير غير متزنة ، وهو ما يتعارض تماماً مع ما جاء به (سيل) الذى أكد أيضاً أن « كلمة (رواسى) تبدو وكأنها تعبر عن الكلمة العبرية (ميخانيم) (Mechanim) والتى تعنى القواعد أو الأساسات ، وهو ما يدفعنا إلى أن نفكر فى أن القرآن هنا ترجمة لعبارة جاءت فى سفر المزامير (Psalm) وهى : [المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد] (سفر المزامير - مزمور (١٠٤) رقم ١٥) .

ولكننا ولا شك نرى هنا اختلافاً جوهرياً عن المعنى الصحيح للآية.

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) .

أما (بالمر) (Palmer) فقد أدرك وجها واحداً فقط من المعنى فى ترجمته للآية : ﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ [الحج آية ٦٥] ، وذلك حين قال : « إن الله يمسك السماء أن تقع على الأرض ، اللهم إلا إذا أخذت الأمر منه فتستجيب ، ومن ثم فإن الله حقاً هو رؤوف رحيم »(١) ، وهذه الترجمة صائبة إلى حد بعيد ولكن (بالمر) مضى فقال : « إن كلمات النص ربما تترجم على النحو : (يمسك المطر أن ينزل على الأرض) » وأضاف: « أنه لم يلتفت أى من الدارسين لفهم النص بهذه الطريقة » .

وفى الواقع ، إن كلمات النص لا يمكن ترجمتها إلى : « يمسك المطر أن ينزل على الأرض » وذلك لأن الكلمة العربية (السماء) فى هذا المضمون لا تشير بأى حال من الأحوال إلى المطر ، ولكنها تعنى السموات العلى ، والأماكن التى هى أعلى من الأرض أو فوقها كالسقف ، أما الكلمات التى يمكن أن تعبر عن نزول الماء من السماء فهى الماء أو الغيث أو المطر ، على الرغم من أن المطر قد يعبر عنه أحياناً بذلك « الماء النازل من السماء » ، ولكن يتم التعبير عنه بكلمة (السماء) وحدها ، وعلى ذلك فالآية التى نحن بصددها الآن تتضمن بالفعل ما يلى : إنه ـ تعالى ـ يمسك السماء ، ويقصد الأجرام والأجسام السماوية أن تهوى إلى الأرض ، وهى لا تسقط إلا بإذنه ، وأن هذا ليس إلا مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالى ولطفه بالإنسان .

وهناك اقتراح آخر أتى به (بالمر) (Palmer) من خلال تعليقه حول الآية : ﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾ [طه آية ١٥] ، فقال (بالمر) (Palmer) : « المعنى أن الساعة قادمة لا محالة ، وأنا ـ أى الله تعالى ـ دوما أخفيها وذلك لتلقى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ٢٩ .

كل نفس مصير ما جنته من أفعال » ، ولكن بعد هذه الترجمة الصحيحة يضيف : « إن هذه الآية يمكن ترجمتها كما يلى : « ... وأنا دوما أخفيها عن نفسى » ، ولا شك أن هذه الترجمة مستحيلة لدى تصور المرء من المتحدث هنا ، سبحانه وتعالى .

وكمحاولة منه لترجمة الآية : ﴿ **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن وتخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً** ﴾ [الإسراء آية ٦٠] ، ارتكب (جفرى) (Jeffery) أخطاء مماثلة حينما قال : « حقاً إن الله محيط بالناس » ، ولكنه عمد إلى خطأ من نوع ما ندلل عليه حين قال: « أما عن صلاحية قدرات الله تعالى وخصائص إحاطته بالناس فذلك ما لا نعرفه »[١] ، وما يظهر أن (جفرى) قد فهم كلمة (أحاط) على أنها (التف حول) ، على الرغم أنها تعنى فى اللغة العربية (هيمن) ، فيمكننا القول بأن الله تعالى له التحكم المطلق فى مخلوقاته ، وأن واحداً منهم لا يمكنه الفكاك أبداً من دائرة حكمه[٢] .

ولقد حاول (جفرى) مرة أخرى ، فأكد بخصوص الآية : ﴿**وفرعون ذى الأوتاد** ﴾ [الفجر آية ١٠] ، والتى تعنى : « فرعون صاحب الأهرام » فقال : « إن المقصود بفرعون أصحاب أوتاد الخيام والتكديسات الخشبية غير معروف »[٣] .

ولكن هل أدرك خطأه هذا ؟ إن الفراعنة شيدوا أهراماً ضخمة كالجبال ، ولهم قبور ومعابد منحوتة فى الجبال ، كما أن كلمة (أوتاد) ذكرت مراراً فى القرآن بمعنى (جبال) كما فى المثال الآتى : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا** ﴾ [النبأ آية ٦ ـ ٧]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ ـ ٢٢٣ .
(٢) انظر تفسير القرطبى الجزء الثامن ص ٧٠٨٩ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ ـ ٢٢٣ .

٣ ـ الخلط بين الكلمات العربية المختلفة :

توجد فى كل لغة كلمات لها مسمع متشابه تقريباً مع أن معنى كل منها يختلف تماماً عن معنى الأخرى ، وقد تختلط هذه الكلمات على اللغويين غير المتمرسين ، ولا شك فى أن هذا هو الذى حدث عند ترجمة القرآن .

ومثال لذلك ، لقد التبس على ذهن (جفرى) (Jeffery) ذلك الفارق بين كلمتى (قَدْر) و(قَدَر) ، فذكر أن « قَدْر تعنى القدرة التى يطلقها المسلمون على القضاء الذى يحدد مسبقاً قبل حدوث أى شىء سواء أكان شراً أم خيراً »[١] .

وقد نتجاوز هنا ونقول عن ذلك : إنه صحيح ، ذلك أن (قَدْر) لا تعنى بالضبط القدرة بقدر ما تعنى القيمة والمقدار ، فضلاً عن أن (جفرى) قد أخطأ فى المقارنة بين القَدْر والقَدَر .

ولقد وقع (جفرى) فى خطأ تقليدى آخر يتعلق بكلمة (تقويم) والتى ذكرت فى سورة (التين) فى آية رقم (٤) ، ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ ، فذكر أنها (تقوين) وتعنى المثلية و«التشابه »[٢] ، على الرغم من أن كلمة (تقوين) حقيقة لا وجود لها فى العربية ، فهى ليست جذراً له تصريفه وخصوصيته[٣] ، وإنما أقرب كلمة لها هى (تكوين) ، وتعنى الإنشاء والخلق ، أما كلمة (تقويم) فهى تعنى الإقامة على خط مستقيم . كذلك لقد خلط (جفرى) بين كلمتى (سَربا) و (سَرابا) مع أن (سَرَبا) من المحتمل أن تكون الانطلاق بحرية ، أما (السراب) فهى ما يتخيله السائر فى الصحراء من

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سور من القرآن) ص١٠ ـ ٤٠

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ ـ ٢٢٣ .

(٣) جاء فى لسان العرب : أن القَونة : القطعة من الحديد أو الصُّفر (النحاس) يرقّع بها الإناء وقَوّن وقُوين : موضعان . فلا علاقة لها بوجود جذر لغوى . (المراجع) .

أنه بحيرة من الماء[1] ، ﴿ حتى إذا جاء لم يجده شيئاً ﴾ [النور آية ٣٩]

ويعتبر (منيزس) (Menezes)[2] مثالا على هذا النوع من الخلط، فقد ترجم كلمة (أبو بكر) ـ وهى كناية صاحب النبى ﷺ وأول المصدقين به على أنها (أبو العذراء) ، وهو ما يتناقض تماماً مع ما فى العربية من أن العذراء هى (البِكر) بكسر الباء ـ بينما (البَكر) هو كلمة عربية تعطى معنى البكور والتبكير .

وكذلك أخطأ (سافارى) (Savary)[3] فى ترجمته لكلمة (حافّين) فى سورة الزمر آية ٧٥ : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ فقال : إنها تعنى (حفاة الأقدام) كأنه قرأها (حافين) بتخفيف الفاء ، على حين أن المعنى الصحيح للآية ـ بتشديد الفاء ـ: «أنك ترى الملائكة يطوّفون حول العرش معظمين مقدسين لربهم »[4] .

٤ ـ المعرفة المحدودة بالعربية المقترنة بالتلفيق الخيالى :

لقد هاجم (سيل) (Sale) القرآن من خلال فهمه الخاطئ لكلمة (أخ) ومؤنثه (أخت) وترجمته إياها حرفياً على أنها (شقيق) فقال : « إن القرآن يخلط بين مريم التى هى أم السيد المسيح ، ومريم أخت موسى وهارون ، مما يعد (مفارقة تاريخية مفرطة) ... ذلك أن هناك حوالى ألف وثمانمائة سنة تفرق ما بين عمران ، وهو أبو موسى ، وبين عمران الذى هو أبو مريم العذراء »[5] .

و(سيل) هنا لم يستطع أن يتصور أن كلمة (أخ) مع أنها قد

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ ـ ٢٢٣ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٢٣ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Savary) وفى المرجع انظر ص ٣٧٧ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Picthall)

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) ص ٣٨ .

تعنى (الشقيق) إلا أنها يمكن أن يعنى بها وبنفس القوة (منْتَمٍ ، أو ذو علاقة مع) . ولعلنا نلاحظ أن اتهام (سيل) هنا يرتكز على آية رقم (٢٨) في سورة (مريم) وهى : ﴿ **يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** ﴾ ـ حيث تتضمن اتهام اليهود لمريم العذراء التى تنتمى لعائلة هارون الشريفة ، عندما رأوها تحمل طفلها عيسى ـ الذى لم يعرفوا أباه ـ بين يديها ، فقد لاموها على اقترافها لهذا الفعل المشين .

ولقد تبنت قلة من المستشرقين رأى (سيل) الخاطئ ، وذلك لأنهم كانوا مدفوعين بغفلتهم عن أن (أخ) تستعمل فى القرآن على أنها (المنتسب إلى) وليس على أنها فقط (الشقيق بالدم) ـ والانتساب هنا يكون إلى نفس الأمة أو القبيلة ، حيث كان ينبغى عليه أن يلحظ أثناء ترجمته للقرآن الآيات الآتية :

﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون** ﴾ [هود آية ٥٠]

﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب** ﴾ [هود آية ٦١]

ولا ريب أنه قد وجدت أخطاء أخرى فى الترجمة تحاكى تلك ، ولعل من أبرز أمثلتها ما جاء به (بل) (Bell) من أن « القرآن يختلف عن الفرقان والمثانى والكتاب »[1] ، والحقيقة أن القرآن والكتاب والفرقان هى ثلاثة أسماء بسيطة من خمسة وخمسين اسماً لنفس الكتاب ، وهو ما قد ذكرناه فى مقدمة مؤلفنا هذا .

وكمحاولة من (بل) لإثبات ما جاء به فقد استشهد بآيات كثيرة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص١٣٠ ـ ١٣٤

ثبت منها فى النهاية أن الأمر قد التبس عليه ، وإلى القارئ نسوق هاتين الآيتين ، وهما تبينان تفريقه بين أسماء القرآن المختلفة [1] :

﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ [الحجر آية ١]

Alif, Lam, Ra: These are verses of the book and a manifest) . (Quran (recitation)

وكـذلك : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ [آل عمران آية ١٨٥]

(The month of Ramadhan in which was revealed the Quran, a guidance for man - kind , and clear proofs of the guidance, and the criterion Furqan) .

وهذا التناول الخاطئ للموضوع وجد صدى لدى (بارتون) (Burton) مؤخراً [2]، حيث حاكاه بصورة حرفية ، ويمكن تشبيه وجهة نظر (بل) للموضوع برجل قرأ تقريراً عن رجل آخر وليكن (السيد فلان) جاء فيه : « إنه رجل أعمال ماهر وفنان حساس كما أنه رب أسرة ناجح جداً » فهوى فى أخدود الفهم الخاطئ للموضوع فتخيل أن السيد فلان هذا كأنه ثلاثة أشخاص مختلفين ، كذلك ينبغى لنا أن نفهم أن كلمة (فرقان) هذه ، وهى اسم من أسماء القرآن ، تحمل معنى التفريق بين الخير والشر ، وهو ما قد يظهر أحياناً جلياً واضحاً ، كما فى الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ [الأنفال آية ٢٩]

ثم ينبرى (بل) (Bell) مظهراً عدم تفهمه للأسلوب القرآنى ، ويطلق استنتاجاً بعيداً عن الصحة جاء فيه أن بعض الآيات قد حشرت فى

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص١٣٠ ـ ١٣٤ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Burton)

غير أماكنها المناسبة لها[1] ، ويعطى مثالاً لذلك قائلا : « إن الآية (٤٢) من سورة (المائدة) تبدأ بالتعبير (سمّاعون للكذب) وهو ما ليس له أى صلة بالسياق ، وقد نجد أن نفس التعبير موجود فى آية (٥١) من نفس السورة وهو ما يدفعنا إلى تبديله بها وبما جاء بعده فى الآية رقم (٤٢)» .

ولكى نحكم على مقالة (بل) هذه دعونا نقرأ الآيتين المعنيتين ، لنرى كيف باتت عملية التبديل التى يدعو إليها غير صحيحة على الإطلاق :

﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * سمّاعون للكذب أكّالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ [المائدة آية ٤١ ـ ٤٢]

ولا شك فى أن الآيتين ، إحداهما تكمّل الأخرى ، ولا يمكن أن تغنى عن أختها ، ولكن ما يبدو هو أن قراءة التعبير (سمّاعون للكذب) مرتين فى ترجمة ركيكة دفعت (بل) إلى هذه النتيجة الخاطئة ، مع العلم بأن هذا التكرار ما هو إلا مثال يحتذى به متذوقو اللغة العربية ، المفتونون بها على أن التكرار يؤكد المعنى ويضيف مزيداً إلى بريق الأسلوب ولمعانه .

لذا ؛ فإن المعرفة الهزيلة باللغة العربية الفصحى تحرم أى إنسان من

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (مقدمة القرآن) ص ٥٩ .

تقدير الظلال المختلفة للمعنى المقصود ، عندما تأخذ الكلمات معانى مختلفة فى أماكن شتى .

ومثال آخر على النقد المبنى على ضحالة المعرفة بمشتقات اللفظ العربى ومعانيه ــ ما أتى به (ر. ليفى) (R. Levy) الذى زعم بأنه «إن ثبت أن الأرض قد استقرت عند الخلق وأصبحت وكأنها البساط ... فإن ذلك يوحى بأن الرسول قد تخيلها مستوية »[1] ، ثم عرض الآيتين الآتيتين فى محاولة منه لإثبات هذه النقطة :

﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا** ﴾ [النبأ آية ٦ ــ٧] ، مع أن (مهاد) يفسرها اللغويون على أنها « مكان الاستقرار كمهد الطفل »[2] ، وكذا كروية الأرض هى أيضاً مناسبة للاستقرار وللحياة كما يعرف الجميع .

ثم مضى (ر. ليفى) فى خطئه وسرد ترجمته للآيتين فكانت ، «ألم نجعل الأرض مهدا منبسطا ونجعل الجبال عليها مباشرة كأوتاد الخيمة » (Did we not set out the earth a flat expance and set there on mountains as tent pegs) .

ثم علق على الآية التالية : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ [يس آية ٣٨] ؛ فقال : « والشمس ترحل كل يوم إلى سكنها لراحلتها » ثم يتهم المسلمين بأن لديهم مفاهيم خاطئة عن الكون ــ ولكن القرآن لا يذكر أبداً أن الشمس ترحل كل يوم .

ثم فسّر (ليفى) الآية : ﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون** ﴾ [الأنبياء آية ٣١] ، وأضاف إليها من خياله فقال : « وعلى الأرض ألقيت الجبال لتعمل

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ٢٤٦ .
(١) انظر تفسير القرطبى الجزء ٨ ص ٦٧٨٥ ، ٦٩٦٢ .

عمل أوتاد الخيمة لتثبيتها فى مكانها ومنعها من الحركة ربما بفعل الماء البدائى »[1] ـ أى الماء الذى يحمل الأرض طبقاً للنظريات العتيقة والخاطئة عن الكون .

ثم يخلط (جفرى) (Jeffery) بين ما قرأه فى قصة خيالية من وحى الشرق وبين ترجمته للآية القرآنية الآتية التى تتحدث عن السموات، والتى تقول : ﴿ **ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين** ﴾ [المؤمنين آية ١٧] ، فيفترض أن الآية تتضمن : « أننا بنينا سبع قبب سماوية » ، ثم يعلق قائلاً : « إنه لا يوجد سبع كرات بطليموسية »[2] ولكن توجد سبع قبب واحدة فوق الأخرى مثل الأوعية المقلوبة على سطح دائرى والتى تطوق ما تحجزه من مكان فى الفراغ»[3].

ولا شك فى أن ما سبق يرينا كيف تم إكمال ترجمات القرآن بشىء من التلفيق الناجم عن تخيلات المترجمين قليلى المعرفة باللغة لدرجة يرثى إليها .

٥ ـ الخلط بين كل من العربية والعبرية والسريانية :

ومن الملاحظ أن بعض المعلقين وأصحاب الرأى من المستشرقين يكّونون أفكارهم عن القرآن قبل دراسته ، أو حتى قبل قرءاته ، فعندما يقررون أن كلمة ما هى فى الأصل سريانية أو عبرية تجدهم يسارعون ويحملونها معنى خاطئا ، على الرغم من أن الكلمات عربية بلا شك كما أن معانيها وتأويلاتها تختلف تماماً عما أتوا به ، كذلك فإن المعانى العربية هى بطبيعتها الفريدة التى تنسجم مع الآيات ومع باقى الكتاب الكريم ككل .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ٤٦٢ .

(٢) بطليموسية : نسبة إلى بطليموس عالم الفلك والرياضة الذى سطع اسمه فى الإسكندرية (١٢٧ ـ ١٥١ ق.م) (المترجم) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٠٦ ـ ٢٢٣ .

ولتوضيح هذه النقطة : لقد تصور (فون جرنبوم) (Von Grune-baum) أن كلمة (قرآن) هي الكلمة السريانية (قريانا) (Qeryana) والتي تعنى (كتاب القداس) (Lectionary) ـ أى كتاب يتضمن فصولاً من التوراة للتلاوة في قداس .

ولكن كما جرت العادة فإن استعارة كلمة من لغة أخرى لا تضفي على الكلمة أى تصريف ، أو تجعلها خاضعة للصرف داخل اللغة الجديدة ، كما أنها لا تجعلها مستقرة ذات أصل فيها ، على العكس من كلمة (قرآن) التي لها تصريفات كثيرة فهي (قرأ ـ يقرأ ـ اقرأ ـ نقرأ ... إلخ) كما أن لها (قارئ ـ قراءة ـ قرآن) وهذه الأخيرة بمعنى الكتاب الذى عادة ما يقرأ كثيراً .

وبنفس الأسلوب وصف (وات) (Watt) كلمة (رُجز) وتعنى (التلوث) بأنها تمثل الكلمة السريانية (رجزا) (Rugze) وتعنى (العقاب الإلهى) ويقصد الإشارة إلى العقاب الإلهى الذى سيحل[1] ، وهو أمر بعيد الاحتمال ، والآن دعنا نقرأ الآية التي تحوى هذه الكلمة :

﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر . والرُجز فاهجر ﴾ [المدثر آية ١ ـ٥]

وحالة أخرى تتعلق بكلمة (فرقان) ، حيث زعم كل من (بل) (Bell)[2] و(جفرى) (Jeffery)[3] أنها الكلمة السريانية (برقانا) (Perqana) وتعنى « الخلاص » ، مع العلم أن كلمة (فرقان) هى تصريف للكلمة العربية (فَرَقَ) بمعنى (فَصَلَ) ، والفرق هو الفصل ، وهو ما نفهمه بسهولة من الآيات التي تحوى كلمة (فرقان) حيث إنها

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص٢١ ـ ٣٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ١٢٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) ص ٢٢٨ .

المؤشر إلى الفصل بين الخير والشر ، وكذلك يمكن أن نقول : إنه لا يوجد أى معنى للكلمة (فرقان) بمعنى (خلاص) فى الآيتين الآتيتين على سبيل المثال ، وهما قوله تعالى :

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾
[الأنفال آية : ٤١]

وقوله تعالى : **﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾** [الفرقان آية ١]

لقد زعم (جيب)[١] (Gibb) أن (الحنيفية) تدل على العقيدة التى بشر بها محمد ﷺ فى مطلع بعثته ، وأنها قد استبدلت بها الإسلام مؤخراً فقط ، ثم زعم بعد ذلك أن كلمة (حنيف) هى الكلمة السريانية (همبا) (hampa) وتعنى (الوثنى) ، هذا على الرغم من أننا نرى أن كلمة (وثنى) (hampa) فى قاموس أوكسفورد تعنى ذلك الذى لم يتنور روحياً ، أو ذلك الشخص الذى ليس بمسيحى ، أو يهودى، أو مسلم .

وبالطبع ليس هذا هو المقصود بكلمة (حنيف) فى العربية ، خصوصاً أن القرآن يشير إليها على أنها صفة الإنسان ذى الفطرة السليمة»[٢] .

ونرى ذلك فى الآيتين : **﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾** [الأنعام آية ٧٩]

﴿ وأن أقم للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ﴾ [يونس آية ١٠٥]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٨ ـ ٤٠ .
(٢) انظر تفسير القرطبى الجزء الأول ص ٥٢٤ .

فحنيف إذن كلمة تعبر دائماً عن المسلم الورع فى توجهه إلى الله تعالى ، وفى الخضوع له مائلا عن كل شرك وضلال ، وتصف الإنسان الذى يعيش فى سبيل الله ويقبض بقوة على دينه ، وهو ما يختلف بداهة مع الكلمة السريانية التى تعنى (الوثنى) ، وسوف نتعرض لذلك فى الفصل القادم .

وتبعا لتأثر (جيوم) (Guillaume) بدراسته العبرية والسريانية ، والتى فاقت معرفته بالعربية كثيراً ، فقد ادعى قائلاً : « إن هناك الكثير من الكلمات فى القرآن لا يمكن توضيح معناها من العربية ، وإنما ينبغى أن ترجع إلى أصولها العبرية أو السريانية ، وذلك قبل أن يستقى منها أى معنى »[1] ، ثم ساق العديد من الأمثلة محاولاً إثبات مزاعمه ، ولكننا نقول : إن بعض المعلقين ـ ممن ليسوا عرباً ، ولا يتقنون العربية إتقاناً تاماً ـ قد لا يتقبلون بعضا من كلمات القرآن ولا يألفونها ، بيْد أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن هذه الكلمات عبرانية أو سريانية الأصل .

ومن ثم فإن الافتراض بأن أتباع محمد ﷺ كانوا قد ألفوا العبرانية والسريانية لاعتيادهم التعامل مع اليهود والنصارى هو افتراض بعيد عن الواقع ، والأكثر منطقية أن نقول : إن لغات الأمم المتجاورة ، والتى تتجاور لأجيال كثيرة ، قد تتداخل أو تترابط فى كلمات قليلة مشتركة بين كل من اللغتين ، بل ويمكن أن نقول : إن مثل هذه الكلمات تنتمى إلى كلتا اللغتين ، وهو ما يرى بوضوح وسهولة لدى مقارنتنا بين الإنجليزية والفرنسية أو بين الألمانية ولغات الدول الاسكندنافية ، كذلك قد تتكشف الحقيقة بدرجة أكثر فى لغات بلدان شرقى أوروبا .

وهنا نستشهد برأى للأستاذين (توماس أرنولد وجيوم) (Sir Thomas Arnold and Guillaume) « بالطبع لا يمكن لأى دارس جاد

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Guillaume) وفى المرجع انظر ص ٦٣ .

للعهد القديم أن يستغنى عن معرفته باللغة العربية معرفة مباشرة وجيدة ، ذلك لأن الكثير من الكلمات العبرية لا يمكن فهمه جيداً إلا بالرجوع إلى أصولها العربية »[1] .

فما بالك بهذا الدارس وهو يطلب العلم بالقرآن الكريم .

٦ ـ بعض الخلط مع المعتقدات اليهودية :

يلاحظ قارئ القرآن عندما يقرؤه بالعربية أن آياته واضحة وسهلة الفهم وذلك لأن كلماته تعطى المعنى المناسب والمفهوم ، إلا أن بعض المستشرقين قد حاولوا أن يحرفوا معانى بعض الكلمات تأثراً بثقافتهم العبرية ، وقد حاولوا ذلك بإصرار فى الكلمات التى وجدوا وقعها قريباً من ألفاظ عبرية ، مما جعل الآيات التى تحوى مثل هذه الكلمات تتغير معانيها إلى حد كبير ، بل لقد تبنى هؤلاء المستشرقون أفكاراً غريبة ، فى محاولاتهم لإثبات فرضياتهم ، ثم دفعوا بأمثلة كالآيات الآتية :

﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾

[الفتح آية : ٤]

ونجد هنا الكلمة العربية (السكينة) والتى تعنى السلام والأمان والطمأنينة القلبية، ولكن (جفرى) (Jeffery) و(أربرى) (Arberry)[2] يصران على خلطهما مع الكلمة اليهودية « شكينة » (Shekinah) والتى تعنى فى العبرية وصفاً « للمجد الخفى للرب يهوه جالسا مستريحاً على عرش الرحمة » ، ولكننا من المحال أن نخلط بين الكلمتين ، وذلك لسبب رئيسى هام هو أننا لا يمكننا أن نقبل فى الإسلام أبداً ذلك المفهوم اليهودى عن الله سبحانه وتعالى : أنه (جالس مستريح) ، فى

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold and Guillaume) وفى المرجع انظر ص٩

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry)

حين أن سياق الآية غاية فى الاستقامة عند اعتبار المعنى العربى للكلمة ، وللسبب الواضح وهو أن القرآن عربى .

وهذه آية أخرى ، قوله تعالي : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾

[الأنعام آية ٥٩]

ولنر هنا كيف خلط (بالمر) (Palmer) بين كلمة (مفاتح) وكلمة (مفاتيح) فقال : « إن الإشارة صريحة إلى المعتقد العبرى القائل بأن هناك ثلاثة مفاتيح بأيدى الله »[1] ، ونقول : إن مفهوم وجود إله يحمل ثلاثة مفاتيح فى يده ليس بمفهوم إسلامى على الإطلاق ، كما أن الآية لا تشير من قريب أو من بعيد إلى أية أعداد أو أيد .

أما عن الآيتين : ﴿ **يا أيها المدثر * قم فأنذر** ﴾ [المدثر آية ١ـ٢] ، فقد علّق (وات) (Watt) قائلاً : « لقد تلفع محمد بدثار ليحمى نفسه ـ من الله ـ كعادة الساميين ، ... كما يمكن القول بأن هذا الدثار كان لا ستنزال الوحى »[2] ، ويظهر هنا أن افتراضات المستشرق هذه مرتكزة على تشبعه بالتقاليد اليهودية مع أن هذه الآية تشير إلى حادثة وقعت بعد نزول النداء الأول وسجلها التاريخ الإسلامى حيث أحس النبى ﷺ بانبهار شديد ، وببرودة فى جسده ، فهرع إلى بيته ، وسأل زوجته وأولاده أن يدثروه بعباءته ، ثم نزلت هذه الآيات .

والإنسان بالمفهوم الإسلامى لا يتجنب عذاب الله تعالى بلبس العباءة أو اللثام ، وإنما يحمى نفسه بالعمل الصالح والبعد عن الآثام ، كذلك لا يمكن أن يحمى المصر على ارتكاب المعاصى نفسه من

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ١٠٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt)

العقاب الإلهى إلا بالتوبة النصوح ، وأن يدعوه تعالى أن يغفر له ، وأن يهديه الطريق المستقيم فى مستقبل حياته .

أما أن « هذا الدثار كان لاستنزال الوحى » فهو مذهب خاطئ خطأ فاضحاً ، لا مرية فيه ، لأن الوحى هو رسالة من الله تعالى ، وهو وحده سبحانه الذى ينزله على عبده ، فلا دخل لرجل أو لعباءة فى عملية حث الوحى على النزول .

ثم يأتى بعد ذلك الدور على مثال خطير لدراسة قرآنية تمت تحت تأثير شديد للمعتقدات العبرانية ، ومن خلال المحاولة الأخيرة لتصنيف التفسير القرآنى على أنه « تشريعى » (Halakhic) ، أو «نصى» (Masoretic) أو «أسطورى» (Haggadic) .

ولكن ذلك بالقطع يبدو عبثاً فاضحاً لأن تلك الدراسات العبرية بعيدة كل البعد عن القرآن الكريم .

وعلى ذلك ؛ وكما ذكرنا قبلا ، يصعب على بعض الكتاب أن يؤولوا القرآن حق تأويله ، إما لمعرفتهم المحدودة بالعربية ، والتى أدت إلى إحداث خلط مع اللغات الأخرى ، وإما لأنهم مفعمون ثقافياً بالعبرية أو بأية ثقافة شرقية أخرى ، أثرت على تفكيرهم ، وهو ما يبدو مألوفاً بالنسبة لأى دارس للعبرية ، إذ إنه عندما يكتب عن القرآن لابد وأن يخضعه لنغمة العهد القديم ، حتى ولو كان الأسلوب مجافياً للحق بكل وضوح، ومن ثم لا ينبغى أن نغفل مدى التشويه الذى يلحق بالأفكار داخل أى نص ، لدى نقله من لغته الأصلية إلى لغة ثانية أو ثالثة أو رابعة ، ولعل ما يحدث هو نفسه الذى حدث للمستشرقين عندما تناولوا الموضوع على أساس دراستهم للقرآن مترجماً ترجمة ثانية أو ثالثة ، وكان الأولى بهم تحرى الحق بأن يدرسوا القرآن فى أصله العربى فهو متاح للجميع دائماً ، وإنا لنأسف إذ نرى كتابات أمثال هؤلاء المستشرقين شائعة فى الغرب ،

فكم تشبع قراؤهم بمفاهيم خاطئة عن الإسلام ؟! وكم من الدارسين لعلوم الأديان المقارنة ارتكزوا على هذه الكتابات واستمروا فى النسج على منوال هؤلاء المستشرقين ، وضلوا وأضلوا الباحثين عن الحقائق القرآنية ؟!

والخلاصة ؛ لقد استعرضنا بإيجاز فى هذا الفصل الأخطاء العديدة فى الترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم ، ولسوف نناقش ببعض التفصيل فى الفصل التالى مزيداً من استنتاجات المستشرقين المبنية على هذه الترجمات وتأويلهم لها .

* * *

الفصل السادس

الأحكام المبنية على أساس التأويلات الخاطئة

زعم أكثر من مستشرق أن أسماء الله تعالى قد جاء بها الإسلام ولكنها ضاعت بعد ذلك ، ويؤكد بعض المعلقين منهم على وجود تغييرات في اسم الدين نفسه ، كما يتصور البعض الآخر وجود شرك ووثنية في الدين الإسلامي ، ذلك التصور الذى يمثل اتهاماً لا يعقل لقاعدة التعليم الإسلامية وهى التوحيد الخالص ، كذلك زعم بعضهم أن القرآن يحوى الكثير من التناقضات .

والآن ، لنناقش كلا من الاتهامات عل حدة .

أسماء الله الحسنى سبحانه وتعالى :

لقد اتهم البعض النبى ﷺ بتقديمه اسما لله تعالى هو (الرحمن) ، وزعموا أن«هذا ربما يكون قد واجه صعوبة أدت إلى استبعاده بسرعة»[1] ، ثم أضاف (تريتون) (Tritton) إلى هذا قوله : « إنه يبدو وكأن محمداً قد حاول أن يفرض شعبية لهذا الاسم بين أتباعه ولكنه فشل ، لذلك عمل على محوه »[2] ، ولكننا وبمجرد النظر بصورة علمية إلى أية نسخة من المصحف نستطيع أن نعلن أن لا مجال لبحث مثل هذه الاتهامات الخطيرة ، والتى لا أساس لها إلا جهل قائلها .

فنحن نرى أن عبارة (**بسم الله الرحمن الرحيم**) تقع فى بداية كل من المائة والثلاث عشرة سورة فى القرآن ، وكما نعلم فإن المؤمنين يرددون اسم الله (الرحمن) الموجود فى هذه العبارة لدى شروعهم فى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ١١٦ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) وفى المرجع انظر ص ١٦ ـ ٢٠ .

قول أو عمل ، كذلك توجد سورة مشهورة فى القرآن هى سورة (الرحمن) وهو ما يعد دليلاً واضحاً على أن الله و(الرحمن) هما اسمان من أسماء الله الحسنى كما نرى من الآية : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ [الإسراء آية ١١٠]

وبنفس الخلط يعلن (بل) (Bell) متحدثا عن الرسول ﷺ فيقول: « إنه استخدم كلمة (رب) ثم استخدم كلمة (إله) ولكنه كان متردداً فى ذلك ، وهذا إما لأنها لم تكن كلمة عربية مناسبة ، أو لأنها كانت مندمجة داخل معتقدات أخرى تدعو إلى إله أقل مرتبة من الإله الذى يدعو إليه »[1]، مع العلم بأن كلتا الكلمتين (رب) (Lord) وإله (God) قد عرفت فى العربية قبل الإسلام بزمن طويل ، وقد ذكرت كل منهما فى القرآن مما يؤكد أن كلمة (إله) لا يمكنها أن تحل محل كلمة (رب) . ولعلنا نعلم أن سورة الفاتحة تستهل بالآيتين :
﴿ **الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم** ﴾ [الفاتحة آية ٢ ـ ٣]

وهو ما يقطع بأن التردد الذى زعمه المستشرق بين (رب) و(إله) لا وجود له إلا فى مخيلته ، وذلك لأن كلتا الكلمتين لها استعمالها المناسب لمعناها ، وحيث لا يمكن استبدال إحداهما بالأخرى .

وفى العربية الفصحى سواء تلك التى جاءت فى القرآن أو قبله يشير تعبير (رب العالمين) إلى خالق الأكوان الذى منّ عليها بالوجود وتفضل عليها بالحفظ والصيانة .

ونزيد هنا فنقول : إنه لو نصّب كل كافر لنفسه إلها يعبده ويعكف عليه فإن ذلك لا يمكن أن يكون عذرا للمؤمنين ليتأرجحوا بين كلمتى (رب) و(إله) ، اسمين لإلههم سبحانه .

---

(١) تنظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) .

ولسوف نسوق هنا الآية الآتية دليلاً على أن (الرحمن والإله والرب) كلها أسماء مناسبة ومستخدمة فى القرآن : ﴿ **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب** ﴾

[الرعد آية ٣٠]

الإسلام والحنيفية :

وكما ناقشنا فى الفصل السابق ما قاله بعض النقاد من خلط بين الكلمة العربية (حنيف) والكلمة السريانية (هامبا) (Hampa) ، فإننا سنمحص افتراضات المستشرقين عن الحنيفية وعن زعمهم أنها دين مستقل بذاته . فلقد زعموا أن النبى ﷺ « قد بدأ دعوته محاكياً للنبى إبراهيم ودينه الذى كان يسمى (الحنيفية) وباستخدام بعض الكتب التى ظن أنها جديرة بالتصديق ... ولدى اكتشافه أن هذه الكتب هى كتب محرفة حديثاً أسقط الاسم (حنيف) واستبدل به آخر هو (مسلم) »[١] .

ثم أضاف (منيزس)[٢] (Menezes) و(وات)[٣] (Watt) أن اليهود والمسيحيين قد اعتادوا تطبيق الحنيفية فى الوسط الوثنى أو بين أتباع الهلينية[٤] ، والصورة الفلسفية التى كانت عليها الحياة الشرقية .

والواقع أنه بالنظر إلى القرآن يبدو واضحاً أنه لم يكن هناك دين مستقل بذاته يدعى (الحنيفية) ، وذلك لأن الكلمتين (حنيف) و(مسلم) قد استخدمتا متلازمتين فى المعنى ، فى زمن الأنبياء نوح

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٨ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٢٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ١١٧ .

(٤) الهلينية : التزام ومحاكاة للفكر الإغريقى والعادات والأساليب الإغريقية القديمة . (المترجم) .

وإبراهيم ومحمد، وسائر الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، ورضى بها أتباعهم وأصحابهم . والكلمتان عربيتان ، وتعنى الأولى (حنيف) : الميل إلى الطريق المستقيم والبعد عن طريق الشيطان ، وتستخدم لتفيد باختصار معنى التمسك الشديد بحبل الله ورفض أى معتقد آخر[1] ، لذلك أمكننا القول بأن (إبراهيم) كان (حنيفا لله) كما أننا نصرف الثانية وهى (مسلم) على أنها صفة من الفعل (أسلم) وتعنى (أذعن وخضع) بدرجة لا يمكن تصورها إلا مع الله تعالى ، كما يتضح فى الآيات الآتية :

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران آية ٦٧]

﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [يونس آية ٨٤]

ولكن بعض المستشرقين قذفوا بكل رعونة بانتقاداتهم وافتراءاتهم حول الآيات التى تبين أن نوحاً وإبراهيم كانا مسلمين ، وذلك دون أن يتحققوا مما تعنيه كلمة (مسلم) ، ثم استطردوا فظهر عجزهم عن الربط بين هذه الآيات وتلك التى تصف كلا من محمد وموسى عليهما السلام بأنه كان (أول المسلمين)فقالوا : « كيف يكون كل من إبراهيم ونوح ـ مسلمين ، ومحمد كان أول المسلمين ؟ ... بل كيف جاز لنوح ، وهو الذى سبق محمدا بما يزيد على ألفين وخمسمائة سنة، أن يكون مسلما ؟»[2] .

بيْد أن وصف (مسلم) كما أشرنا من قبل ينطبق على نوح وعلى إبراهيم وعلى سائر الأنبياء مما لا يدع مجالاً للخلط والمغالطة ، ليتسربا

---

(١) انظر تفسير القرطبى الجزء الثالث ص ١٠٠٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Guillaume) وفى المرجع انظر ص ٦٤ .

إلى عقولنا ، حيث إن ذلك لا يعارض الحقيقة القائلة بأن كلا من محمد وإبراهيم وموسى كان أول من أذعن وأسلم وجهه لأمر الله ، فى فترته الزمنية الخاصة به . ونستعرض هنا الآيات التى تثبت هذه النقطة :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام آية ١٦٢ ـ ١٦٣]

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المسلمين ﴾ [الأعراف آية ١٤٣]

وكذلك يمكننا وصف كل الأنبياء الذين جاء ذكرهم فى الكتاب المقدس بأنهم مسلمون ، وذلك لأنهم أذعنوا لله وخضعوا له :

﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾

[المائدة آية ٤٤]

الوساطة المزعومة فى الإسلام :

إن مفهوم الوساطة غير مقبول فى الإسلام على الإطلاق ، ولكن (تريتون) (Tritton)[١] تصور وجودها فكتب : « توجد إشارات فى ستة مواضع بالقرآن إلى وجود وساطة بين الله والإنسان ... » ، وذكر الآيات:

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء آية ٨٥]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) .

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ [غافر آية ١٥]

﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾
[فصلت آية ١٥]

﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ [السجدة آية ٥]

﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [آل عمران آية ١٤٧]

﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾ [النساء آية ١١٤]

ثم مضى فى خلطه المؤسف بين العربية والعبرية ، ولما لم يعلم المعنى الصحيح للكلمة العربية قال : « إن (أمر) لها نفس الجذر اللغوى فى العبرية وهو لكلمة (ممرا) (memra) والتى تشير إلى الواسطة الشخصية التى تعبر الفجوة بين الإله المتعالى سبحانه وبين عالم التغير والنمو والحياة » .

ولنبدأ نحن بالنظر فى الكلمة العربية (أمر) والتى لم تذكر فى القرآن ست مرات فقط ، وإنما مائة وستا وخمسين مرة ، وذكرت بصور حرفية أخرى خمس عشر مرة ، وقد كان من الممكن للمستشرق (تريتون) أن يتحاشى الخلط بين الكلمة العربية (أمر) والكلمة العبرية (ممرا) لو أنه أدرك المعنى الصحيح للكلمة العربية ، ولكنه كتب أن (ممرا) والتى تعبر عن الواسطة الشخصية هى نفسها (أمر) والتى هى فى الحقيقة تعنى وصية أو تكليف . ثم إن القراءة المتأنية الواعية والمستنيرة

لآيات القرآن التى تحوى كلمة (أمر) واشتقاقاتها تنفى وجود أية وساطة مهما كانت بين الله سبحانه وبين خلقه . ولنرجع إلى الآيات التى قام (تريتون) بالاستشهاد بها ، قوله تعالى :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء آية ٨٥]

﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾ [النساء آية ١١٤]

﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [آل عمران آية ١٤٧].

ونرى فيها أن ذكر الكلمة العربية (أمر) بشتى صورها فى القرآن الكريم لا علاقة له بحديث عن وساطة أو غيرها .

اتهام الإسلام بالدعوة إلى التعددية :

عمد (ريكولدو) (Ricoldo) فى القرون الوسطى إلى الافتراض : « بأن القرآن يتحدث عن الله بصيغة الجمع ، لذلك فالله ليس واحداً وإنما أكثر »[1] ، والحقيقة هى العكس ، وذلك أنه عندما يتحدث الله تعالى عن نفسه فى القرآن الكريم (إنّا) فإنه لا يزال واحداً حيث نرى أنه حتى الملك من البشر يمكنه أن يسبق اسمه بلفظة (نحن) وذلك فى تصريح له أو إعلان أو قانون أو شىء من هذا القبيل .

ثم جـــاء (رودويل) (Rodwell) بزعم آخر غير ملائم على الإطلاق جزم فيه أن الرسول ﷺ قد عبده بعض المسلمين مع الله تعالى ، فقال : « سمعنا فى المدينة عن إنعام الله وإنعام الرسول .... والصفات التى لابد وأن يوصف بها الله فى مكان وجدناها قد وصف بها الرسول نفسه

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) ص ١٨٣ .

فى مكان آخر من القرآن »(1) ، غير أن ما حدث فى الواقع وباعتراف الجميع أن كلمة (نبى) أو (رسول) قد ذكرت فى القرآن مقترنة بلفظ الجلالة (الله) وفى نفس الآية ، ولكن من يفهم اللغة العربية لا يرى أثراً لوجود شرك هنا ، وهذه بعض الآيات التى توضح هذه النقطة :

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ [التغابن آية ١٢]

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا ﴾
[الأحزاب آية ٣٦]

ولعل (رودويل) قد أيد اعتقاده الخاطئ والجائر فى نفس الوقت عن التعددية بأن جاء ببعض الآيات كهذه الآتية :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة آية ١٢٨]

فقال : « الرسول هنا يوصف بأنه واحد منا (بشر مثلنا) ويوصف أيضاً بأنه (رؤوف رحيم) وهما صفتان يوصف بهما الله فى آيات أخرى مثل : **﴿ ... وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾** [البقرة آية ١٤٣]

ولكن ؛ لا داعى لأن نؤكد مرة أخرى أنه عندما نصف الله تعالى ـ بوصف معين فإن هذا يعنى أن الوصف قد اتخذ بعدا لا نهائياً ، على العكس تماماً من وصف البشر به ، حيث يأخذ بعداً محدوداً ، حتى لو كان هذا البشر نبياً مرسلا ، ذلك أن القرآن يرسم الاختلاف اللانهائى بين الله تعالى وبين الإنسان بوضوح شديد ، فيقولها صراحة : إن الرسل هم بشر وعباد لله يتسلمون رسالاته إليهم ليوصلوها إلى أممهم ، ووضع

(1) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٨ .

النبى محمد ﷺ نراه ولا شك بوضوح ، عبدا من عباد الله الذين يعبدون الله تعالى فحسب :

﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ [الحديد آية ١٩]

ففى هذه الآية وآيات أخرى كثيرة يتحدد وضع محمد ﷺ بالنسبة إلى الله تعالى ، ولا يوجد مسلم يعانى إطلاقاً فى هذه النقطة أية شائبة من الضلال الذى عاناه المستشرق (رودويل) . ولعلنا نذكر هنا ـ إعلانا للحقيقة ـ أن عدداً من المستشرقين والمؤرخين قد أبدوا إعجابهم بالمفهوم النقى للتوحيد الخالص والصافى فى الإسلام[١] إلا أن أحد الكتاب المعاصرين تصور للأسف أن محمداً ﷺ قد أقر بالوحدانية فى المرحلة الأخيرة من بعثته عندما سمحت الظروف ، وذلك لتكون شعاراً يميز بين أتباعه وأعدائه[٢] ، ولكننا نطرح هنا سؤالاً ؛ ألم يخطر ببال هذا الكاتب أثناء دراسته الإسلامية أن يقرأ القرآن ويرى كيف بدت الوحدانية فى كل صفحاته ساطعة معلنة منذ الآيات الأولى من الوحى ؟

تناقضات مزعومة :

تظهر من بين الاستنتاجات الخاطئة التى أتى بها المستشرقون مجموعة من الاتهامات التى ترى أن القرآن يحوى تناقضاً فى مواضع كثيرة منه ، وجاء بذلك (ريكولدو) (Ricoldo) و(سان بدرو) (San Pedro) فى القرون الوسطى ، ثم جاء به مؤخراً (ليفى) (Levy) و(جاردنر) (Gardner) و(تريتون) (Tritton) وآخرون من المتأخرين .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) وكذلك تحت (Parrinder) فى ص ٢٢ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ١١٨ .

المزاعم القروسطية[1] :

لقد زعم أن : « القرآن قد حرّم وحلّل نوعاً من الكهانة والتنبؤ بالغيب ، وأنه يقول : إن الخير من عند الله وإن الشر من الإنسان ، ولكنه يعود فيقول : إن كلاً من الخير والشر هو من عند الله ، ويقول القرآن : إن من كان غنياً فى الدنيا فسيفقد الغنى فى الآخرة ، مع العلم بأنه أيضاً يذكر أن إبراهيم كان غنياً فى الدنيا ، وأنه يعد من الأخيار »[2] .

ويمكننا توضيح هذا الخلط بسهولة وذلك بالاستشهاد بالآيات الكريمة .

١ ـ بالنسبة لمسألة التنبؤ والكهانة وهو الخلط الأول فيما سبق من زعم فإن ما سبّبه هو الكلمتان العربيتان (التطيّر) و(الطيور) واللتان تبدوان بنفس الجرس ، ولهما جذر مشترك ، ونراهما فى الآيتين :

﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾ [النمل آية ٤٧]

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ [الإسراء آية ١٣]

ولا نرى فى أى منهما ما يفيد معنى التكهن والعرافة والحث عليهما ، ولكن الإسلام يدين الرجم بالغيب عن طريق زجر الطير أو بأية طريقة أخرى ويحرمه وهو ما سبق أن أجازه دين الرومان ، وذلك أن الإسلام يقرر أن الغيب بيد الله ، وأنه وحده الذى يعلم المستقبل ، بل ويطوع الأحداث وفق قواعد وسنن وضعها سبحانه وتعالى ، وهو ما ندركه من الآيتين السابقتين من أن **﴿ طائركم عند الله ﴾** .

ولسوف نتناول موضوعات أخرى أكثر تعقيداً كالقضاء والقدر

(١) نسبة إلى (القرون الوسطى) وهو نحت طريف . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) ص ٦٧ .

والإرادة من بين ما ستتم مناقشته تفصيلا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

٢ ـ لقد قرر بعض المستشرقين أن الخير يأتى من عند الله وأن الشر يأتى من عند الإنسان !! فكيف هذا مع أن الله تعالى هو الذى خلقهما معا ـ وعموماً بدراسة الآيتين التاليتين يمكننا توضيح هذه العبارة التى قد يرى قليلو العلم فيها تناقضا :

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾ [النساء آية ٧٨ـ٧٩]

يتبين من هاتين الآيتين وآيات أخرى كثيرة أن الله هو المهيمن على كل من الخير والشر ، وأن الإنسان يتلقى الحسنة نعمة من الله تعالى ومكافأة له على العمل الصالح ، وتنزل به السيئة للتذكير وللاعتبار ، وعقاباً على بعض أفعاله السيئة ، أو إبتلاء لإيمانه .

٣ ـ وإجابة على النقد الذى يرى أن « أولئك الذين كانوا فى الدنيا سيفقدون ما كان لديهم فى الآخرة ، هذا على الرغم من أن إبراهيم كان غنياً ثم هو فى الآخرة من الأخيار »[١] ، نسرد هنا بعض الآيات ، فعن الغنى والأغنياء :

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ [الكهف آية ٤٦]

وعن إبراهيم عليه السلام : **﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا**

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) ص ٦٧ .

ولم يك من المشـركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾

[النحل آية ١٢٠ ـ ١٢٢]

ومنها يتضح أن القرآن الكريم لا يقول « بأن الأغنياء سيفقدون غناهم فى الآخرة » ، وإنما كما تظهر الآيات المذكورة وآيات أخرى كثيرة أن السراء والضراء هما ابتلاءان لنا فى هذا العالم وأن كل من كان شاكراً لربه على نعمه كإبراهيم سيجازى خير الجزاء فى الآخرة .

المزاعم المعاصرة :

من المزاعم التى تشير إلى تناقضات فى القرآن وجدنا أن (تريتون) (Tritton) يشير إلى آلهة مزعومة ، وأن (جاردنر) (Gardner) قد أثار نقطة تتعلق بالقبلة ، ثم جاء (ليفى) (Levy) بزعم عن خلق الإنسان ، وكذلك أتى (وانزبروخ) (Wansbrough) بآخر ضمّنه حديثاً عن الآخرة .

فعن الآلهة المزعومة عبّر (تريتون) عن حيرته حين قال :« بالتناول الأدبى للقرآن نجد أن ما يذكره عن الآلهة المزعومة يعد من المتضارب ، حيث إنه يلح على أنها ليست بشىء ، فى حين يصر على أنها ستحشر يوم الحساب لتدين أولئك الذين انحرفوا بسببها »[1] . ولكننا نسأل هنا لماذا يصر (تريتون) على أن يتهم القرآن بالتضارب عندما يقرر بأسلوب أدبى أن الآلهة المزعومة هى (لا شىء) ؟ إن الآيات الآتية تتعلق بالموضوع :

﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾

[الفرقان آية ٣]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) وفى المرجع انظر ص ١٦ ـ ٢٠ .

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ﴾ [الأنبياء آية ٩٨ ـ ٩٩]

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ [الزمر آية ٣٨]

﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾ [الأنبياء آية ٤٣]

ونجد لدى قراءتنا هذه الآيات فقط ـ على الرغم من وجود الكثير غيرها فى القرآن ـ أنه يشجب وجود آلهة مزعومة على طول الخط ، وأنه يكرر عدم أهميتها وجدواها ونفعها لأولئك الوثنيين العاكفين على عبادتها وتقديسها ، بل إن هذه الأوثان ستكون حجة دامغة ضدهم يوم القيامة ثم تؤخذ إلى السعير زيادة فى النكال بها .

ثم لنر موضوع القبلة الذى تناوله (جاردنر) على أن القرآن قد أضفى على هذا الموضوع هالة من التعقيد ، فقال عن الرسول عليه الصلاة والسلام : « لقد أمر أن يتوجه فى صلاته إلى القدس ـ هذا فى موضع من القرآن ـ ثم أمر فى موضع آخر بأن يتوجه إلى مكة ، على حين أنه قد تلقى تعليماً ثالثاً فى موضع جديد بأنه لا قيمة للاتجاه الذى ينشده فى صلاته »[١] ، ثم كرر (ليفى) هذا الاتهام بعد أربعين سنة من (جاردنر)[٢] .

للرد عليهما أولاً سنقول : إنه لا توجد آية واحدة فى القرآن تأمر أو تقترح على المؤمنين أن يقصدوا القدس فى صلاتهم ، ذلك أن المسلمين قد أمروا بالتوجه إلى المسجد الأقصى فى بداية فترة المدينة ، واستمروا

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gardner) وفى المرجع انظر الجزء ٢ ص ٢٧٩

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ١٦٣ .

على ذلك ستة عشر شهراً ثم أمروا بالتحول إلى المسجد الحرام ، وهو القبلة التى كانوا يصلون إليها فى مكة ، وذلك عندما نزل قوله تعالى :

﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينّك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ [البقرة آية ١٤٤]

نرى إذن أنه لا يوجد أى تناقض فى تحديد قبلة المسلمين ، وذلك أن القبلة هى الكعبة بيت الله الحرام .

ولعل (جاردنر) قد اختلط عليه الأمر بسبب الآية الآتية التى هى فى الواقع تشرح نفسها :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة آية ١٧٧]

ويبدو لنا منها أنها لا تقول أى شىء عن « عدم الأهمية للاتجاه الذى يقصده المسلم فى صلاته » كما استنتج (جاردنر) خطأً .

ثم نأتى إلى موضوع خلق الإنسان كمادة لتناقض زعم وجوده فى القرآن الكريم ، حيث قرر (ليفى) (Levy) أن « الرسول يعلن من خلال الوحى أن كل الأشياء الحية قد خلقت من ماء بينما الإنسان قد خلق من صلصال كما جاء فى موضع آخر »(١) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ٤٦٩ .

﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ [النور آية ٥٤]

﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ [العلق آية ٢]

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ [الرحمن آية ١٤]

﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ [غافر آية ٦٧]

وهنا يعلن القرآن أن الإنسان قد خلق من صلصال كالفخار أو من التراب مشيراً هنا إلى خلق آدم عليه السلام أبى الإنسانية ، ويعلن كذلك أن الإنسان قد خلق من (نطفة) مشيراً إلى ماء أبيه ، ومن (علقة) مشيراً إلى المرحلة المبكرة للجنين فى رحم أمه .

ومن ثّم لا يظهـــر هنا أى تناقض ، بل على العكس ، إن هذه الآيات تعد دليلاً ساطعاً على ألوهية وحى القرآن الكريم ، وإلا كيف تمكن رجل أمّي فى جوف الصحراء منذ أربعة عشر قرناً أن يكتب ، أو حتى يفكر ، فى مثل هذه الحقائق العلمية ، والتى لم تثبت إلا منذ بضعة أعوام ، والتى ترى أن تسعين بالمائة من الجسم الإنسانى يتركب من الماء ؟

ثم يلحق حديث الآخرة بركب التناقضات المزعومة !! فعلى حين يعتقد المسلم أن يوم القيامة ليس بالحدث اليسير ، وأنه لا يمكن لأى مخلوق أن يوفيه حقه فى وصف ما سيحدث فيه أو فى تصوره ، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم يصنف الكثير من مشاهد الحياة بعد الموت ، آخذا بألبابنا إلى أقصى حد ، لتصور المقاييس المتناهية للزمن وللمسافة المتعلقة بتلك الحياة ـ على الرغم من كل ذلك فإن هناك تعليقين جاءا على لسان مستشرقين نذكرهما ونناقشهما . فقد جاء (رودينسون)

(Rodinson) مستشهداً بتعاليم السيد المسيح[1] فقال : « لأن يمر الجمل فى ثقب إبرة أهون من أن يدلف مترف إلى ملكوت السموات » ، ثم أضاف أنه قد وجد فى بعض مواضع القرآن المكى ما يشير إلى « عداء مستحكم للثروة » وتهديد ووعيد للأثرياء بعقاب الله »[2] ، ولكن الحق هو أن القرآن لا يدين الأغنياء من حيث إنهم أغنياء فى هذا العالم ، ولكنه يتهم أولئك الذين عشقوا الثروة ونسوا المحتاجين ، ولا شك أن هذا هو شعور المستشرق (رودينسون) عندما أشار إلى ما نادى به المسيح ، حيث إن الأغنياء المتوعدين هم الذين يرفضون التسليم بحقيقة الثروة باعتبارها نعمة من الله ، ولا يكلفون أنفسهم شكره عليها ، بل يحرمون السائلين ويزدرونهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ [البقرة آية ٢٥٤]

أما الآية القرآنية التى تشير إلى (سم الخياط) فهى لا تدين الأغنياء وإنما تدين المتكبرين المكذبين بآيات الله :

﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين ﴾ [الأعراف آية ٤٠]

وعلى ذلك فالذى يعنينا هو كيف يستغل الإنسان المال الذى لديه؟ إن عبده وكدسه واختزنه وبات يحرم الفقراء والمساكين فإنه يكون بذلك قد اقترف ذنباً فاحشاً يستحق به عذاب الله تعالى ، على حين أنه لو تعامل مع الثروة والممتلكات الدنيوية على أنهما ليسا بأكثر من زينة للحياة الدنيا وأن أفضل ما يتبقى له هو عمله الصالح ، فسوف يثاب بكرم

(١) جاء فى إنجيل متى الإصحاح التاسع عشر ، فقرة ٢٣ ـ ٢٤ : (فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات ، وأقول لكم أيضاً أن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله) . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (الإسلام والرأسمالية) ص ٢٤

الله ويدخل الجنة على تسخيره لشروته لفعل الصالحات . لذا فالتناقض الذى رآه (رودينسون) ليس إلا فى مخيلته ولقلة إلمامه باللغة والعلم المناسب .

وفى الآخرة ، يقف بعض الآثمين مواقف الحرمان من الكلام وقد منح الجميع فرصة للدفاع وللجدل ، وأحياناً يقفون مع شركائهم الذين شاركوهم ليذكروهم بما اقترفوه فى الدنيا ، وليلقى كل فريق تبعة إثمه على الآخر .

وعلى الرغم من أن مشاهد الآخرة قد أذهلت المستشرقين أمثال (ونزبروخ) (Wansbrough) إلا أنه بدلاً من محاولة الفهم انطلق فى اتهاماته وافتراضاته لوجود متناقضات ، وما لبث أن أورد هاتين الآيتين بعد أن اقتلعهما من مكانهما وقطع كل صلة بينهما وبين الآيات السابقة عليهما أو اللاحقة بهما :

﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾

[سبأ آية ٣١]

﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾

[المرسلات آية ٣٥ ـ ٣٦]

فكما ذكرنا آنفاً ، ستشكل القيامة هزة رهيبة فى الأحداث الكونية، وسيكون هناك جماعات لا حصر لها من الأنفس ، تواجه كل نفس ، ذكراً كانت أم أنثى ، إما بالثواب أو بالعقاب ، عن كل ما صدر منها فى الحياة الدنيا .

ونسأل هنا سؤالاً ؛ ألم يكن مناسباً لـ (ونزبروخ) ولمن معه أن يتناولوا تلك الصورة باحترام ، وأن يتأملوا فيها وفى مختلف نواحيها فى

ضوء ضخامتها وبعدها الغيبى الميتافيزيقى ؟ إنهم للأسف زعموا على الرغم من إدراكهم القاصر المقترن بالخلط وبعدم التناول الصحيح للأمور ـ زعموا لأنفسهم السلطة المطلقة لإصدار الأحكام ، وبكل جرأة أعلنوا أن القرآن الكريم يحوى تناقضاً !!

* * *

الفصـــل السابع

الناسخ والمنسوخ فى القرآن

بدا موضوع النسخ ذا أهمية كبيرة ، إذ وجده كل المستشرقين على اختلاف مشاربهم ، وكذلك الكتّاب المسلمون ـ مادة مهمة ومثيرة ، وذلك بالطبع مع اختلاف وجهات النظر لدى كل من الفريقين ، حيث نجد أن الاختلاف بينهما ربما ينبع أساساً من الفرق بين الكلمة الإنجليزية (abrogation) والتى تعنى (الإلغاء) أو المحو ، وبين المعنى القرآنى العربى وهو (النسخ) ، فعلى حين تشير الكلمة الإنجليزية إلى مفهوم الإزالة والحذف والمحو ، لم تتطرق الكلمة العربية الأصلية للدلالة على شيء من هذا ، وهو ما سوف نتناوله الآن .

فالشيء المثير للاهتمام حقاً فيما يتعلق بموضوع النسخ هو ما قد علمناه من أنه بدأ الاهتمام به بعد زمن طويل من وفاة الرسول ﷺ ، مما يطرح فى ذاته موضوعاً للسؤال وللبحث ، فإما أنه لم يكن له وجود فى بداية العهد الإسلامى ، وأنه كان مما ابتدعته الأجيال وأتت به بعد ذلك بزمن ، وإما أنه لم يكن ملحوظاً كحدث يحدث ، عندما كان الرسول ﷺ ينسخ قانوناً أو تشريعاً ويأتى بآخر ، وهو ما يعد بعيداً جداً عن ترجيحنا ، وذلك لأننا ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار مدى الأهمية القصوى لكل وحى منزّل فى حياة المجتمع الإسلامى الناشئ .

والنسخ بمعنى التنقيح أو حتى بمعنى إلغاء تعليم أو سلوك كما جاء فى آية قرآنية يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أقسام : فهو إما أن يكون بمعنى إحلال آية قرآنية مكان أخرى ، أو بأن يستبدل بتعليم غير قرآنى تعليماً آخر قرآنياً ، أو العكس ، لقد فاز القسم الأول بنصيب الأسد من اهتمام المستشرقين ـ أما القسم الثالث فقد جاءت به عن غير دراية قلة

من المستشرقين ، وهو ما سنشير إليه بعد ذلك ، حيث اعتمدوا بالفعل على وجود كلمة (نسْخ) فى آية قرآنية .

كيف تم طرح الموضوع فى القرآن :

إن كلمة (نسخ) بمعنى تعديل الآيات ـ لم ترد إلا فى موضع واحد فى القرآن ، هو قوله تعالى : ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** ﴾[1] ، وجاءت فى القرآن كلمة أخرى بمعناها فى سورة الرعد ، وسوف نناقش ذلك ، ولكن الموقف يدعونا إلى أن نضع آية البقرة فى سباقها ، وسياقها حتى يتضح المراد بها .

ففى سورة (البقرة) نجد تناولا مسهباً لعصيان اليهود لتعاليم الله سبحانه وتعالى ، واستخفافهم بموسى عليه السلام وتآمرهم وعدائهم للملائكة كثيرين[2] ، ورفضهم لرسالة الله إليهم إذ يقولون عن القرآن الكريم : كيف يرسل الله رسالة جديدة ، وعلى رجل من غيرهم، بعد أن أرسل إليهم فعلاً واحدة من قبل ؟ إنها لو كانت ـ والكلام على لسان اليهود ـ رسالة مشابهة لما لديهم فهى إذن شىء زائد على الحاجة ، وإن كانت مختلفة عنه فهى شىء غير منطقى لا يرضون به ، ولا شك فى أن هذا ما جعل بنى إسرائيل مذكورين فى السورة فى الآيات (١٠٥ ـ ١٠٧) على أنهم أهل الكتاب ، وهاهى الآيات :

﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم**

---

(١) الآية القرآنية هى : ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير** ﴾ (البقرة آية ١٠٦) (المترجم) .

(٢) يقصد هنا قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾ (البقرة آية ٩٧ ـ ٩٨) (المترجم) .

تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ [البقرة آية ١٠٥ ـ ١٠٧]

وفى الآية الأولى منها تأتى الإجابة على إنكار أهل الكتاب للرسالة، فتقول بأن الله يصطفى من يشاء ليلقى إليه بالوحى ، وفى الآية الثانية يذكر أنه لو حدث ونسخت شريعة جاءت فى العهد القديم فإن محمداً ﷺ يلقى إليه بشريعة أفضل منها وأحسن[1] ، ثم يلفت الانتباه فى الآية الثالثة إلى ملكوت الله تعالى وهيمنته على السموات والأرض وسائر الكون وسننه التى تحكم الطبيعة ، وأنه سبحانه الفعال لما يريد وهو العليم الحكيم ، ولعلنا الآن نسأل : ألم تثبت الطبيعة لنا أن الأشياء الأقدم تخلى السبيل لما هو أحدث ، والأدنى للأفضل ، وهكذا ؟ إن ما نراه هنا طبيعى جداً وهو أن يستبدل بالشريعة الموسوية[2] والتى جاءت لأناس معينين فى وقت معين لتلائم احتياجاتهم هم الخاصة فقط ـ شريعة جديدة أخرى تتصف بالشمول وبالعالمية ـ نسبة إلى العالم ـ وهو الذى جاء به الإسلام، سيما وأن الشريعة القديمة قد طمست وتنوسيت تعاليمها مما أذّن بنسخ ما تبقى منها بالأصلح الذى يشابهها فى نواح معينة .

ثم يأتى دور الآية الأخرى التى تحوى مفهوم النسخ والبطلان ، فهى تشتمل على كلمة (يمحو) وتتضمن رداً على طلب الكافرين من محمد ﷺ أن يأتى بمعجزة تؤيد رسالته :

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ [الرعد آية ٣٨ ـ ٣٩]

وعملية الإحلال الجزئى للدين الجديد محل ما سبقه من قديم

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) فى المرجع انظر ص ٤٧ .

(٢) نسبة إلى موسى عليه السلام (المترجم).

لا ينبغي أن نعجب لها بأى حال من الأحوال ؛ ألم يشر اللاهوتيون المسيحيون إلى أن الله قد أنزل الأناجيل أحياناً مصدقة وأحياناً ناسخة لما أتت به التوراه ؟ ولقد تأكد هذا بالآية القرآنية :

﴿ ومصدقاً لما بين يدىّ من التوارة ولأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ [آل عمران آية ٥٠]

إذن فقد قوّض بنيان الأولى ليُشيِّدَ بنيان الثانية .

ويمكننا الآن تطبيق نفس القاعدة بين القرآن من جهة والإنجيل والتوراة من جهة أخرى ، على الرغم من أن بعض الدارسين المسلمين المتأخرين قد بسطوا مجال النسخ ليشمل بعضاً من آيات القرآن وعلاقتها بآيات أخرى فيه ، وهو ما حدا للأسف ببعض المستشرقين إلى إشباع رغباتهم فى الافتراء[١] .

بعض تعليقات المستشرقين :

يشمل المنظور الإسلامى لله تعالى وأسمائه الحسنى قوته تعالى المطلقة القادرة على تغيير أى شيء يريده فى الوقت الذى يشاء[٢] ، وهو ولا شك يعتبر على النقيض تماماً مما أتت به مجموعة من المستشرقين من تصورات ترى أن « الله يغيّر رأيه »[٣] (God changing his mind) ومن ثم فهو « متقلب » وأن « ما يأتى به اليوم يلغيه غدا »[٤] ، ثم وصفوا كثيراً من المقاطع القرآنية « بالتناقض»[٥] حتى تساءلوا « كيف يذعن الإنسان لتلك النظرية القائلة بأن أى تناقض فى القرآن هو حق متى

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Hughes) وفى المرجع انظر ص ٣٩ .

(٢) كتاب الإتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطى ـ الجزء الأول .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ٥٣ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وفى المرجع انظر ص ٤٧ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) فى ص ١٦٠ ، وكذلك تحت (Margoliouth) ، وكذلك تحت (Baljon)

تم وحيه ؟! » ، وقالوا : « إن كل شيء أبدى لابد وأن يكون ثابتاً لا يتغير أو يتحول أو ينسخ » ، وساقوا دليلاً اقتلعوه من الآيات التى تم عرضها قبلا ، والتى تشير إلى النسخ للبرهنة على مزاعهم متغاضين عن الحقيقة التى تمت مناقشتها بالفعل ، وهى أن النسخ المشار إليه هو علاقة بين القرآن والرسالات السابقة .

ولا ريب أن أولئك المستشرقين وقد تصوروا النسخ بمعنى أن تلغى آية قرآنية جديدة آية قديمة تختلف معها وتناقضها ـ قد تورطوا فى اتهام أبسط ما يوصف به هو أنه قذف وعيب فى الذات الإلهية ، وهو ما يظهر جلياً من قولهم : « إن الله يغير رأيه »[1] . وعلى ذلك فإننا نعلن أن ذلك غير صحيح بالمرة .

فإنّ ما بدا لبعض المستشرقين أنه تغير فى المشيئة الإلهية لا يراه المسلمون إلا جزءاً من خطة إلهية أزلية . وهذا المفهوم الإسلامى للنسخ لا ينطبق فقط على الآيات القرآنية أو على القواعد الإسلامية وقوانينها إزاء تلك التى جاءت فى الكتب السابقة ، ولكنه ناموس ينطبق على الكون بأسره .

ولن نجد وسيلة لتوضيح هذه النقطة إلا بذكر حادثة اتفق على صحتها كل من اليهود والنصارى والمسلمين ، فقد سجلت فى الكتاب المقدس فى سفر التكوين ـ الإصحاح الثانى والعشرين ، وكذلك فى سورة (الصافات) بالقرآن الكريم[2] ، وتروى هذه الحادثة أن إبراهيم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Palmer) وفى المرجع انظر ص ٥٣ ، وكذلك تحت (Bethman) ، وكذلك تحت (Menezes) فى ص ١٦٠ .

(٢) جاء فى سورة (الصافات) : ﴿ **فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إلى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم** ﴾ (الصافات آية ١٠١ ـ ١٠٩) * (المترجم) .

عليه السلام قد أوحى إليه أن يذبح ابنه وهو ولا شك أمر رباني ينبغى عليه طاعته ، كذلك لم يكن يتوقع مطلقاً أن يقوم الله سبحانه بنسخه ، فالذى حدث هو أن إبراهيم وابنه قد ذهبا بإذعان تام لإرادة الله إلى المكان المحدد، وقد شحذا السكين معهما ضاربين بذلك أروع مثال على الإيمان الحقيقي والطاعة المطلقة لله، يتردد صداه فى أرجاء الدنيا إلى يومنا هذا .

فأمر الله الأول لإبراهيم لم يكن سوى أمر مؤقت ، كما أن تضحية إبراهيم بابنه عليهما السلام لم تكن إرادة ماضية لله ، وإنما كانت تمثل اختباراً وامتحاناً لطاعتهما لربهما ، ومن ثَمّ جاء النسخ للأمر الإلهى الأول فى الوقت المناسب ، وكذلك جاء الفداء بالكبش لإسعاد الأب الحزين وراحته .

وعلى ذلك لو اعتبر الغربيون هذه الحادثة المهمة مثالاً يضربونه على أن الله سبحانه يغير رأيه ، فإننا نرى أن المسلمين لم يخطر لهم قط أن يعتبروها كذلك ، وإنما هى مرحلة من مراحل القدر الإلهى الأزلى .

هذا وسنتناول هذه النقطة فى الجزء الثانى من عملنا هذا من خلال موضوع القضاء والقدر وحرية الإرادة الإنسانية ، وهو الموضوع الذى يمس هذه النقطة .

والآن ، لننظر إلى بعض حالات النسخ الذى ادعى بعضهم وجوده فى القرآن ، ومن الأفضل أن نطلق عليه التنقيح أو التأكيد[1] ، ولندرس الأمثلة الآتية :

النسخ المقول به فى القرآن :

لقد عدّد الدارسون المسلمون[2] قرابة عشرين حالة من حالات النسخ بمعنى التنقيح والتأكيد ، وجاءت كلها ضمن الوحى المدنى ،

(١) كتاب الإتقان فى علوم القرآن للحافظ السيوطى ج ٢ ص ٢٠ ـ ٢٣ .
(٢) انظر المرجع السابق .

ومختلفة فى موضوعاتها ودرجة نسخها ، ولسوف نعرض فيما يلى لدراسة كل ما يتصل بثلاثة موضوعات كانت مما انتقده المستشرقون ، وهى تحريم الخمر، وحقوق الأرامل ، وإلغاء عبادة الأوثان ، كذلك سنتحرى فى كل حالة عن وجود تناقض بين الآية الناسخة وتلك المنسوخة ، ثم ندرس بعد ذلك حالة رابعة تناقش تصوراً لأحد المستشرقين رأى أن تعاليم الرسول ﷺ قد جاءت ناسخة لآيات قرآنية .

١ ـ الخمر :

لقد انتقد (ليفى)[1] (Levy) تحريم الخمر فقال : « إن الخمر ليست فقط ذلك المشروب الذى كان يستخرج من ذلك الغذاء الصحى من نخيل البلح ، وإنما هى أيضاً من المباهج الحسية الموجودة فى الجنة نفسها حيث تتدفق فيها أنهار الخمر ، تماماً كما تتدفق أنهار الماء واللبن والعسل » .

والحقيقة أن الخمر باعتبارها مسكراً ذكرت فى القرآن فى ثلاث صور ، أولها يتعلق بتحريمها فى الدنيا ، وجاء ذلك فى سورة البقرة آية (٢١٩) وفى سورة النساء آية (٤٣) وفى سورة المائدة الآيتين(٩٠ـ٩١)، وثانى هذه الصور تتعلق باعتباره لها من ضمن المباهج التى سيلقّاها المؤمنون الصالحون من نعيم الجنة ، وذلك فى سورة محمد آية (١٥) ، ثم جاء ذكرها مرة أخرى فى ذكر قصة يوسف عليه السلام وصاحبيه فى السجن فى سورة يوسف (٣٦ ـ٤١) ، ولكن ينبغى ألا نغفل أن خمر الجنة ليست على الإطلاق هى الخمر الموجودة فى الدنيا ، كما أن تحريم المسكرات لم يسن قانوناً إلا بعد سنوات من الهجرة . عندما بدأ المسلمون فى تكوين دولتهم المستقلة فى المدينة ، وجاء هذا التحريم بصورة تدريجية، وعلى مراحل ، أولها :

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ١٦٣ .

إقصاء الخمر واستبعادها من قائمة الطعام الطيب (الآية ٦٧ من سورة النحل)[1] ، ثم أعلن بعد ذلك أن الإثم فيها أكبر من النفع (سورة البقرة الآية ٢١٩) ، ثم جاءت المرحلة الثانية بتحديد الأوقات التي يسمح فيها بشرب الخمر ، ذلك أن المؤمنين قد أمروا أن يقلعوا عن شربها عند الاستعداد للصلاة ، ليعلموا ما يقولون فيها (سورة النساء آية ٤٣) ثم تجئ بعد ذلك المرحلة النهائية التي فيها تم التحريم المطلق بدون قيد أو شرط (سورة المائدة ٩٠-٩١) .

وقد يعتبر بعض الكتاب المسلمين أن الآية الأخيرة قامت بنسخ الآيتين السابقتين عليها ، ولكننا يجب أن ننظر إليها على أنها مكملة لهما وليست متناقضة معهما كما يتضح جلياً عند دراسة هذه الآيات :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل : العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ [البقرة آية ٢١٩]

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا ﴾ [النساء آية ٤٣]

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا

(١) جاء في سورة النحل : **﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾** ، وسورة النحل سورة مكية التنزيل عدا الآيات (١٢٦ - ١٢٨) (المترجم) .

فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ [المائدة آية ٩٠ـ٩٢]

أما الآية التى استشهد بها (ليفى) ليربط بين المسكرات وبين (الغذاء الصحى من نخيل البلح) فهى تفرق بينهما ولا تقرن ، ولنقرأها ثانية : **﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾** [النحل آية ٦٧]

ثم تأتى المفاجأة ؛ لقد انطلق كل من (منيزس) (Menezes) و(ليفى) (Levy) بادعاءات ترى أن هناك تناقضاً بين الآية (٢١٩) من سورة (البقرة) والآية (٤٣) من المائدة !! بل لقد أكد (ليفى) أن واحدة منهما ينبغى أن تحل محل الأخرى .

ونحن نرى أنه لا وجود لأى تناقض بين هاتين الآيتين ، كذلك لا وجود لأى تناقض بينهما وبين أى آية أخرى فى القرآن الكريم ، كما يتبين لكل ذى عقل وملم باللغة .

٢ - حقوق الأرامل :

لقد أكد (هيوز) (Hughs) قائلا: « لقد اعترف كل المفسرين أن الآية (٢٣٤) من سورة البقرة قد نزلت بعد الآية (٢٤٠) من نفس السورة والناسخة لها » ، ولكن لا شك أنه بالدراسة المتأنية يمكننا الكشف عن المغزى الحقيقى لموضوع هاتين الآيتين :

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ [البقرة آية ٢٣٤]

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم ﴾ [البقرة آية ٢٤٠]

إننا بصدد مناقشة حالتين مختلفتين تماماً تتعلقان بفئة الأرامل ، الآية الأولى تشير إلى أنه لا ينبغى للأرمل أن تتزوج لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام من بعد موت زوجها ، وهو ما يعد فترة كافية للتأكد من براءة رحمها من ابن له ، ثم توجز الآية الثانية ذكر حق مؤكد من الحقوق الاقتصادية للأرامل ، فهى تعطيها الحق بأن تبقى فى مسكن الزوجية لمدة عام بعد موت زوجها ـ هذا إن لم تقرر هى أن تذهب إلى مسكن آخر تأوى إليه .

والآن وبعد أن قرأنا الآيتين وتحققنا من أن إحداهما تكمّل الأخرى بقى لنا سؤال ، أين هو هذا التناقض الذى ادعى (هيوز) وجوده ؟

تقديس الأوثان ـ نسخ آخر مزعوم :

يتعلق هذا الادعاء بسورة (النجم) المكية التنزيل ، والتى جاء فى آياتها (١٩ـ٢٣) تناول لأهم الأصنام التى قدّسها كفار مكة ، والآيات هى: ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ [النجم آية ١٩ـ٢٣]

فقد زعم كل من (السير مارك سايكس) (Sir Mark Sykes) وفق ما جاء على لسان (هـ. جـ. ويلز)[١] (H. G. Wells) ، وكما زعم (وات) [٢] (Wall) وآخرون[٣] أن قد كانت هناك آية أو اثنتان محشورتان أصلا فى هذه السورة ، ومكانهما بين الآيتين (٢٠ ,٢١) وقد جاء فيهما ثناء على الأوثان[٤] .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) ج ١ ص ٤٧٩ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٦.
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٩٥ .
(٤) نص هاتين العبارتين الموضوعتين هو :(تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى)=

ولكنهما حذفتا بعد ذلك ، كما أن بعض المفسرين كرروا هذه الرواية أمثال (البيضاوى) ، وذلك دون أن يأتوا بدليل من إسناد حقيقى أو حتى بحجة منطقية ، مغفلين بهذا الحقيقة الناصعة القائلة بأن كل آية هنا ـ وحتى اللاتى سيقال عنهن إنهن ناسخات بعد هذه الآيات ـ كلها دوّنت فى المصحف على عهد الرسول ﷺ ، وأنها ظلت محفوظة فى صدور المسلمين منذ ذلك الحين ، مما لم يدع مجالا لحذف كلمة واحدة ، أو حتى حرف واحد ، كما وضحنا فى الفصل الثالث .

ثم زعم (وات Watt) أن الآيات قد أعلنت على الملأ فقال: « إنه لا يمكن أن يخطر ببال أن أحداً يمكنه أن يلفّق مثل هذه القصة»[1] !! قال هذا دون أن يتحقق من أنه قد نسب إلى الرسول ﷺ بعد وفاته بحوالى خمسين إلى مائة عام آلاف من الأحاديث المكذوبة التى وضعها العرب وغيرهم من ذوى الخلفيات الدينية والسياسية المتباينة ، وقد توفر أمثال البخارى ومسلم على جمع الصحيح من الأحاديث ، واستبعاد المكذوب .

ويظل (وات) هائماً فى تصوراته متناسياً واجبه من الدراسة العلمية للموضوع ، فهو يتهم الرسول ﷺ بالشرك فى السنوات الأولى للبعثة فيقول : « إنه لم يخرج توحيده فى تلك المرحلة عن إطار أداء بعض أنواع الصلوات لموجودات فوق طبيعية ثانوية ولعلها كانت ذات علاقة بنوع من الملائكة »[2] ، ولكن هذه الحجة قد ثبت فشلها في إقناع أحد فى ضوء إنكارها القاطع فى الآية فى نفس السورة موضوع الدراسة :

﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ [النجم آية ٢٦]

= وقد ثبت كذب هذه الرواية ـ انظر كتاب (تاريخ القرآن) ص ٨٤ تأليف الدكتور عبدالصبور شاهين (المراجع) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٥٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم)ص ٦٩ .

ويتساءل (وات) : « هل يعنى ذلك أنه ـ أى محمداً ﷺ ـ كان مشركاً ؟ » !! وهو فى حقيقة الأمر مدفوع بتصوره أن النبى عليه الصلاة والسلام قد تعلم مفهوم الوحدانية بعد أن احتك باليهود والنصارى فى المدينة ، وهو تصور سخيف يدفعنا إلى الدهشة والتساؤل : كيف يهمل (وات) فى دراساته التعاليم الأساسية للإسلام ، ويغفل الحقيقة المؤكدة التى تجزم بأن المحور الرئيسى لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام فى نشأتها كان التوحيد الخالص ، لا إله إلا الله ، وهاهى ذه آيات سورة الإخلاص ، نزل بها الوحى فى المرحلة الأولى للبعثة :

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الصمد آية ١ـ٤]

فالذى يجب أن نعلمه هو أن هذه السورة نزلت قبل سورة (النجم) ، وهى السورة موضوع المناقشة الحالية ، وكلتا السورتين تؤيد التوحيد الخالص ، وتدعو إليه .

ولعلنا ندرك أن كثيرين من صحابة محمد ﷺ لاقوا عذاباً رهيباً بسبب تشبثهم العنيد بدين يركّز على الوحدانية المطلقة ، ولا شك فى أن قصة بلال بن رباح رضى الله عنه ، وهو العبد الحبشى تعتبر من أشهر القصص فى تاريخ هذه الفترة ، فقد عذّب بوحشية فى شمس الصحراء الحارقة فى محاولة يائسة لإجباره على سب دينه الجديد ، ولكن النفس الشجاعة كانت تردد دائماً : « أحد ، أحد » ، غير مبالية بالحجر الضخم الذى يكاد يسحقه ، والرابض فوق عظام صدره ، إلى أن تمّت نجاته على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه الذى اشتراه ثم أعتقه .

والأكثر من ذلك ؛ أننا لم نعرف مطلقاً عن الرسول ﷺ أنه قد رضخ فى تسوية للصراع مع الكافرين على حساب عقيدة وحدانية الله تعالى ... لم يقبل هذا فى أية مناسبة حتى لقد جاءت واحدة من تلك

السور التى نزلت فى فجر الدعوة مسجلة لموقف الرفض التام لعقيدة المشركين فى الوقت الذى تصوروا فيه أنهم يمكنهم أن يلتقوا مع محمد ﷺ فى منتصف الطريق ، وترتيبها التنزيلى هو (الثامن عشر) :

﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾ [الكافرون آية ١ ـ ٦]

وإذن ؛ فنحن نمضى واثقين بأن هذه الآيات والحقائق الأخرى السابق ذكرها هى براهين قاطعة على الوحدانية الصافية المتركزة فى لب الإسلام منذ نشأته ، ولكن هناك شيئاً يحتم علينا الإشارة إليه وهو أن المسلمين يعتبرون كل الرسل الذين جاءوا برسالات من ربهم كانوا أيضاً داعين إلى الوحدانية الخالصة : **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾** [الأنبياء آية ٢٥]

وبعد هذا كله نجد أنفسنا مضطرين لسرد قصة مختلقة حول الآلهة المزعوم وجودها ، وقد ساقها إلينا وكررها (دانيال) (Daniel) و(وات) (Watt) و(جاردنر)[1] (Gardner) ، وآخرون، بل إن (هـ.جـ. ويلز)[2] (H.G. Wells) كرر أيضاً نفس الإدعاء ، وهو أن « النبى قد آمن بآلهة تحمل روح (منيف) ، وهو اسم أطلقه على ابنه » ؟!!!

وهنا ارتكب (ويلز) خطأ بالزعم أن اسم (منيف) كان لابن الرسول عليه الصلاة والسلام ، مع أنه اسم جده الأكبر (عبد مناف) ، ولقد أورد (سافارى) (Savary) الأسماء الصحيحة لأبناء الرسول السبعة والتى يعرفها المسلمون جيداً ، وهى (عبد الله) و(القاسم) و(إبراهيم) و(فاطمة) و(زينب) و(رقية) و(أم كلثوم) .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gardner)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) الجزء الأول ص ٤٨٢ .

ثم يأتى أبو حيان فيذكر فى مؤلفه (البحر المحيط) أن ابن إسحاق قد فضح القصة بأكملها بعد مائة وخمسين سنة من الهجرة على أنها اختلاق من اختلاقات الزنادقة ، وهى تلك الطائفة التى لا تعترف بالإسلام ، وإنما تنتسب إليه أو إلى أى ديانة أخرى بالاسم فقط ، ويقرر أبو حيان أنه ليس لها ـ أى لتلك الطائفة ـ أى تأثير على كتب الحديث الموثوق بها مثل صحيح البخارى ، كما لم تؤثر على كتب التفسير المعروفة مثل تفسير ابن كثير ، كما قرر القاضى الشهير (عياض) فى كتابه (الشفا) : أن تلفيقات الزنادقة لم تكن لتصل إلينا لاعتمادنا على كتّاب الحديث الموثوق بهم ، والمذكورين فى أى من سلاسل الإسناد .

وبعد ذلك تأتى تقارير المستشرقين كلها تتعارض وتتضارب ، فنرى واحداً يزعم أن النبى ﷺ قد تلفظ بالآية المزعوم وجودها فى سورة النجم أثناء صلاته ، ويصف آخر كيف أنه صلى الله عليه وسلم قد أعلنها فى جمع من صحابته ، فى حين ينسبها آخر إلى الشيطان فيقول من بين ما قال : « إنه هو ولا شك الذى نطق بها على لسانه » ، ويدعى رابع أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يتمنى أن تكون هذه الآية بين الوحى حتى أتاه جبريل فأخبره « بأن ليس هذا ما علّمتك إياه » ... ، ودعاوى أخرى ربما تكون أقرب إلى التسلية منها إلى أى شىء آخر .

ونتعرض الآن للنقطة الأهم وهى كيف يمكن للآية المزعومة أن تنسجم مع باقى الآيات ؟ إننا من خلال القراءة المتأنية نرى أن أية إضافة يمكن أن تشكل تمزيقاً فى الانسياب المعنوى والموسيقى :

﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذن قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى * أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى * وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً

إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئاً ﴾ [النجم آية ١٩ ـ ٢٨]

وبعد ذلك ، يأتي دور الآية المزعومة وهى « تلك الغرانيق[١] العلى وإن شفاعتهن لترتجى » والتى يفترض أنها قد جاءت بين الآية رقم (٢٠) والآية رقم (٢١) ، وهى لا شك تبدو باطلاً صريحاً .

ولعل من أهم النقاط أن نضيف أن سورة النجم ـ وهى موضوع ادعاء المستشرقين ـ قد استهلت بالإعلان الصارخ عن عدم أحقية النبى ﷺ لأن يغيّر أى جزء من القرآن أو يضيف إليه أو يحذف منه وفق ما يرى .

﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى ﴾ [النجم آية ١ ـ ٥]

ومن ثّم يبدو واضحاً ـ على ما قرره ابن إسحاق أن إدراج الآية المزعومة لا يعنى أكثر من أنه مجرد تلفيق قام به كتّاب أبسط ما يوصفون به أنهم غير مؤمنين ، وغير منطقيين ، وللأسف لم يفهموا القرآن جيداً .

السنة المقول بنسخها لنصوص القرآن :

لقد عبّر مستشرق معاصر[٢] عن شكوكه إزاء تخلى النبى ﷺ عن قاعدة قرآنية وترسيخه بدلا منها سنة من سننه ، وتتعلق هذه القاعدة بحد الزنا ، حيث تملى بأنه ينبغى جلد الزانى غير المحصن وكذا الزانية غير المحصنة إن اقترفا جريمة الزنا ، فقد جاء فى القرآن الكريم :

﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة

(١) غرانيق : جمع غرنوق وهو الوثن . (المترجم) .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Burton) وفى المرجع انظر ص ٧١ .

ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [النور آية ٢]

لذلك فقد قام الرسول وخلفاؤه من بعده بإنفاذ هذه العقوبة ، أما فى حالة الزناة المحصنين فإن القرآن لم ينسخ العقوبة التى وردت فى الكتاب المقدس والتى تنص على رجم طرفى الجريمة المحصنين كما جاء فى سفر التثنية فى الإصحاح (٢١ـ٢٤) ، وأن الرسول ﷺ نفسه قد أنفذ هذه العقوبة باعتبار أن القرآن الكريم لم يقم بنسخها ، ولعل (بارتون) (Burton) قد اختلط عليه الأمر لسوء حظه وذلك أن الحالتين مختلفتان تماماً اختلافاً لم يفطن إليه المستشرق .

خلاصــة :

يتضح من الأمثلة السابقة مدى بطلان الافتراضات المتجنيةالتى أتى بها المستشرقون ، إذ ثبت الخطأ فى مزاعمهم لوقوفها على أرض رخوة ، فضلاً عن أنها جائرة ، فكيف يتم (النسخ) الإلغاء والإبطال ؟ ، والنبى ﷺ كان ذلك الرجل الذى يصدر تعليماته لصحابته فينفذوها بحذافيرها بقمة التفانى والإخلاص .

والتاريخ الإسلامى سجل لنا كل الملابسات والظروف التى أحاطت بكل عملية نسخ ، فذكر أنه لم يحدث مطلقاً أن أصدر الرسول عليه الصلاة والسلام أمراً لكتّاب الوحى أو إلى صحابته بوجه عام بأن يبدلوا آية جديدة مكان آية أخرى سبقتها فى التنزيل(١) ، وإنما لو كانت هذه الجديدة معدّلة أو مكملة لها فإن كلتيهما ما زالت داخل المصحف الذى تم جمعه ، بحيث يستطيع أن يقرأها أو يتعلمها كل إنسان يريد الحق .

* * *

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٤٧ .

الفصل الثامن

وقفة لتلخيص النقاط الأساسية

والآن وبعد أن تناولنا التعليقات العديدة المتعلقة بحقيقة القرآن وأسلوبه وموضوعه وترتيبه التنزيلي والمصحفي وبالأخطاء التي حفلت بها بعض الترجمات الإنجليزية له وما ترتب عليها من نتائج ، دعونا نقف برهة لنتأمل هذه التعليقات من المستشرقين .

لقد اتضح أن كل الكتاب غير المسلمين والذين قرأنا أعمالهم قد أنكروا الحقيقة الإسلامية من أن القرآن الكريم هو كلام الله ، سواء في ذلك الذين عاشوا في القرون الوسطى أو في العصر الحديث . ولهم في هذا الموقف بعض العذر ، فهم لم يعرفوا مطلقاً كتاباً ذا وحي إلهي بما في ذلك الأناجيل والتوراة .

وإنه لمن أعجب العجب أن ترى الملايين من الغرب يؤمنون بما تحتويه رسالات سماوية بشّر بها الأنبياء المذكورون في العهد القديم ، بل ويؤمنون بأصوات سمعت ورؤى ذكرها بعض القديسين أمثال (القديس بول) (St. Paul) و(القديس فرانسيس الأسيسيني)[1] (St. Francis of Assisi) والقديسة (جوان الأركية)[2] (Joan of Arc)[3] ، وفي نفس الوقت تجدهم ينكرون كل الإنكار الأصل الإلهي للقرآن بدون أي تردد أو تفكير .

(١) الأسيسيني : نسبة إلى (Assisi) وهي مدينة بإيطاليا (المترجم) .

(٢) اسمها بالفرنسية (Jeanne d'Arc) وعاشت في فرنسا في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، وقادت الفرنسيين وانتصرت على الإنجليز وحررت مدينة (أورل) إبان حرب السنين المائة ، وأسرها البرجنديون بعد ذلك وحوكمت وماتت حرقاً عام ١٤٣١ . (المترجم) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Champion and Short) ، وكذلك تحت (Chesterton) وفي المرجع انظر ص ٦٣ ، وأيضاً انظر تحت (Caiger) .

ويبقى الآن أن نقدم تقريراً عن طريقة تقديم الوصايا العشر ـ تلك التى أوصى بها الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام فى العهد القديم :

« وقال الرب لموسى اصعد إلىّ إلى الجبل وكن هناك ، فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعلمهم » (سفر الخروج ـ الإصحاح الرابع والعشرون ١٢)

والقرآن يدعونا لأن نتأمل نفس هذه الحقيقة من خلال الآيات :

﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ [الأنعام آية ٩١ـ٩٢]

أو ليس الله بقادر على أن ينزل القرآن على قلب رسوله محمد ﷺ كما أنزل الألواح إلى موسى عليه السلام ؟

ومن المعروف أنه لا يمكننا أن نجد النسخة الأصلية ـ باللغة الأولى للوصايا والقوانين التى أنزلها الله على موسى ، وغاية ما نملكه عبارة عن ترجمات لترجمات ، تحوى كل منها تغيرات ناتجة عن النقل عبر القرون، بعد أن ضاعت واختفت النسخة الأصلية فلم تعد فى متناول أيدى الناس منذ دهور .

وعلى الجانب الآخر ، بقى القرآن ـ كما ذكرنا قبلا ـ ثابتاً محفوظاً بكلماته وحروفه لم يتغير منه حرف مطلقاً ؛ نعم ؛ لقد بقى القرآن دائماً معروضاً للدراسة ، وللتحقق من صحة كل ما جاء فيه ، حتى صار من الواجب أن يتأمل الإنسان هذه المعجزة ، وهى سلامة القرآن وبقاؤه كما هو ، طوال هذه الحقبة الطويلة ، على الرغم من

حدوث قفزات وتغيرات رهيبة فى النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتى أثرت فى كثير من البلدان والأمم واللغات .

والقارئ الإنجليزى لا يقرأ القرآن إلا من خلال التراجم التى أعطينا أمثلة لها ، مشيرين إلى أنه لـمّا توجد حتى الآن ترجمة أعطت القران قدره ، لدرجة أن بعض الترجمات الإنجليزية ، والتى بلغت شهرة واسعة لعقود من الزمن ، كانت منقولة للمرة الثانية ، أو حتى للمرة الثالثة ، فنراها قد نقلت من العربية إلى الإنجليزية مروراً باللاتينية ، أو تترجم إلى اللاتينية ثم الفرنسية ثم إلى الإنجليزية بعد ذلك فيما عدا تلك الترجمات التى نقلت مباشرة عن العربية ، مثل تراجم محمد يوسف على ومحمد أسد ، و(أربرى) (Arberry) و(بيكثال) (Pickhall) ، ولكنها للأسف لم تتعد أن تكون صوراً أُحاديّة اللون لطبيعة ملونة غنية تفوق الوصف ، ومن ثمّ لا يكفى الإنسان أَن يقرأ ترجمة أو ترجمتين ليقدر القرآن حق قدره ، ويرى بنفسه ثراء أفكاره وتأثيره الساحر على العقل والعاطفة والخيال .

وكما رأينا سابقاً ؛ إن كل التعليقات التى نشرت فى الغرب كانت من أعمال مستشرقين لم يلموا بالقرآن بصورة جيدة ، وهو ما أدى إلى كثير من الخلط والغلط،فنرى أن غالبية المستشرقين قد اتهموا محمداً ﷺ بوضع القرآن وتأليفه بنفسه أو بمساعدةمن غيره،والذين عاشوا منذ حوالى نصف قرن مثل(منزس Menezes) و(جاردنر Gardner) يرون أن النبى عليه الصلاة والسلام قد لقى المساعدة من اليهود والنصارى ، وهو بالطبع ما ثبت خطؤه ، فى حين استنتج بعض الكتّاب الذين جاءوا بعد ذلك (كأندرسون Anderson) و(وات Watt) أن القرآن الكريم هو حصيلة تفكير الرسول عليه الصلاة والسلام الحالم ، وتصوره الخلاق ، وهو ما استطعنا دحضه بالحقيقة التى تملى : أنه لا يمكن لبشر أن يأتى بمثل هذا القرآن، ولو كان ذا تفكير حالم ، أوتصور خلاّق ، أوأى شىء آخر.

ثم يصل (نولدكه) (Noldeke) بنا إلى فهم مشوش عن القرآن، وقد اتبعه آخرون فى أوائل هذا القرن ومنهم (رودويل) (Rodwell) ، وبدلاً من أن يحاولوا الوصول إلى عمق محتواه قرروا أن يعيدوا ترتيب سوره . ولا شك فى أننا نعرف الآن تمام المعرفة أن الترتيب المصحفى للسور يختلف تماماً عن الترتيب التنزيلى لها .

وقد تم تنفيذ الترتيب المصحفى للسور بتوقيف من النبى ﷺ ؛ وبه استمسك المسلمون .

ثم نضيف أنه لا يمكن الأخذ بالشكل الرياضى للحروف الأبجدية الموجودة فى القرآن إلا بالطريقة التى هو مرتب بها الآن .

ولا ريب أن كل ما لدى هؤلاء الكتّاب الذين حاولوا إعادة ترتيب السور واتبعوا فرضيات ونظريات أودت بهم إلى قرار سحيق ـ كل ما لديهم هو الرفض الأصم لكل من الترتيب المصحفى والترتيب التنزيلى الصحيحين ، وهو ما جعلهم فى سعيهم لإعادة الترتيب يبدون وهم يبتعدون كل البعد عن طريق الفهم الحقيقى .

ومن المؤسف حقاً رؤيتنا للأعداد الهائلة من القراء الذين أصابتهم حالة من الحيرة لدى اصطدامهم بهذه الكتلة الهائلة من الانتقادات والاتهامات التى حجبت بالفعل حقائق القرآن ، حيث إن الهجوم على القرآن وعلى الإسلام ككل إبان القرون الوسطى لا يزال يتردد صداه منذ ذلك الحين ، وحتى إنه ليبدو محزنا أن كثيرين من الكتّاب الغربيين وجدوا من الأيسر عليهم أن يكرروا نفس الأقاويل والظنون الشائعة بدلا من أن يخوضوا فى دراسة علمية جادة تعتمد على مراجع ملائمة ، وكافية لتغطية جميع الأحداث وحيثياتها وخلفياتها . ولو قاموا بالدراسات العلمية المتأنية لكان ذلك أكثر إنصافاً لقرائهم ولأنفسهم ، وفوق ذلك للحقيقة التى يتظاهرون بالبحث عنها .

والآن ؛ وبعد أن انصب اهتمامنا فى أوائل المناقشة على موضوع مصدر القرآن وتعبيره وأسلوبه الأدبى وتاريخ كتابته وتنظيم السور فيه ونسخه وترجماته ، حان الوقت لكى ننزل فى جولة بين الموضوعات البارزة فى القرآن ، وبخاصة تلك التى لاقت اهتماماً لدى الغربيين ، فالقرآن كما ذكرنا قبلا يجسد روح الإسلام الذى هو الطريقة الصحيحة والمكملة والشاملة للحياة ، على عكس ما غرسته الأديان الأخرى فى نفوس الناس من ملل وعشوائية لا منطقية .

لذلك ففى الجزء الثانى من هذا الكتاب سوف نستعرض بإيجاز المفهوم القرآنى عن الله سبحانه وتعالى ، وعن الدستور الأخلاقى ، ومفهوم القضاء والقدر ، ثم نتعرض أيضاً لانطباعات القرآن حول العالم الغيبى .

* * *

الباب الثاني

الفصل التاسع

المفهوم القرآنى عن الله سبحانه وتعالى

ربما يتصور رجل الشارع فى الغرب أن الله هو مجرد معبود اتخذه محمد ﷺ وأتباعه ، بيد أن الإسلام يعلن أنه لا شىء كمثل الإله الواحد الحقيقى ، الذى خلق الكون وحفظه ، والذى أرسل رسالات الهداية والراحة النفسية رحمة ورأفة ببنى الإنسان ، ثم يحاسبهم فى الآخرة على ما ارتكبوا من أعمال بعدله المطلق الرحيم .

وقاموس أوكسفورد والموسوعة البريطانية يترجمان كلمة (الله) على أنها تلك اللفظة العربية التى يستعملها المسلمون من كل الجنسيات وصفاً للإله الواحد الحقيقى ، فكلمة (الله) هى كلمة فريدة لا يمكن ترجمتها كما لا يمكن الاشتقاق منها ، ذلك أنها تحمل فى طياتها كل صفات الكمال والجمال فى أبهى صورها ، ولا ترمز لشىء إلا إلى الرب الواحد المتفرد. وقد نرى أن الكلمة الإنجليزية (God) ـ وتعنى (إله) ـ لا تعطى نفس معنى كلمة (الله) ، مع أن الأخيرة ليست شائعة ، ونعترف بعدم شيوعها رغم أننا نقر بأنها الكلمة المناسبة التى تعبر عن التفرد والامتياز ، ذلك أن كلمة (الله) لا يمكن جمعها ولا تأنيثها ، فى حين يمكن ذلك لكلمة (God) التى تنقلب إلى جمع فتصبح (Gods) وتؤنث على (Goddess)[1] .

وحدانية الله وصفاته :

يعد التصور القرآنى عن وحدة الله معجزاً ، وهو ما يبدو بارزاً عند اللجوء إلى تحكيم المنطق الحقيقى والذهن النقى ، فى حين يتضاءل الشرك بجانب هذه الحقيقة .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Doi)

فصفات الله بطبيعة الحال هى الأعلى والأعظم لدى أى تصور لناحية تتعلق بكل صفات الكمال . فهى تظهر فى القرآن بصورة مهيبة متمثلة فى أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، تلك الصورة التى لا يمكن ترجمة جلالها البادى فى اللغة العربية إلى أية لغة أخرى بأى درجة من الدقة .

وقد تمت مناقشة موضوع وحدانية الله فى سور كثيرة من القرآن ، منها هذه السورة التى نعرفها جميعاً :

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد . لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [الإخلاص آية ١ ـ ٤]

كما جاء ذكر صفاته تعالى وذكر حقيقة استحالة وجود شركاء له فى سور عديدة أيضاً :

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾
[البقرة آية ٢٥٥]

وكذلك نستخرج من السور : البقرة وآل عمران وهود وفاطر والطور والحشر والطلاق والبروج بعضاً من أسماء الله الحسنى فهو الله الرحمن الرحيم المهيمن القدوس الحفيظ الوهاب السلام الهادى المعطى العظيم القوى الجليل الرؤوف الودود الحكيم الكريم الغنى الغفار الصبور المقتدر القادر السميع البصير العليم .

ولقد ذكر الأستاذ عبد العاطى[1] : « يوجد العديد من الوسائل التى نعرف بها الله تعالى ، بل وتوجد أشياء كثيرة تدل عليه » ، ولكننا نرى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H. Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

بين أيدينا أن العالم يفتح كتباً ليقرأ عن الله ، ومع أن الله ظاهر بذاته ، فقد عرّف الإنسان بوجوده سبحانه من خلال الرسالات والرسل والأنبياء الذين أرسلهم إلى كل البشر ، وعليه فلو أن الناس ارتدوا إلى الفطرة وسمعوا كلام رسل الله ، وقرأوا وحيه تعالى ـ لو فعلوا هذا لأمكنهم حينئذ أن يصلوا إلى ما يشفى غلّتهم من معرفة الله وصفاته .

أما المستشرقون ؛ فإلى جانب تلك الطائفة منهم التى أبدت إعجابها الكبير واستحسانها للمفهوم القرآنى لوجود الله ـ ظهرت طائفة أخرى قد أثقل كاهلها الفهم الخاطئ كما سنرى فى الصفحات القادمة، وظهرت مجموعة من الملاحدة الذين يسمون أنفسهم بالعلميين الذين افتخروا بإنكارهم لوجود الله ، وزعموا أن الكون وليد ظاهرة عشوائية صدفية ولا أكثر من ذلك .

ونعلم جميعاً أن ذكاء الإنسان واستعداده القوى لأن يستنبط ويتعلم ويكتشف هما اللذان يرفعانه فوق عالم الحيوان والنبات والجماد ، ويؤهلانه لينظر فى الكون مفكراً فى الله وصفاته ، لذا ؛ وبالنظر فى واحدة من الظواهر الطبيعية التى تحوط الإنسان يجد نفسه محاصراً بسؤال هو : لماذا ؟؟

ولنأخذ ظاهرة من تلك الظواهر اللانهائية ، ولنتصور كيفية دوران هذا الكوكب الذى نعيش عليه حول محوره بهذه السرعة الهائلة الانسيابية الثابتة وبهذا الأداء الرائع الذى لم نشعر معه ـ حتى الآن ـ بأى خلل أو اهتزاز ، فكيف تم اتزانه بهذه الدقة مع ضخامة حجمه ؟ ثم لنعقد مقارنة بسيطة ، فنسأل : كم عدد عجلات وإطارات كل من السيارات والشاحنات والدراجات وغيرها التى تم تصنيعها منذ بداية هذا القرن ؟ لعله يتجاوز مئات الملايين بكل الأحجام والأوزان والتصميمات ، ونقول بذلك : إن الصناعة قد بلغت شأوا كبيراً من التقدم والإبداع ، وذلك لوجود فرق كثيرة من المهندسين والفنيين الذين يملكون الذكاء

والعلم والخبرة المتوارثة ، والذين تتعاون فرقهم فيما بينها للتصميم وللكشف عن صلاحية كل المنتجات والآلات والأدوات اللازمة لعملية التصنيع ، ومن ثم لا نجد أن عجلة واحدة تم إنتاجها بلا وسائل وآلات ، أى نتيجة صدفة عشوائية طبقاً لنظرية الملاحدة . بل نلاحظ أن كل ذلك التقدم فى الصناعة ، ورغم كل الإمكانيات ، يفرض أن نضع قطعة من الرصاص لكل عجلة ، ونثبتها على حافتها المعدنية فى نقطة معينة بها ، من أجل منع تذبذبها وارتعاشها عند دورانها بسرعات عالية .

فإن اتبع الإنسان مقارنة منطقية بسيطة يسأل نفسه : ألا تحتاج الأرض لذكاء أكبر بكثير وإلى قوة أعظم لتصميمها وصنعها ؟ إن كتلتها وحجمها ومدارها حول الشمس وتركيب قشرتها وسمكها وتركيب غلافها الجوى وكثافته ، وكذلك دوران قمر واحد حولها بسرعة ثابتة ؛ كل هذا بلا شك جعلها مناسبة للحياة فوقها للدرجة التى نتمتع بها ، ألا تحتاج هذه الخصائص والمواصفات لتخطيط وتصميم وقوة ليتم تحقيقها ؟ وهل يمكن أن يكون هذا بفعل ظاهرة عشوائية لا شأن لأحد بها ؟ ألا يوجد خالق لها يملك صفات عظمى ؟

مزاعم المستشرقين حول وحدة الله :

لقد أتى بعض الكتّاب الغربيين بافتراض خاطئ يقول بأن المسلمين قدسوا محمداً ﷺ على أنه إله ، ودعوا بعد ذلك المسلمين خطأ بأنهم (المحمديون) (Mohammedans)[(1)] ، ولكن بتطور وسائل النقل والاتصال بدأت الحقائق والمعلومات المتعلقة بالإسلام تصل إلى الغرب ، وأدانت بالتالى هذا المبدأ الخاطئ الذى بات هذه الأيام عاراً على أى شخص متعلم أن يصدقه مهما كانت خلفياته الثقافية .

ولا ريب أن عدداً من المعلقين الغربيين منذ القرن السابع عشر قد

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) وبالمرجع انظر ص ١٠ .

أعجبوا بالمفهوم القرآنى لوحدة الخالق ، كما دافع عنه القرآن ، ففى سنة (١٦٩٨) جاء على لسان (الأب ماراكسى) (Father Maracci) : «تعتبر أية محاولة لإثبات أن رب محمد يختلف عن الرب الحقيقى ، ـ هى من باب تضييع الوقت »[١] ، ثم أتى (جيب) (Gibb) فى عصرنا بفكرة أن القرآن يعتبر هو السجل والأداة فى عملية بناء الفكر الدينى فقال : « للعملية جانبان ؛ الأول يحوى اقتلاعاً لكل المذاهب المصاحبة لأى تقديس أو اعتقاد ، أما الثانى فيحوى عملية إحلال لمفهوم الوحدة الإيجابى للكون ولكل شىء فيه »[٢] ، أما المؤرخ والفيلسوف (هـ. جـ. ويلز H. G. Wells) فقد أعجب كثيراً بالتجرد الكامل من « كل المعتقدات اللاهوتية ومن التقرب عن طريق الكاهن والكنيسة »[٣] .

وعلى النقيض تماماً وصف (زويمر) (Zwemer) مفهوم القرآن عن وجود الله بعبارة : « توحيد الإسلام العقيم »[٤] ، ووصف (أندرسون) (Anderson) الله بأنه إله المسلمين فقال : « إن أحسن حالات تقبل هذه الحقيقة ، وهى حقيقة وحدانية الله وجبروته ـ هى عندما يكون الإنسان فى الصحراء بشساعتها وجلالها وقسوتها وغموضها، فيأتيه عندئذ إحساس بتفاهته وحقارته ، فيبدأ فى الخضوع والتسليم »[٥] ، هذا ولا شك فى أن شعور الإنسان بتفاهته وحقارته وضآلته قد تضخم هذه الأيام بشكل هائل ، إثر ارتياده أعماق المحيطات واختراقه أجواز الفضاء ، فرأى الكيفيات الساحرة والأخّاذة للحياة فى قيعان المحيطات ، كما وجد الفراغ عندما انقشع الغلاف الجوى عنه معرضا إياه لخطورة النيازك والشهب والإشعاع ، وأدرك أن عمره قد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) فى مقدمة المرجع .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (الحضارة الإسلامية) ص ١٨٨ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) ج ١ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٦ .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Zwemer) كتاب (المسيح الإسلامى) ص ١٨٨
(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٧٩ .

يوازى فترة تافهة للغاية بالمقارنة إلى الزمن اللازم للسفر إلى بعض الكواكب والنجوم البعيدة ، ومعلوم أن الرحلات الفضائية التى تجرى إلى القمر أو كوكب الزهرة أو المشترى بالنسبة لما وراء هذه الكواكب من أبعاد شاسعة للفضاء الزاخر بالنجوم والمجرات ـ يمكن تشبيهها برحلات بحرية في زوارق قرب شاطئ المحيط . بل إن الإنسان رغم ما له من علم لم يستطع أن يتصور واقعياً كيف وأين تكون الجدود لهذا الفضاء ، ولكنه أدرك الأخطار التى تحدق به فيه ، أو فى أعالى البحار حينما تصبح أعتى السفن تقنية وتصميماً مهددة بالاضطراب واليأس فى خضم أمواجها العاتية التى تثور بفعل العواصف ، فيهرع الإنسان إلى ربه ويتضرع له تماماً كذلك التى ابتلعته الصحراء باتساعها ، وشعر أنه قد ضل الطريق فيها .

وليس شرطاً للإنسان بعقله المنطقى أن يجوب الفضاء الخارجى أو أن يغوص فى قاع المحيطات ، ولكن يكفيه أن يتأمل فى ذرات المادة فى أى من حالاتها الثلاث : الصلبة أو السائلة أو الغازية ، وينظر إلى الكتروناتها وجسيماتها وكيفية تصرفها وفقاً للتغيرات الطبيعية والكيميائية... ، يكفيه هذا حتى يجد الدليل القاطع على وجود الله وعلى صفاته سبحانه ، وإن أصر على طلب دليل آخر فما عليه إلا أن يتفكر فى ذلك الأداء العجيب لجسم الإنسان رغم تعقيد جهازه العصبى والتحكمى ، وجهازه التنفسى ودورة دمه وجهازه الهضمى ، وذلك ليذعن لوحدانية الله تعالى ولصفاته العليا .

ويرينا (دانيال)[1] (Daniel) و(منيزس) (Menezes) بعض الخلط المتعلق بموضوع الوحدانية فى الإسلام ، وخاصة (مينزس) ذلك الذى انتقد تقديس الرسول ﷺ للكعبة وللحجر الأسود الموجود فى أحد أركانها ، وليس ضمن محتوياتها كما هو مدون خطأ فى قاموس

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٤٨ .

أوكسفورد ، فيعلن : « إن كل هذا يجعلنا نشك متسائلين هل كان محمد يحارب الوثنية كلها أو أنه اكتفى بمحاربة جزء منها ، بحيث لا يتعارض هذا مع ميله وولعه الشخصى ؟ »[1] .

ولكننا نوضح هنا أن الكعبة المشرفة قد بناها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، لإقامة الصلاة توحيداً لله تعالى ، ويعلمنا الإسلام أن إبراهيم قد وضع الحجر الأسود بيديه فى المكان الذى لا يزال يحتله إلى يومنا هذا ، كواحد من أحجار الركن فى الكعبة . ونسأل : ألم يكن إبراهيم عليه السلام أول مثال يحتذى به كل مسلم ورع مخلص ؟ إنه ولاشك كان شجاعاً للغاية حتى فى صباه عندما واجه ممارسة قومه لعبادة الأوثان ، وكان منهم أبوه ، ثم ترك وطنه وأرضه قاصداً أرضاً مقفرة تسليماً وإذعاناً لإرادة الله ، مصطحباً معه زوجه وطفله ، ثم أقدم على ذبح ابنه وفق أمر الله تعالى له ، مقدماً نموذجاً لكيفية الطاعة .

فالكعبة فى الإسلام ليست لها أية علاقة بالخرافة ، وإنما علاقتها وطيدة مع دين ينبض به قلب كل مؤمن ، فهى أول مكان وضع للناس وخصص لعبادة الله وحده ، ومن ثم فهى الجديرة بأن يتوجه إليها مباشرة كل المسلمين ، قبلة لهم فى صلاتهم .

ثم نجد بعد ذلك كثيراً من النقاد من أمثال (بل) (Bell) و(ستوبارت) (Stobart) و(وات)[2] (Wall) يزعمون أن مفهوم الوحدانية الذى جاء به الإسلام هو منقول أصلاً عن لليهود والنصارى !!

والحقيقة أن هذا المفهوم قد ظل ثابتاً لم يتغير فى الإسلام منذ أن بشر به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعاً السلام ، حيث لا يوجد

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ص ١١٦ ، وكذلك انظر تحت (Tritton) وفى المرجع انظر ص ٢٠ ، وأيضاً انظر تحت (Stobart) وفى المرجع انظر ص ٥٢ ، وتحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٦١ .

أى جديد يمكن أن يستحدث فى جوهر الوحدانية المتمثلة فى رسالة الله تعالى إلى خلقه ، كما أنه لا يمكن تصور أن يتغير هذا الجوهر ، وهو الحقيقة الكونية الثابتة مع الزمان والمكان، ولقد ذكر المستشرق (جيب) (Gibb) : « إذا كان المقصود بالتجديد التوصل إلى مجموعة جديدة ومبتكرة من الأفكار عن الله وعن الإنسانية والعلاقة بينهما والمعنى الروحى للكون فإن الابتكار لا قيمة له ولا مكان فى دين التوحيد »[1] .

إن ما جاء به محمد ﷺ لبعيد كل البعد عن أن يكون عقيدة جديدة ، ويظهر جلياً حينما أعلن أنه قد أعاد بناء دين التوحيد الذى جاء به الأنبياء من قبله وجاءت به كتبهم :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة آية ١٣٦]

وعليه يصعب وصف الإسلام بأنه من إبداع اليهود والنصارى ، ولعله من المناسب أن نسرد هنا بعض المقاطع من نسخ التوراة والإنجيل الحديثة والتى تتعلق بمفهوم الوحدانية .

من العهد القديم والعهد الجديد :

لقد علق (أندرسون) (Anderson) قائلاً : « لقد ثبت لدى قراءتنا للعهد القديم وجود وثنية مرتبطة بكل من مملكتى إسرائيل ويهوذا حيث عرفنا أن الملك منسى[2] (King Manasseh)[3] « قد نصب المذابح التى يذبح فيها لآلهة أخرى فى كل معبد للرب ، حتى إن

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) ص ٦٩ .

(٢) هو ملك من ملوك مملكة (يهوذا) واشتهر عنه أنه كان يأتى بكل ما يغضب الرب وتم أسره من قبل البابليين فاستجار بالرب الواحد فعاد إلى أورشليم وأمر الناس أن يذبحوا لله (المترجم)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٢٦

الشعب كله كان توّاقاً للأخذ بهذه الوثنيات ، ولم ينقطع عنها إلا بعد السبى البابلى عندما عادت نسبة ضئيلة منه إلى فلسطين ... عندها فقط انقطعوا عن عبادة الإله (بعل) وآلهة أخرى » ، وقد جاء ذكر ذلك فى سفر الملوك الثانى فى الإصحاح الحادى والعشرين وفى سفر أخبار الأيام الثانى فى الإصحاح الثالث والثلاثين .

وجاء فى سفر الخروج أن الله قد جعل موسى رباً لفرعون : « فقال الرب لموسى انظر ، أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك » (الخروج ـ الإصحاح السابع ـ١) .

ونجد كذلك أن الله يوصف أحياناً بأنه (إله العبرانيين) وحدهم دون سائر البشر ، كما نلاحظ أن تمثيل عملية تعدد الآلهة قد ظهر بصورة صارخة فى سفر (إرميا) : « لأنه على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا » (سفر إرميا ـ الإصحاح الثانى ٢٨) .

أما عن تعاليم السيد المسيح التى جاء ذكرها فى الأناجيل الأربعة فإننا نجد أنها لم تؤيد أبداً أى شيء مما جاء به الثالوث المقدس[1] . ونحن نعلم أن كلا من المصريين والرومان اعتقدوا فى بعض أنواع الشرك قبل المسيح وزاردشت[2] بزمن كبير ، وبعد أن استولى اليونانيون على مصر وأصبحت الإسكندرية مركز الحياة الدينية للعالم الإغريقى ككل ، ظهر إلى ساحة العبادة والتقديس ثالوث من الآلهة يتكون من سيرابيس وإيزيس وحورس ، بيد أنها لم تتخذ على أنها ثلاثة آلهة مستقلة وإنما على أنها ثلاثة أشكال لإله واحد ، وللعلم ، سيرابيس هذا تم تعريفه وحده على أنه ثلاثة هم زيوس إله اليونان وجوبيتر إله الرومان ثم إله

(١) الثالوث المقدس هو الأب والابن والروح القدس (المترجم) .

(٢) زرادشت هو نبى فارس الذى بشر بالوحدانية ودعا لها فى مجتمع كان مملوءاً بالشرك وبعبادة آلهة كثيرة . (المترجم) .

الشمس عند الفرس[١] .

وحسما لقضية حقيقة المسيح الأحادية أو الثنائية بالنسبة إلى الرب ، اجتمع مجمع نيقية عام (٣٢٥) ميلادية ليوقفوا النزاع الذى نشب بين الطوائف المسيحية ، حيث تعتبر حقيقة عيسى عليه السلام من أهم الموضوعات التى تشغل بال المفكرين فى العالم المسيحى[٢] ، ونادراً ما يطلع علينا موسم نشر إلا وقد أخرجت المطابع أدلة جديدة فحواها يؤيد أن يسوع الناصرة ليس بابن لله ، كذلك خرجت علينا لنا مؤخراً ضمن النظريات التى تبعث على الأسف نظرية تقول : إن المسيح لم يكنٍ سوى ثائر يهودى تم استئصال شأفته ، أو أنه كان رمزاً لعبادة هلوسية فطرية ـ نسبة إلى الفطر ـ والآن يظهر بروفيسور بجامعة كولومبيا ليعلن نظرية فوق الاحتمال منطوقها هو : « أن عيسى كان مشعوذاً استخدم طقوس تعميد سرية »[٣] .

ولا شك فى أنه من المستحيل أن نتصور أن النبى عيسى عليه السلام قد أخبر حوارييه ولو لمرة واحدة أن يدخلوا فى دوامة هذا الصراع الشديد حول طبيعته كشخص .

تعليقات المستشرقين حول صفات الله تعالى :

كان (أربرى) (Arberry) من ضمن أولئك الذين أبدوا إعجابهم بما للإسلام من فكر نقى عن الإله ، فقال : « هو واحد فرد ثابت خالد ولا شىء باق إلاهو ولا إله معه ، كما أنه ليس جسماً ولا شكلاً ولا تكويناً ولا شخصاً ولا عنصراً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يمكن أن يسعه فضاء ، ولا يؤثر فيه زمن ، ثم إنه لن يكف عن أن يكون

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (M. Ali) وفى المرجع انظر ص ٨٤ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Galwash)
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Newsweek) عدد ١٩٧٣/٦/٤ ص ٥٤ .

أبدياً ، إذ إنه هو المحيط بكل شيء ، ولا شيء باق مثله »[1] .

وعلى الرغم من أن بعض الدارسين مثل (هويز) (Hughes) احترموا « المفهوم الإسلامي عن الطبيعة الإلهية ، حيث إنه يثق بقدرة الإله ثقة متحمسة كبيرة »[2] ، واحترموا قول المسلمين في صلاتهم : ﴿ سبحان ربي العظيم ﴾ إلا أن هناك ناقداً يدعي (س. د. ديل)[3] (C.D. Dale) زعم أن « عدم اتساع الإسلام لأن يحتضن مفهوم قدسية الإله يعد من بين خصائص الإسلام السيئة » .

والمسلمون يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يختلف عن الإنسان اختلافاً لا نهاية له ، فالله هو الخالق ، والإنسان مخلوق ، هذا على العكس من اعتقاد أهل الكتاب في الإنسان أنه ابن الله[4] ، ووفق ما جاء به (جيردنر) (Gairdner) من أن « الإسلام قد صان وحدانية الله وعظمته وقوته ولكن ذلك كان على حساب حرمانه من الحب والتقديس» ، ومضى يعلن بقوة : « إن استحالة حب الله أو الوئام معه جاءت من الطريقة الشكلية والرسمية الواضحة والواقعية الموجودة في دين المسلمين ، ولنسأل ؛ كيف يمكن لله مع هذا كله وهو المختلف كلية عن الإنسان والبعيد عنه أن يصل إليه ؟ »[5] .

ثم يؤكد زعم تجديفي آخر ـ وهو بالطبع بعيد كل البعد عن مفاهيم المسلمين ـ أن تصور المسلمين لله تعالى هو : « أنه ذو النفوذ والسلطة النزوية ، وأنه بهذه الضخامة والقوة والكيان غير المسئول لا يمكن لشيء آخر أن يتجاوب معه ، ولا يستطيع الإنسان أن يبدل ولو جزءاً

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry and Landau) ص ١٨٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Hughes) وفي المرجع انظر ص ٦ ، ص ١٠٨ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Glubb) وفي المرجع انظر ص ١٢٤ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وفيه انظر ص ٤٧ ، وكذا تحت (Zaehner) وكذا تحت (Macdonald)

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفي المرجع انظر ص ١٥٠ ـ ١٥٥ .

صغيراً جداً من نصيبه المقدور ، ولقد كان تمثل محمد لربه أنه ذلك الإله المرعب الذى لا تفهم تصرفاته المبهمة ، والذى يكمن بصورة أبدية فى كل شيء مفزع وفظيع على هذه الأرض ـ ولم يكن تصوره له على أنه اللطيف الرحيم »[1] . هذه المزاعم التى أتى بها (بيثمان) (Bethman) و(ديل) (Dale) والتى تشير إلى موضوع افتقار المفهوم الإسلامى عن الإله إلى الحب والتقديس ـ لا مبرر لها ، لوجود تناقض شديد بين الوصف القرآنى لله تعالى وبين وصفه بصفات محددة فى كتب أخرى ، فنحن نقرأ مثلاً فى العهد القديم عن إله يمشى فى الجنة بين الأشجار ، وعن آدم وحواء يختبئان منه لكى لا يراهما وهو ما جاء فى (سفر التكوين ـ الإصحاح الثالث ٨ ـ١٠) وفى نفس السفر ولكن فى (الإصحاح الحادى والعشرين) نرى الرب يوصف بأنه يتنسم رائحة الرضا ويندم من قلبه على إيذائه للإنسان ، ثم نرى موسى يمتدح الرب فى (سفر الخروج) بقوله : « الرب رجل الحرب » (الخروج ـ الإصحاح الخامس عشر ـ٣) ، ثم يوبخه بعد ذلك على غضبه الجبار من شعبه ويسأله أن يندم متذكراً عهده لإبراهيم وإسحاق ويعقوب فى (سفر الخروج ـ الإصحاح الثانى والثلاثين ١٠ـ١٤) ، كما نقرأ فى سفر الخروج أيضاً : « لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، واستراح فى اليوم السابع » (سفر الخروج ـ الإصحاح العشرون ـ ١١) ، كذلك لقد وصف الرب فى سفر (نحميا) على أنه « العظيم الموهوب » (نحميا ـ الإصحاح الرابع ـ١٤) .

ولقد قمنا باقتباس هذه المقاطع التى لها صلة بالموضوع من نسخ متداولة الآن فعلاً للعهد القديم ، وفيها يظهر أن الصورة المجسمة التى يمثل بها الإله تشابه تماماً تلك الممثلة لجوبيتر ـ وهو أبو الآلهة عند

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Draycott) وفى المرجع انظر ص ١٣ ، وكذلك تحت (Bethman)

اليونانيين الوثنيين ـ وهو ينزل إلى الأرض ليرى بنفسه كيف تسير الأمور عليها[1] .

أما (أندرسون)(Anderson) و(زويمر) (Zwemer) و(لويس) (Lewis) فقد أشبعوا المفهوم المسيحى عن الإله دراسة وتمحيصاً ، فعلق (أندرسون) : « لقد نزل الإله الابن إلى الأرض وبعث نفسه إلى الناس وأعطاهم الخلاص والحياة التى كلفت الرب حياته »[2] ، وجاء فى إحدى عظات (الأب جريجورى) (Pope Gregory) : « إن الرب يتكلم مرة واحدة فقط ولا يكرر نفسه أو يجيب على أسئلة منفردة بأجوبة منفردة »[3] .

ثم أتانا (لويس) بتوضيح قال فيه : « من المؤكد أن الاعتقاد بالتجسد المتكرر للإله بحيث يتمثل صورة بشرية وفق الاحتياج يبدو بصورة جلية فى الديانة الهندوسية ، بيْد أنها تمثل فكرة تجسيد مختلفة تماماً عما نجده فى المسيحية ، وذلك لأن فكرة المسيحية عن التجسيد تملى بأن الرب يصبح رجلاً حقيقياً »[4] ، ويعرض صورة أخرى فيقول : « إن الأفكار المسيحية المتميزة تبدو الآن غريبة جداً على الناس فى العالم الغربى رغم سيادتها فى الماضى ، ذلك أن التجسيد وفكرة تكفير المسيح بآلامه عن خطايا البشر والفداء ، والطعام المقدس ، والخلاص من الخطيئة ، ناهيك عن غسل الإنسان فى دم الحمل ، فكلها كلمات لا تكاد تحمل أى معنى ليصل إلى عقول الأجيال الشابة اليوم ... لذلك فعلى المسيحى أن يبحث عن الفهم العميق لما ينادى به اليوم »[5] .

والآن ؛ وبعد أن استعرضنا المفهوم اليهودى المعاصر عن وجود الله ،

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Hyde)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ١٩٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ١٣٠ .

(٤)(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lewis) وفى المرجع انظر ص ١٨٤ ـ ١٩٤ .

وذلك من خلال العهد القديم وحده ، وتم كذلك سرد المفهوم المسيحى من خلال ما فى كتبهم ، فإن من الإنصاف بلا شك أن ننظر إلى أقوال المستشرقين غير المسلمين ، حول التصور الإسلامى عن الله تعالى فى ضوء آيات القرآن الكريم ، وينبغى التشديد أولاً على أن من المعتقدات الإسلامية الأساسية أن نسلم أن موسى وعيسى قد جاءهما الوحى الإلهى أمراً لهما بأن يبشرا بالوحدانية ، وهو ما فعله كل منهما بقمة الحماس والتفانى ، إلى آخر لحظة كتب أن يكون موجوداً فيها على الأرض .

﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم * قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم * لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾

[المائدة آية ١١٦ ـ ١٢٠]

﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من

الشاكرين * وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ [الأعراف آية ١٤٢ ـ ١٤٧]

لقد أعلن (فون جرونبوم) (Von Grunebaum) أن : « الإسلام لم يأت لإيجاد طقوس أو أسرار غامضة ، ولم يساعد على ذلك ، ولكنه بقي ذلك الدين الذى جوهره أن يرى الإنسان المذنب طريقه إلى الجنة بصورة عقلية ومنطقية ، بل وتقنية أيضاً ، فالإنسان هو الإنسان سواء عاقبته أو أثبته ، والرب لم يكن لينزل إلى الأرض ليرفع الإنسان بدلا منه، وهو ما يجعلنا فى الواقع نوقن بأنه ـ حتى يومنا هذا ـ لم يستطع مفهوم معاناة الرب فى مقابل مفاهيم الخطيئة الأولى والخلاص من الإثم أن يضارع ما جاء به الإسلام ، لما فى هذه المفاهيم من غموض ، وإبهام لا يسبر غورهما »[1] .

والإسلام ـ كما جاء على لسان كثير من الكتاب ـ يعتبر الإنسان بالطبيعة باقياً كإنسان سواء فعل الخير أو الشر ، بيْد أنه يمكنه أن يصبح أكثر شفافية وروحانية بإيمانه بربه ، وبأدائه للعمل الصالح ، وبمساعدة من الرؤوف الرحيم ـ فيصبح لديه عقل صاف،وقلب نقى،ومشاعر شفافة واضحة، على العكس تماماً من حالته عندما يفقد الدين،فتراه عندما يصر على اقتراف الشرور والآثام دون توبة أو ندم قد صار أكثر مادية وتعلقاً بالحياة الدنيا الأرضية ، وتزداد المسافة اتساعاً بينه وبين الطريق القويم .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Von Grunebaum) ص ١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Abdel - Ati) كتاب (Islam.in Focus)

وكما ذكرنا قبل ذلك : إن الله تعالى له الأسماء الحسنى ، وأنه عظيم المكانة والقدرة ، ولا حاجة به أن ينزل إلى الأرض ، ليتجلى للخلق فى صورة مادية ، وذلك ليميز الإنسان ويرفعه فوق آثامه ، فالله هو الذى خلق الإنسان كما جاء فى (سفر التكوين) ، بل وخلق الكون بأكمله، ثم صانهما وحفظهما ، ولم يعيه الخلق أو الحفظ ، فلم يحتج معهما إلى راحة ، وهو القادر أيضاً على أن يحيى الخلائق كلها بعد موتها .

﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ﴾
[الأحقاف آية ٣٣]

فلا يمكن للإنسان أن يتصور مدى علمه تعالى وقدرته ورحمته فى حدود مفاهيمه عن الزمان والمكان ، ذلك أنه يمكنه أن يصل إلى أى إنسان رجلا كان أو امرأة ، دون حاجة منه إلى أن يتصوره هابطاً عليه ، متشخصاً بأية صورة .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق آية ١٦]

﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم * هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى

الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾ [الحديد آية ١ ـ ٦]

يبين لنا إذن لدى النظر فى هذه الآيات مقدار الخطأ الذى سقط فيه (جيردنر) (Gairdner) عندما صرخ وقال : « كيف يستطيع الله البعيد عن الإنسان والمختلف عنه أن يصل إليه ؟ وما هى أداة الربط التى يشكلها ؟ »[١] ، مغفلاً تلك الحقيقة القائلة أن الله يستطيع الوصول إلى أى إنسان بسهولة واقتدار مع أنه مختلف عنه تماماً ، ذلك لأنه هو الذى خلقه وحفظه ، ويحفظه دائماً فى كل حالة ، ومن لحظة لأخرى .

ومن بين المخطئين من المستشرقين (بيثمان) (Bethman) و(درايكوت) (Draycott) و(أندرسون) (Anderson) و(ستوبارت) (Stobart) أولئك الذين وصفوا الله تعالى عندما حاولوا ذلك ـ بأنه «مبعد بالكلية عن مخلوقاته» ، ويقف (تريتون) (Tritton) ، ويا لها من مفاجأة ؛ ليعلن ـ وقد كان أستاذاً للغة العربية بإحدى جامعات بريطانيا ـ أن « الإله بعيد جداً بالنسبة لمسلمين كثيرين » [٢]، واستشهد على ذلك بآيات من القرآن لم يفهمها .

ولا ريب أن نظرية العدالة المطلقة المتمثلة فى قضاء الله ورحمته الواسعة وفى كرمه تعد من بديهيات الإسلام ، فكل فرد ـ سواء فى ذلك الرجل والمرأة ـ مسئول مسئولية مباشرة أمام الله عن عمله هو ، فلو كان عمله خيراً يثاب ويضاعف له فى الدنيا والآخرة ، أما لو اقترف سيئة فإنه لا يزال لديه الفرصة للندم وطلب المغفرة ، على العكس مما لو كانت السيئة نوعاً من الإصرار والخوض فى تحدى الله ، إنه حينئذ ينبغى أن يتوقع العقاب ، وهو ما نراه مسطوراً فى آيات كثيرة من القرآن الكريم :

﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ [النساء آية ٤٠]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ١٥٠ ـ ١٥٥ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Tritton) ص ٦٣ .

﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى* وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى ﴾

[النجم آية ٣٨ ـ ٤٢]

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ [الأنعام آية ١٦٠]

وعلى ذلك ، فعندما ارتكب آدم وحواء خطيئتهما وأكلا من الشجرة التى نهاهما الله عن الاقتراب منها ، كانت خطيئتهما وحدهما فقط هى التى ندما عليها ، ولكن الله الرحيم الكريم غفر لهما ذنبهما ، وأقر بعدله أن خطيئة آدم لن تكون فى أصل نشأته ، ومن ثم لن تكون الخطيئة الأولى الأصلية التى ينبغى على كل إنسان أن يبحث عن وسيلة للخلاص منها ، ذلك أن نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وسائر الأنبياء والرسل عليهم جميعاً السلام ـ مغمورون بالسعادة الأبدية ، وبحبّ الله تعالى ورحمته ونعمته ، لما أتوا من الأعمال الصالحة ، ولإيمانهم العظيم بربهم ، حتى إننا نقول : إن كلا منهم قد أوشك أن يضمن الخلاص والنجاة . وعليه فلا يمكن أن يحمل تبعة خطيئة آدم إلا آدم نفسه .

فمفاهيم أهل الكتاب الصعبة والعجيبة حول معاناة الرب وتضحيته بنفسه وتوبيخه لها وندمه ، كلها بعيدة كل البعد عن الإسلام ، وليس ذلك بسبب أنها مبهمة وغريبة ومخالفة لطريقة الإسلام فى التفكير ، وإنما لأنها تعتبر تجديفا .. إذ نتساءل : لماذا يعانى الله ؟ وما الأسباب الخارجة عن سطوته وتحكمه لتجعله يعاني ويضحي بنفسه ؟ إن الله تعالى بكرمه السابغ ورحمته الشاملة يغفر بصورة بدهية لأولئك الذين عصوه ثم تابوا من بعد ما عصوا ، واستغفروا لذنبهم ، أفلا يعد هذا دليلاً ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ على بطلان القول بأن الله يجب أن يضحى بنفسه فى سبيل أن يحرر جنس الإنسان من آثامه ، ليحملها بدلاً عنه ؟

يقول الله سبحانه : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما ﴾ [النساء آية ١١٠]

إن الإنسان عندما يندم ويؤنب نفسه ويوبخها لدى اقترافه لذنب ، لابد وأن يكون قد اقترفه إما بدون قصد أو بدون علم كاف ، أو بدون ضبط النفس أو بدون حكم صائب على الظروف والملابسات .. وعليه فعندما يقوم هذا الشخص ذو المعرفة المحدودة أو المندفع بعمل ما فإنه ـ رجلا كان أو امرأة ـ يكتشف أنه كان من الممكن أن يؤديه بصورة أحسن ، أو كان ينبغي ألا يقوم به على الإطلاق ، ولكن المسلمين لا يطبقون نظرية (اللاعصمة) الإنسانية هذه على الله تعالى ، وهو الذى يملك الحكمة والقدرة ، وله كل الصفات الحسنى اللامحدودة .

لقد زعم (بيثمان) (Bethman) وآخرون أن الرب من المنظور الإسلامى هو إله غير معروف !! فهو يستبد استبداداً شديداً ، إنه جبار غير مسئول لا حكم لأحد عليه ولا يمكن لأحد أن يغلبه ، ويكمن دائماً وراء كل سبب للتعنيف بالأرض وليس وراء الرحمة والشفقة بها[(١)] ، ولكننا لدى قراءتنا المتعمقة للقرآن الكريم، ولدى تأملنا فيه بذهن متفتح، نرى بوضوح مدى كذب هذه المزاعم .

فالحق تعالى قد أمرنا أن نتفكر فى كل شىء تقع عليه أعيننا ، وفى أنفسنا أيضاً :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾

[البقرة آية ١٦٤]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Stobart) ، وتحت (Anderson) ، وتحت (Gairdner) ، وكذلك تحت (Draycott) .

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ [البقرة آية ١٨٦]

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة آية ٢٥٧]

وتوضح الآيات السابقة بدون شك ، كآيات كثيرة فى القرآن ، مدى رعاية الله تعالى واهتمامه بالكون وبالإنسان ، ورحمته اللامتناهية به، وعلمه اللامحدود ، وعطفه الشامل عليه .

وسوف تبرز الآيات الآتية أدلة أخرى على رعاية الله وكرمه تجاه كل مؤمن .

فعلى لسان إبراهيم عليه السلام جاء : **﴿ الذى خلقنى فهو يهدين* والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾** [الشعراء آية ٧٨ ـ ٨٢]

وجاء كذلك : **﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾**

[النحل آية ٩٧]

فالمسلم إذن لا يقبل أن يتصور صفات الاستبداد ، والطغيان ، والشهوانية متمثلة فى ربه ، فهذا ليس إلا كفرا .

والإنسان عندما تأتيه أنعم الله وأفضاله فلا يعنى هذا بالضرورة أن تكون جزاء له على عمل صالح قام به ، وإنما قد تكون نوعاً من الاختبار والابتلاء ، هذا بالإضافة إلى أن العسر والشدة ربما يكونان عقاباً إلهياً ، أو لتذكيره بأساليبه الفاسدة فى حياته . وقد نجد مؤمنا جعله البلاء

أكثر نقاءاً وإخلاصاً فى دينه ، وهو ما نراه فى أمثلة عديدة من قصص أنبياء بنى إسرائيل (انظر سفر التكوين) .

وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ [الأنبياء آية ٣٥]

ومع ذلك فالإنسان يمكنه أن يتخلص من البلاء بالصلاة الضارعة ، حيث إن الله يتقبل الصلوات والتوسلات ، أما أولئك الذين ينقلبون متكبرين فلسوف يحرمون حتما من بعض رحمة الله وكرمه ، إن عاجلا أو آجلا ، ومع ذلك فرحمة الله وسعت كل شيء :

﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ [الأعراف آية ١٥٦]

﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ (الأعراف آية : ٥٦)

فيجب على الإنسان إذن أن يعلم أنه بمعرفته وقوته وبإدراكه الحسى محدود وقاصر من نواح كثيرة ، فهو لا يزال يكتشف مجاهيل فى المحيطات الموجودة على كوكب وجد هو عليه منذ ملايين الأجيال ، كما أنه لا يستطيع أن يزعم إحاطته العلمية الكاملة بأية ظاهرة طبيعية لأن حواسه ما زالت محدودة ومحصورة داخل قيد غامض ... ولكن على الرغم من وجود هذا القيد نجد بعضهم يلصق صفة التشخص بالله تعالى، وينكر عليه صفاته بأنه عز وجل يحكم الكون الذى خلقه ويحفظه بالصورة التى يريد .

ثم يأتى أناس ينكرون وجود الله وينسبون لأنفسهم السيادة على الكون الذى يعدونه مجرد ظاهرة صدفية عشوائية ، ونسأل : كيف يتجرأ الإنسان بمنظوره وهو يرى عجائب الخلق أن يحكم على أعمال الله ، ويزعم أنه تعالى مستبد وطاغية وشهوانى ؟

إن القرآن يعلّمنا أن الإنسان قد يتصور شيئاً الآن على أنه خير ، ولكنه ما يلبث أن يراه شراً ، والعكس كذلك ، وعليه فمن المؤكد أنه من غير المعقول أن نرى الإنسان ، وهو المحدود الإدراك ، يطالب الله تعالى ، وهو اللانهائى ، بأن يجعله ـ أى الإنسان ـ السيد والحكم ، زاعماً أن الله نزوى الطباع ـ وليس هذا إلا كفرا وجحوداً كما يرى المسلمون .

حب الله :

زعم بعض المستشرقين أن المفهوم القرآنى عن الإله ينقصه الحب والتقديس[1] ، ويظهر بطلان هذه المزاعم وسطحيتها فى ضوء الآيات القرآنية الكثيرة التى ترينا مدى اللطف والحب والرحمة والكرم والرعاية التى يفيضها الله تعالى على عباده المؤمنين ، فنجد فى آية كالآتية حجم الجود الإلهى عندما يضاعف ثوابه للمؤمنين من أجل أعمالهم الصالحة:

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ [الأنعام آية ١٦٠]

ونرى فى آية أخرى كيف يغفر الله تعالى ذنوب التائبين المتضرعين المتطلعين إلى عفوه :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾ [الزمر آية ٥٣ ـ ٥٦]

﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما ﴾ [النساء آية ١١٠]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) ، وكذلك تحت (Zaehner) .

وكذلك الذى يفعل الخير فإنه يجده مضاعفاً عند الله : ﴿ ... **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ [المزمل آية ٢٠]

فالله ـ الرحيم الكريم اللطيف ـ الذى يحب الإنسان ، كان كريماً معه عندما سخر الطبيعة وكل شيء فى السماء والأرض لخدمته .

﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ [إبراهيم آية ٣٢ ـ ٣٤]

فالقرآن يرينا أن حب الله للإنسان بلا حدود ، وهو يرشدنا إلى أن نحب الله ، ويضع أيدينا على الطريق ويرينا كيف نصل إلى أن يغمرنا حبه : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾ [آل عمران آية ٣١]

﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ [البقرة آية ١٩٥]

﴿... **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ [البقرة آية ٢٢٢]

﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾

[آل عمران آية ٧٦]

﴿ **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾

[المائدة آية ٤٢]

ثم تأتى الصورة المقابلة وهى أن الله لا يحب الكافرين الظالمين المتبجحين الذين يؤذون الخلق ويفسدون فى الأرض :

﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾
[آل عمران آية ٣٢]

﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾
[آل عمران آية ٥٧]

﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفا ﴾
[النساء آية ٥]

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾
[القصص آية ٧٧]

إن حب الله يملأ قلب المسلم ويجعله ينأى بنفسه بعيداً عن أى عمل مشين ، بل يجعله يبذل قصارى جهده فى سبيل الخير ، حتى إن المسلم الورع يحاول بقدر الإمكان أن يكون مطيعاً لشرع الله على أحسن ما تكون الطاعة ، واضعاً فى اعتباره أن القوة الدافعة له هى حب الله ، حيث إنه يلمس النعم الهائلة التى يمتعه الله بها فيشعر بحب قاهر ، وبدين كبير يطوّق عنقه ، ولو حدث ولم يطع ربه فى أمر من الأوامر فإن حبه له يدفعه ليسارع إلى التوبة وعمل الصالحات ليعود عبداً صالحاً كما ينبغى له أن يكون .

ويعرف المسلمون من قصص القرآن أمثلة للعباد المخلَصين الذين اصطفاهم الله وهم : إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، بيد أنه وفى نفس الوقت الذى اختلط فيه تاريخ الأنبياء الآخرين بسحب كثيفة من الأساطير ، نجد أن سنة محمد ﷺ ظلت ناصعة نقية بكل تفاصيلها ودقائقها ، ومن ثم جعل المسلم الورع يبذل غاية جهده لمحاكاة النبى فى فعله وهو يعلم فى قرارة نفسه أن هذا ليس بالأمر الهين .

إذن ؛ فحب المسلم لربه ، واقتناعه بحب الله له هو أمر منطقى ، لا يورطه فى عقيدة مبهمة ، إذ إنه لا يزال عبداً لربه ، ولا يتخيل نفسه على الإطلاق أن يصبح ابناً له ، كما أنه موقن بأنه لو تاب عن ذنوبه توبة نصوحاً فإن الله يمنحه نعمة المغفرة ، رحمة ورأفة ، دون أن يسأل : هل تم التخليص من الخطيئة أم لا ؟ فذلك سيكون فى المحاسبة الفردية يوم القيامة .

ولقد افتتن كثير من أئمة الصوفية بعشق الله ومنهم : الغزالى وذو النون المصرى وجلال الدين الرومى ، ورابعة العدوية ؛ تلك المرأة المتصوفة التى اشتهرت فى القرن التاسع الميلادى ، ولقد قرر الغزالى ـ الذى كتب العديد من الكتابات الجميلة المتعلقة بموضوع العشق الإلهى ـ أن : «الصورة المعقولة والمقبولة التى يخاطب بها الناس هى أن الله وحده هو الجدير بالحب الحقيقى » ، ورابعة تقول : « لقد امتلكنى حب الله إلى درجة أنه لم يعد فى قلبى مكان لأحب أو أكره أى شىء دونه ... والآن وفى جوف الليل عندما يغلق كل ملك بابه ، وينفرد كل عاشق بمعشوقه ، تبقى أنت يا رب لا تغلق بابك فى وجه أحد مرحباً دائماً بالضارعين إليك » .

* * *

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Williams) وفى المرجع انشر ص ١٨٨ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) وفى المرجع انظر ص ١٣٣ .

الفصل العاشر

الإسلام وفق تعريف القرآن

إن الذين يؤمنون بالإسلام وبمفاهيمه التى تجمع كل معانى الطاعة والخضوع للإرادة الإلهية ليسوا فقط محمداً ﷺ وصحابته ، أولئك الذين تلقوا عنه الرسالة ، بل إنهم كل إنسان نفذ كل ما هو داخل هذا الإطار فى أى فترة من فترات التاريخ ، ويبين لنا ذلك من الأمثلة البارزة كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الرسل عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، ومن الأمم التى اتبعت وصاياهم وتعاليمهم ، وقد أكد القرآن أن كل رسول أرسل من عند الله جاء مبشراً بالوحدانية : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ [الأنبياء آية ٢٥]

وكنتيجة طبيعية لهذا ؛ يؤمن المسلمون بالله وبكل رسالاته التى أرسل بها الأنبياء من قبل محمد ﷺ : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ [البقرة آية ١٣٦]

ومن ثمّ فقد كان حواريو عيسى عليه السلام مسلمين أيضاً نظراً لأنهم أسلموا وأذعنوا لله : ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ [المائدة آية ١١١]

فالإسلام إذن ـ وهو الدين الذى شكّل تاريخ الإنسانية ـ ليس جبرية[1] تشاؤمية، بل إنه يبدو ديناً يجعل مقاومة الشيطان فى مقابل طاعة الله الحق، وهو فى نفس الوقت عقيدة تحول الأسرار إلى علانية ، « فسر

---

(١) الجبرية : مذهب يرى أن كل ما يحدث للإنسان قد قُدّر عليه أزلاً ، فهو مسيّر لا مخيّر ، وتطلق على معتنقى هذا المذهب . (المترجم) .

كل المخلوقات مستعلن، وليس فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة غير الله »[1]، ويقول (الأسقف كراج) (Bishop Cragg) متسائلاً : « ما الذى يصلح للتعامل مع ذكاء الإنسان أفضل من هذا ؟ إن الإسلام قد أزال كل ما يؤثر فى العلاقة بين العبد وربه ، وما على الإنسان إلا أن يطيع ربه ويعمل عملاً صالحاً فى إطار أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فلا أوثان ، ولا كهّان ولا وسطاء »[2] .

عالمية الإسلام :

يعد الإسلام ـ منذ كان ـ ديناً للعالم كله ، بغض النظر عن أن القرآن قد نزل بالعربية ، وأن السنة بطبيعة الحال باللغة العربية ، و(جب) (Gibb) يقرر : « أن الإسلام لم ينسب نفسه إلى العرب مطلقاً ، بل إن العرب فى وقت من الأوقات هم الذين نسبوا أنفسهم إليه »[3] .

ولكن (بل) و(منزس) و(ليفى) زعموا أن الإسلام منذ بدايته لم يكن يعد ديناً عالمياً[4] ، وتصوروه ديناً محلياً تمت حياكته لمكة [5]، ولمكة فقط ، بيد أن العكس هو الصحيح ، وهو ما نراه حتى فى الآيات الأولى للوحى فنرى : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [التكوير آية ٢٧]

وكذلك : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة آية ٢]

ولقد ناقشنا هذه النقطة فى الفصل الثالث ولا داعى للتكرار ، ولكننا ينبغى أن نضيف هنا أن الرسول ﷺ إكمالاً لدعوته وتبليغه وجّه السفراء إلى الملوك والحكام من حول الجزيرة العربية ، فضلاً عن كسرى الفرس وعظيم الروم ، وقد كانا أعظم ملكين لدولتين وجدتا فى ذلك

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) وفى المرجع انظر ص ١١٥ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Cragg) كتاب (الإسلام المعاصر) ص ٩٢ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٦٩ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ، وتحت (Menezes) ، وكذلك تحت (Levy) وفى المرجع انشر ص ٢ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) ص ٧٢ .

الوقت ، وذلك لدعوتهم جميعاً للدخول الإسلام[٦] .

فالمفهوم الإسلامى لا يرى الله تعالى إلهاً لأمة أو قبيلة بذاتها ـ عربية كانت أم عبرانية ، وذلك لأنه ليس إلهاً للمؤمنين فحسب ، وإنما هو رب الكون بأسره ، فهو إله العالمين ، ما نعرفه وما لا نعرفه ، ولاشك فى أن هذا المفهوم لا يمكن أن يكون أكثر شمولية .

﴿ أولئك الذى هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ [الأنعام آية ٩٠]

﴿ الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾
[العنكبوت آية ١ ـ ٢]

وعليه فالإسلام لا يشمل فقط الرجال والنساء من كل جنس ولون ولسان وإنما يتجاوز هؤلاء إلى كل بقعة ومخلوق فى السموات والأرض :

﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون ﴾ [آل عمران آية ٨٣]

العقيدة الإسلامية :

تسمو العقيدة فى الإسلام عن كونها عملية إذعان وتسليم آلية ، وذلك لأن قلب المؤمن ينبغى أن يقتنع بوحدانية الله وصفاته وكتبه ورسله وملائكته وحسابه فى الآخرة ، وأن تخترق عقيدته هذه مشاعره فيتحول عمله صالحاً بنّاء ، ويستحيل كلامه خيراً وموضوعياً ، ويرجو رضوان الله تعالى ومغفرته وحبه .

ويجد المسلم الحق سعادته فى أداء الشعائر بكل الطاعة والحب لله ، وفى أن يكون نور حياته مستقى من توجيهات الله عز وجل له فى القرآن، ولعل المثال الرائع على الإيمان هو إيمان النبى محمد ﷺ الذى هو بالفعل أحق أن يتّبع ، وأن يهتدى به .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٣٨ ـ ٦٠ .

فالمسلمون يعتقدون أن البشر هم أبناء آدم عليه السلام الذى خلقه الله تعالى من تراب ، وأنهم ليسوا مخلوقات عشوائية ـ كما حدد مبدأ التطور لداروين ـ منحدرة من سمكة أو قرد ، كما أنهم مقتنعون بأن الله قادر بصورة مطلقة على خلق كل جنس فى الوجود بصورته الحالية المتقنة دون حاجة إلى إجراء تجربة سابقة عليه أو تطوير طبقاً لنظرية التطور[1] .

فسبحان الله العليم القدير الحكيم الخبير الذى خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وخلق كل إنسان له شخصيته المتميزة وله قدراته الطبيعية، بل حتى وله بصمات أصابعه الخاصة به وحده . فلن تجد أبداً اثنين من الناس متطابقين تماماً فى خواصهما وخلقتهما مما يؤكد بطريقة علمية ومنطقية واضحة أن خلق الإنسان ليس ظاهرة عشوائية كما يزعم الملاحدة ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ [آل عمران آية ٥٩]

فخلق الله تعالى له معنى ومغزى ، ولم يأت به الله عبثاً أو مصادفة أو بدون هدف أو بصورة عشوائية ، وإنما لابد وأن يحيط علمه الشامل بكل حادثة وبكل شيء يحدث : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا** ﴾ [الكهف آية ٢٩]

﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى * وأنه**

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bronowski)

هو أغنى وأقنى * وأنه هو رب الشعرى * وأنه أهلك عادا الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأى آلاء ربك تتمارى * هذا نذير من النذر الأولى * أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة * أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون * فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ [النجم آية ٣٨-٦٢]

ومن بين حاجات الإنسان الطبيعية ونشاطاته المادية يكمن الجانب المكمل للدين وهو الهدف الأسمى من هذه الحياة ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدّقه العمل »[1] ، وهو ما يمكن أن نستخرجه من آيات قرآنية عديدة تتحدث عن العقيدة وتربطها دائماً بالعمل الصالح : **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾** [البينة آية ٧]

الشعائر الإسلامية :

يرتكز الإسلام على خمس عمد ، أولها وأهمها إعلان اعتناق الدين بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أما بقية العمد فهى بالترتيب : أداء الصلاة وإيتاء الزكاة لمستحقيها وصوم شهر رمضان والحج إلى البيت الحرام بمكة مرة واحدة فى العمر عند الاستطاعة .

وتعمل هذه الشعائر على تحريك المشاعر النبيلة فى قلب المسلم ، وتجعل ذكره لربه أشبه بمنبه يطغى على حسه الأخلاقى ، وتزيد من شفافية روحه التى تصله بالله ، وتربطه برابطة قوية مع المسلمين جميعاً سواء أولئك الموجودين فى مجتمعه المحدود ، أو فى العالم ككل ... وفى دفء هذه الأخوة الروحية تذوب حواجز الجنس واللون واللغة وتتلاشى .

وقد ذكرت هذه الشعائر كثيراً فى القرآن ولكنها لم تجتمع فى

---

(١) انظر صحيح البخارى الجزء الأول ص ٥٢ .

مكان واحد فيه أبداً ، أما الصلاة والزكاة فقد ذكرتا فى الغالب مقترنتين، مع أن نظرية تطبيقهما فقط هى التى جاء ذكرها فيه :

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾
[البقرة آية ٤٣]

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ [البقرة آية ١٥٣]

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ [المائدة ٦]

أما التفاصيل المسهبة حول طريقة أدائهما فنجدها فى سنة النبى ﷺ وفق ما جاء عن أصحابه فى حالات الصحة والمرض والسفر والإقامة ونقص المياه أو توافرها[1] .

الدخول فى الإسلام :

حين يشهد المرء بحقيقة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكون قد وفّى بروح الإسلام أو كما يعتقد المسلمون بأنها روح أى رسالة إلهية أرسلت إلى البشر . **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾** [الأنبياء آية ٢٥]

ويحذر القرآن دوماً من عاقبة الشرك ويعتبره أعظم الكبائر : **﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيماً ﴾** [النساء آية ٤٨]

---

(١) انظر فقه السنة للأستاذ الشيخ سيد سابق .

وتناشد بعض الآيات عقل القارئ ومنطقه ، وتسأله أن يتفكر مليا في مدى ما يقدم عليه من خطأ ونكران للجميل وعدم إنصاف إن هو أقبل على عبادة شيء آخر من دون الله، بغض النظر عن ماهية هذا الشيء إن كان وثناً أو شخصاً أو عائلة أو ملكية ، بل حتي لو كانت عادة .

﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون * وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم * قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾

[الأنعام آية ١٢ ـ ١٤]

وهنا نلاحظ وجود دعوة إلى التوحيد بأن الله هو الرب والإله ، وأنه وحده تعالى الجدير بالعبادة ، فهو مصدر الخير دائماً ، لذا ينبغي أن نقصده هو في كل الأمور وأن يكون التقرب إليه هو الهدف والطموح ، لأن حبه هو الراحة الكبرى للقلوب ، ويجب على المسلمين كذلك أن يصلّوا وأن يسجدوا له وحده وليس لمخلوق آخر حتى لو كان هذا المخلوق هو البابا الذي يسجد له المطارنة والقسس حديثو التنصيب [(١)] .

ثم بشهادة أن محمداً ﷺ هو من رسل الله كما ظهر ذلك في القرآن حيث ذكر أنه رسول لله تعالى في أكثر من مائة موضع ومثالاً عليه : **﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾** [آل عمران آية ١٤٤]

فالإقرار أن محمد رسول الله هو جزء مكمل للدين : **﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾** [الأعراف آية ١٥٨]

(١) انظر مجلة (Time) عدد ١٩٧٥/٧/١٤ ص ٣٤ .

الصـــلاة :

وأهمـيـة الصـلاة في الدين معـروفة جداً ، فـهى تقّوى الاعـتـقـاد بوجـود الله وعظمـتـه وتنقل هذا الاعـتـقـاد إلى أعـمـاق القلوب ، وأداؤها بخشوع يرقى الروح ويهذبها ، وينمى العقل ويقوى الضمير ويريح النفس وذلك لارتباط العضلات فى الصلاة الإسلامية مع النفس والعقل تقديساً وعبادة لله .

والفـرد فى الإسـلام ـ رجـلاً كـان أو امـرأة ـ يصلى بالأصـالـة عن نفسه ، متصـلاً مباشرة بالله السـميع البـصير ، إذ لا وجـود للكهـانة فى الإسلام ـ فلا حاجة إليها ، كذلك لقد تمت التوصية المؤكدة بأداء الصلاة فى جماعة وخاصة صلاة الجمعة، ويسمح بصلاة الفرد بمفرده فى أى مكان بشرط طهارته ، كذلك لا حاجة للمعابد ولا للقرابين .

ولقـد أمـر الله المؤمنين لا بتـرديد الصـلاة وقـراءتهـا فـحسب ، وإنما بإقـامـتـهـا وأدائهـا على الوجـه الأكـمل : ﴿ **إن الذين آمنوا وعـــملوا الصـالحـات وأقـامـوا الصـلاة وآتوا الزكـاة لهم أجـرهـم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [البقرة آية ٢٧٧]

﴿ ... **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسنا وما تقـدمـوا لأنفـسكـم من خيـر تجـدوه عند الله هو خيـراً وأعظم أجـراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ [المزمل آية ٢٠]

وقبل أن يشرع المسلم فى الصلاة ينبغى عليه أن يتأكد من طهارته ومن وضوئه ، وهو الفرض المشابه للتقليد الإبراهيمى الذى أيده عيسى كما جاء فى إنجيل (مرقس) : « لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ » (إنجيل مرقس الإصحاح السابع ـ ٣)(١) ، فهو يلفت نظر الإنسان إلى نظافته

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٦٣ ـ ٨٠ .

الحسية والروحية ، ثم يتوجه المسلم بعد ذلك إلى مكان طاهر ليؤدى صلاته ، قبلته الكعبة بمكة ، وقلبه متوجه إلى الله ، وقد وعى أنه عنصر فى أخوة الإسلام العالمية التى يؤدى كل عضو فيها عبادته لإله واحد ، وفى حالة واحدة ، وفى اتجاه واحد ، بل إنهم فى صلاة الجماعة يشكلون معاً صفوفاً مستقيمة .

ولدى شروع المسلم فى صلاته ، فإنه يبذل غاية وسعه لكى يعزل فكره عن العالم المحيط به ، ويقرأ الفاتحة وآيات قرآنية أخرى ، ثم يركع ويسجد لله مسبحاً بحمده ، مستحضراً الجلال الإلهى كلما تلا اسم الجلالة وكرره ، فهو يعلم علم اليقين أن الخالق معه يراقبه ويسمعه ويستجيب لتضرعه ، ويشعر فى نفسه بقمة السعادة لدنوه من الله خلال سجوده ودعائه له تعالى أن يساعده . أما عن مدلول الكعبة فى الإسلام فقد تم تناوله فى الفصل السادس والسابع ولسوف نذكر المزيد عنه فيما بعد .

ومن ثم فالذى يؤدى الصلوات ويفعل ما فى وسعه لكى يؤديها على أحسن ما تكون لا شك سيسعد عندما يكتسب طبيعة ملائكية ترفعه عالياً فوق الإغراءات الدنيوية التى تقوده إلى الانحراف والرذيلة :

﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾

[العنكبوت آية ٤٥]

﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ [المؤمنون آية ١-٤]

ولما للصلوات الخمس من أهمية فى الإسلام بما تغرسه من قيمة روحية عالية ، ينبغى أن يؤديها كل رجل وكل امرأة ، وتسهيلاً عليهم ـ يتم قصر الصلاة وفقاً للظروف فى حالة السفر والمرض ، ولكن لا يمكن

إلغاؤها تماماً لأنها هى الصلة التى تربط بين الإنسان وربه ، وهى ما يجب عليه أن يحافظ عليها .

مزاعم المستشرقين حول الصلاة :

لقد علّق كثير من المستشرقين على عدد الصلوات اليومية وقيمتها وطريقة أدائها ، وهو ما يسلتزم المناقشة هنا .

فنجد (أندرسون) (Anderson) قد حطّ من شأن الصلاة الإسلامية عندما علّق وقال : « إن الصلة بين الصلاة والأخلاق ضعيفة وذلك لأن الإنسان الذى يفرغ من صلاته ليغش مثلاً متصوراً أنه سيثاب عليها، على حين أنه سيعاقب على غشه »[1]، ولكن (أندرسون) نسى أن الثواب الذى سيجنيه هذا الإنسان سيتناقص حتى يتلاشى ، وذلك نتيجة لصلاته الخالية من الخشوع ، إذ إن المسلم عندما يبدو منه تصرف لا أخلاقى فإنه يعكس به صورة صلاته، فهى وحدها التى تعكس كيف بدا عقله بعيداً عن ذكر الله . وقد ذكر ابن عباس رضى الله عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال: «من لم تنهه صلاته عن الفواحش فلا صلاة له »[2]

ومن المثير للدهشة محاولة (زويمر) (Zwemer) للربط بين الصلاة وبين مبدأ الأرواحية[3] ، فجاء ببعض المشاهد كقوله : « لقد نهى محمد عن الصلاة وإقامتها بالقرب من أماكن سقْى الجمال ، وذلك لأن الجمال مخلوقات شيطانية »[4] ، ولكن لا أحد من البشر ، وخصوصاً المسلمين منهم، يمكنه أن يعتقد بأن الشياطين تستطيع خلق أى شيء ، فالله وحده هو الخالق ، والتفسير الوحيد المنطقى هو أن أماكن سقى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٨٤ .

(٢) انظر تفسير القرطبى ج (٦١) ص ٥٠٦٤ .

(٣)الأروحية : مبدأ يعبر عن حيوية المادة وأن كل ما فى الكون ، بل وللكون نفسه روح ونفس (المترجم) .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Zwemer) كتاب (أثر الوثنية على الإسلام) ص ٤٧ ـ ٥٠ .

الجمال قد تكون ممتلئة بروثها مما لا يجعلها نظيفة طاهرة بصورة كافية لإقامة الصلاة ، هذا إلى جانب : من ذا الذى يختار مثل تلك البقعة ليؤدى صلاته فيها وأمامه الصحراء الواسعة الجافة ، ولديه الحماية المكفولة داخل المسجد أو المنزل ؟

ويبتعد (بيثمان) (Bethman) عن موضوع الصلاة عندما يتصورها : « نوعاً من العبادة التى ينبغى أداؤها بطاعة ، إذ هى تجعل المرء يبدو بصورة شكلية صارمة ، وتقتل فى نفسه النزعة الخيرية ، وعليه فلا يمكنها أن تكوّن أى رابطة روحية بين الإنسان وخالقه ، كما ينبغى أن تفعل ، والسبب فى ذلك استحالة وجود حديث من القلب للقلب بين كائنين مختلفين تماماً »[1] .

ولكننا فى الفصل التاسع رأينا كيف أن الله الخالق يختلف تماماً عن مخلوقاته وأنه قريب جداً من قلوبهم ، وكيف أنه لطيف رفيق بهم ، وأنه يسمعهم بكرمه ويتقبل صلاتهم .

ومما لا شك فيه أن أى صلاة إن أدّيت بصورة آلية ودون تركيز ستكون خالية من المشاعر ، وهذا يجعلها مجرد صلاة شكلية ، ولكن عندما أركز أنا فى صلاتى لربى الذى خلق وحفظ العالم بما فيه أنا ، وأحاط كل شىء بعلمه وبرحمته ، وشملنى بعنايته ونعمته ، والذى هو يرانى أينما أكون ويسمع صوتى ويرى دخيلة نفسى ، ويساعدنى ويستجيب لدعائى ، فلا شك فى أن مثل هذه الصلاة ستشحذ نفسى وتجلوها ، وتريح روحى وتضيىء الأنوار فى قلبى .

ولقد وجد كل من (ليفى) (Levy) و(وات) (Watt) من خلال دراستهما الإسلامية أن عدد الصلوات اليومية لم يقترن بحجة «مقنعة» لتثبت اقتصاره على خمس صلوات ، فلم يحدث ذلك حسب

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وبالمرجع انظر ص ٥٠ ـ ١٠٠ .

ظنهما فى حياة النبى محمد ﷺ ، بل إنه لم يحدث فى غضون القرن الأول من بعد وفاته[1] ، ومع أن القرآن لم يذكر العدد الدقيق للصلوات وكيفية أدائها ـ وهو ما ذكره المستشرقان السابق ذكرهما ـ إلا أن الحقيقة هى أن النبى ﷺ هو الذى قام بشرح تفاصيل الصلوات ، بل وجميع النظم والتشريعات القرآنية ، والتى تم تطبيقها فى شتى جوانب الحياة للمجتمع المسلم الناشئ منذ لحظة نزول كل آية .

ومن الثابت أنه قد تم فرض الصلوات الخمس فى مكة قبل بضع سنوات من الهجرة ، أو ـ لنكون متحرين للدقة ـ قبل حوالى ثلاثة عشر عاماً من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أى إنه ظل يعلّم أتباعه طوال هذه المدة كل التفاصيل الدقيقة التى علّموها بدورهم للآخرين ، وهو ما تحفل به كتب السيرة النبوية من تشريعات قرآنية تم تفسيرها وشرح أدق تفاصيلها فى كتب الفقه ، وذلك للتمكن من الرد على أكبر قدر ممكن من التساؤلات حول العقيدة، وهو ما دعا أحد المستشرقين إلى القول بأنه: « قد صدرت فتاوى فى نقاط كثيرة إلى حد التوغل فى نخاعها »[2] .

ولعل من أغرب مزاعم المستشرقين التى نشأت فى القرون الوسطى[3] تلك التى دفع بها (فريارسيمون) (Friar Simon) و(مارك التوليدوى)[4] (Mark of Toledo) ، والتى تنص على أن : « صلاة المسلمين جماعة فى المساجد تسبح بحمد محمد »[5] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص١٠٠ ، وكذلك تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ١٥٥ ـ ١٦٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ١٥٥ ـ ١٦٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٢١١ ـ ٢٣٥ .

(٤) توليدوى : نسبة إلى توليدو وهى مدينة تقع جنوب غرب مدريد بأسبانيا . (المترجم) .

(٥) يذهب بعض الغربيين إلى تلقيب المسلمين بالمحمديين قياساً على تسمية النصارى بالمسيحيين وهى نسبة يختارونها لأنفسهم ، ولكن المسلمين يرفضون أن ينسبوا لغير الإسلام . (المترجم) .

ولسوء الحظ ، ما زال بعض الجاهلين ببواطن الأمور يعلقون على هذه الفكرة ، فمضى (منيزس) (Menezes) إلى القول بفكرة مماثلة لها فى الخطأ ترى : « أن محمداً قد أنشأ منبراً ، وهو ما يعد ذا قدسية عظيمة عند المحمديين » ، ثم كتب : « ومن فوق المنبر ، توجه محمد صوب الكعبة وأدى الصلاة وخطب أيام الجمع ، وبعد أداء الفريضة كان يتلو أجزاء القرآن .. فلو غسل إنسان يده اليسرى أو استنشق قبل أن يتمضمض فستبطل صلاته .. بغض النظر عن هل فهم المصلى الكلام الذى يقوله فى الصلاة أم لا »[١] .

وهكذا نرى بالطبع كيف يضلل الكتّاب الجهّال قراءهم لدى سردهم لأمثال هذه العبارات الأخيرة .

ولكن قارن هذه الانتقادات من الجاهلين ، بالإعجاب الذى أبداه أحدهم ويدعى (بينيس) (Pennis) لدى زيارته فعلاً للقدس فى القرون الوسطى حيث عبّر عن الواقع الذى شاهده قائلاً : « وبدون أدنى تقليل من شأن القسس فإن المسلمين يصلّون باستمرار وبصورة منتظمة .. ففى أى مكان وفى أوقات محددة من اليوم يركعون ويسجدون ويعبدون ربهم بخشوع » ، ثم يأتى معاصر له وهو (ريكولدو) (Ricoldo) فيقول : « وماذا أقول عن صلاتهم ؟ إن روعهم لعظيم ، ولقد دهشت عند رؤيتى له وأثبتّه فى تجربتى »[٢] ، ثم يسجل (جيردنر) (Gairdner) و(جيوم) (Guillaume) مؤخراً ملاحظاتهما لجو الصمت والاستغراق الكامل للمسلمين وانعزالهم الشديد عن كل ما يحيط بهم أثناء عبادتهم »[٣] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٤٨ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٢١١ ـ ٢٣٥ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وبالمرجع انظر ص ١٦٢ ـ ١٨٠ ، وكذلك انظر تحت (Guillaume) وبالمرجع انظر ص ٦٨ .

الزكاة :

إن كلمة (زكاة) فى القرآن لا تعنى فقط الصدقة والضريبة والشفقة والنفقة التطوعية ، وإنما هى حافز روحى وأخلاقى فى منتهى القوة[1] ، والمعنى اللغوى لها هو (النقاء) .

أما الطريقة التى يدعو بها القرآن الأغنياء ليؤتوا الزكاة فهى تبدو مهذبة وحازمة فى نفس الوقت ، إذ إنهم مأمورون بأن يعطوا مما أعطاهم الله ، فهم مستخلفون فيما يملكون من ثروة أثناء حياتهم على الأرض ، فإن أعطوا الفقراء نصيبهم فإن الله سيضاعف لهم ويغفر لهم فى الدنيا والآخرة .

ويتمثل أحياناً إيتاء الزكاة فى القرآن بصورة صفقة تتم بين الإنسان ذلك المخلوق المؤقت الوجود ، وبين الله الباقى الكريم الذى يخلق ويملك كل شىء ، وبنود هذه الصفقة أن الإنسان عندما يعطى الناس يمن الله عليه بعطائه ونعمه مضاعفة .

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ [الحديد آية ١١]

﴿ ... وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [المزمل آية ٢٠]

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ [البقرة آية ٢٤٥]

فالمسلمون مأمورون بأن يعطوا الزكاة ، وقد تأكد ذلك فى آيات قرآنية كثيرة مقروناً بإقامة الصلاة والمحافظة عليها .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus) ص ٩٥ .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة آية ١٧٧]

﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [الأنفال آية ٣]

﴿ الذين إن مكّناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ [الحج آية ٤١]

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ [البينة آية ٢٥]

فإيتاء الزكاة ينقى الجوهر بالعبادة ويطهر النفس من ران البخل والجشع ، ولأنها تثبت مدى (صدق) الإنسان فى دينه وخضوعه لله فلذلك تسمى أيضاً (صدقة) .

ويتبع المسلمون تعاليم القرآن فيُعنون بالإعطاء من أوسط، أو من أفضل ما لديهم، إذ إن إيتاء الأعطيات بصدق يكفّر عن بعض خطاياهم:

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ [المائدة آية ٨٩]

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن

تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ [البقرة آية ٢٦٧]

وهذا على النقيض تماماً مما جاء به العهد القديم من أن الفقير والغريب يعطيان من بقايا الحصاد وفضلاته فقد جاء : « وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمّل زوايا حقلك فى الحصاد ولقاط حصيدك لا تلتقط ، وكرمك لا تعلله ، ونثار كرمك لا تلتقط ، للمسكين والغريب تتركه، أنا الرب إلهكم » (سفر اللاويين – إصحاح «١٩» رقم ٩، ١٠).

فالتقليد السائد عند المسلمين الورعين هو الإنفاق من خير ما لديهم ، وذلك لكى يتحاشوا ظهور أى نوع من الإحساس بالذل أو الظلم فى نفوس المحتاجين ، ومع أن القرآن قد حدد المصارف المختلفة للزكاة إلا أنه لم يحدد المقادير الصغرى أو الحد الأدنى الأساسى الذى يجب فى كل حالة بعينها : **﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾** [التوبة آية ٦٠]

بيْد أن هذا الموضوع قد تم تمحيصه على يد الرسول ﷺ ، ونراه مدوناً فى الآثار الإسلامية ، لكن بعض الكتّاب مثل (ليفى) (Levy) عمد لدى قراءته عن تفاصيل الزكاة إلى الزعم بأنه لا يوجد تعليم واحد يبين كيفية حساب النسبة التى يتم دفعها من المال أو مقدارها[1] .

والحقيقة هي أنه قد تم تطبيق قواعد الزكاة بقمة الإخلاص على عهد المسلمين الأوائل وفى القرون الوسطى ، وهو ما دعا (ريكولدو دى مونتوكروسو) (Ricoldo de Monte Croce) إلى تسجيل إعجابه فى يوميات رحلاته فى الشرق (itinerarium) فقال : « وعن موضوع الرحمة والشفقة بالمساكين ينبغى القول بأن المسلمين من أكثر الناس كرماً بأدائهم الزكاة »[2] ، ثم أشار (سيل) (Sale) بعد ذلك بسبعة

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ١٥٥ – ١٦٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel)وفى المرجع انظر ص ٢١١ – ٢٣٥ .

قرون إلى نفس الموضوع قائلاً : « لقد اعتبرت الأجيال الأولى من المسلمين أداء الزكوات نوعاً من المكافأة المجزية والتقدير وهو ما اشتهر به كثير منهم فنرى الحسن حفيد النبى[1] قد تنازل عن ماله مرتين وتقاسمه بينه وبين الفقراء ثلاثا ، بل لقد تعود العامة فعل الخير حتى مع البهائم »[2] .

الصوم :

يعتقد المسلمون أن الصوم فريضة فى كل دين سماوى ، ويعتبرها الفلاسفة نوعاً من التأديب والمعاقبة ، ويعنى الصوم الإسلامى الإمساك عن الطعام والشراب والتدخين والاتصال الجنسى والإحجام عن الفواحش من قول أو فكر ما بين الفجر والغروب . ويبرز هدف الصوم فى الإسلام بوضوح فى القرآن :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة آية ١٨٣]

فتعلمنا الآية أن الإنسان يحب أن يحتفى بالصوم لا من أجل صحته ولا من أجل إظهار علامة من علامات الحداد ، وإنما من أجل الحب العميق والعبادة لله وحده وطلباً وأملاً فى مرضاته تعالى .

فالصوم يهذب الضمير لأن المسلم يحفظ صومه سراً بقدر ما يستطيع بين الناس ـ إذ لا توجد سلطة دنيوية تستطيع أن تتأكد من أنه قد أفطر أم لا ، كما أنه يعلّم الإنسان الصبر والإيثار ، ويقوى شعوره

---

(١) ذكر صاحب (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) ج ١ ص ٥٦ أن الحسن بن على رضى الله عنهما قد روى عنه أنه حج خمسا وعشرين حجة ماشياً والجنائب بين يديه وخرج عن ماله ثلاث مرات وشاطره مرتين وأعطى إنساناً يسأله خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وأعطى حمّال ذلك طيلسانه وقال يكون كراؤه عندى .. ويتضح هنا الاختلاف فى تحديد العدد عما جاء به سيل) (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٦٣ ـ ٨٠ .

بالانتماء إلى مجتمع الأخوة الإسلامية ، ويعد تدريباً فعّالاً على الهدوء وقوة الإرادة ، كذلك يساعد الصوم النفس الإنسانية لتصبح أكثر شفافية، ويساعد العقل على الصفاء ، والجسم ليكون أكثر صحة ورشاقة تسهل له حركته ، وعليه فالصوم هو الوصفة الإلهية لاطمئنان الإنسان ولإحساسه بالكرامة ولزيادة تحكمه فى نفسه .

إن الصوم من أكثر الأعمال الإسلامية استحقاقاً للتقدير لأنه يمكن المحافظة عليه كسر بين المؤمن وربه ، إذ لا حاجة لإنسان آخر أن يعرف ، ذلك أن المؤمن يصوم انطلاقاً من حبه لربه وطاعته له . ويذكر الصوم فى آيات معينة كفارة للسيئات فى حالة نقض اليمين ، وفى بعض مشاكل الزواج وفى بعض حالات الحج .

﴿ وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ (البقرة آية : ١٩٦)

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ [المجادلة آية ٨٩]

﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ (المجادلة آية : ٤)

ثم يطلق (سيل) زعماً متعلقاً بطريقة الصوم فى الإسلام فيقول : « فيما يبدو لقد اتبع محمد توجيه اليهود فى أوامره بصدد الصوم »[1] ، ونرى هنا أنه قد أغفل حقيقة أن أصل الديانتين واحد هو الوحى الإلهى، ولكن (بيثمان) (Bethman) يبدى هنا ملاحظة صحيحة ترى : «أن الصوم الإسلامى يختلف تماماً عن صوم اليهود ، حيث إنه ليس امتناعاً عن أنواع معينة فقط من الطعام ، وإنما هو إمساك كامل عن كل أشكال الطعام والشراب بما فيه الماء ، وعن الدخان وعن أى منبه آخر أثناء اليوم »[2] . أما غير القادرين على الصوم فبإمكانهم إطعام الفقراء والمساكين كفارة عن إفطارهم .

الحـــج :

الحج فريضة دينية ملزمة لكل مسلم ـ رجلاً كان أو امرأة ـ قادر جسمانياً وعقلياً واقتصادياً على أدائه ، لمرة واحدة فى العمر . « ففى أثناء الرحلة المقدسة لأداء شعيرة الحج يتجمع الحجيج فى أعظم مؤتمر سنوى للسلام وجد فى تاريخ البشرية ، حيث يرون من خلاله هيمنة فكرة السلام: فهناك سلام مع النفس الإنسانية، وسلام الإنسان مع أخيه الإنسان وسلام مع الحيوان والنبات، بل ومع الحشرات، ومثل هذا السلام الغامر لا يتأثر بحقيقة أن الأعداد الغفيرة من الحجيج يختلفون فى الأعمار وأنهم جاءوا من أماكن تتفاوت فيها أساليب الحياة وتتشكل فيها خلفياتهم الثقافية ، فهاهم أولاء الملوك ورجال الدين والإسكافيون ، وهاهم أولاء الرؤساء والأمراء والعتالون وأساتذة الجامعات والفلاحون والطلاب والتجار، كلهم من مختلف الأجناس والألوان واللغات ، وكلهم يندمجون معاً فى أخوة ذات رباط إلهى ، وقد ارتدى كل منهم ـ الرجال والنساء ـ لباساً بسيطاً أبيض يلغى الارستقراطية ، ويضع بدلاً منها المساواة والتواضع

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) ص ٦٣ ـ ٨٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وفى المرجع انظر ص ٥٠ ـ ١١٠ .

والورع ، فلا ملكية ولكنه ولاء من الجميع لله تعالى »[1] .

إن الهدف الذى تنفرد به رحلة الحج هو إرضاء الله ، وذلك بأداء الشعائر بخشوع وبزيارة أول بيت وضع للناس على الأرض لعبادته وحده وهو الكعبة بمكة المكرمة : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ [آل عمران ٩٦ـ٩٧]

إذن فقد نشأت شعيرة الحج فى زمن إبراهيم عليه السلام ، عندما بنى هو وابنه إسماعيل الكعبة لعبادة الله ، ثم وضع إبراهيم بيديه الحجر الأسود فى أحد أركانها ، وهو الحجر الأصلى الوحيد الباقى إلى يومنا هذا ، ويستقر الآن فى نفس المكان بالضبط حيث لم يبق أى جزء من البناء على حاله بفعل الزمن ، وبسبب إعادة البناء والترميمات العديدة التى تولاها الحكام المتعاقبون ، ولا شك فى أن النبى محمداً ﷺ ومن بعده الأمة الإسلامية هم الذين عملوا على التقريب بين إبراهيم وهو النموذج المبكر للتوحيد وبين الحجر الأسود ، وذلك لأن الحاجّ عندما يُقَبل الحجر الأسود أو يلمسه فإنه يغمر بإحساس من الرهبة والتساءل عن حقيقة هذه النقطة التى يتعانق فيها الماضى مع الحاضر فور ذوبان المسافات بينهما فى لحظة واحدة .

ومن شعائر الحج كذلك السعى بين جبلى الصفا والمروة كنوع من التذكر لبحث السيدة هاجر اليائس عن قطرة ماء لطفلها ولنفسها ، ودعائها المحموم حتى استجيب دعاؤها ، وتفجر ينبوع من الماء على مقربة منها وهو ما عرف بعد ذلك ببئر زمزم المبارك الذى لا يزال ينضح بالماء بغزارة فى جوف الصحراء ، ولم يجف مطلقاً إلى يومنا هذا .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus) ص ٩٥ وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (S.M. Khalifa) .

وشعيرة أخرى هى الصلاة والتأمل والتفكر والخضوع والتوسل على سفح جبل عرفات ، هناك .. حيث خطب رسول الله ﷺ خطبة الوداع ، وعلى مقربة من ذلك المكان الذى همّ فيه إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده ، لذلك يوضع موقف عرفات على قمة أعمال الحج .

ولكن أليس مما يؤسف له سوء الفهم الذى انحدر إليه كثير من المستشرقين عندما لاحظوا تقديس المسلمين للكعبة وللحجر الأسود ولشعائر الحج بصفة عامة ، وذلك عندما تصوروه ضرباً من الوثنية !!؟[1] أليس مما يؤسف له نبذهم للشعائر ووصفهم إياها بالسخافة والسماجة ، وبأنها من خرافات الوثنيين ؟!! لقد أتوا بافتراض خاطئ آخر يقول : إن شعائر الحج كانت مما اقتبسه الرسول ﷺ من بقايا عبادة الأوثان قبل الإسلام ، محاولة منه لاستمالة قلوب الوثنيين فى مكة إلى الدين[2] ، بل لقد أضافت قلة من الكتّاب فى القرون الوسطى أن الكعبة تضم رفات النبى عليه الصلاة والسلام مثله فى ذلك كمثل ما يفعل برفات القديسين المسيحيين[3] .

ونحن نرى ، وببساطة شديدة ، فى هذه الدعاوى مدى ضآلة ما عرفه هؤلاء المستشرقون عن الحج ، والخلفيات التاريخية لشعائره ، ونرى كذلك مدى تحاملهم على هذه الفريضة الهامة . ونتساءل أهذا لضآلة فهمهم لموضوع الحج ؟ أم هو لسبب آخر؟ ومهما يكن من أمر فإنه ينبغى فضح أولئك الكتّاب الذين يشوهون الحقائق وإدانتهم ، وفى نفس الوقت يجب أن نلتمس العذر للرأى العام فى الغرب وما لديه من معلومات خاطئة يحكم بها على الإسلام ، إما عن وسائله الإعلامية ، أو

(١) انظر قائمةالمراجع الأجنبية تحت (Sale) ص ٣٨ ـ ٦٠ ، وتحت (Bethman) ص ٥٠ ـ ١٠٠ ، وتحت (Gairdner) ص ١٦٢ ـ ١٨٠ ، وتحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) .

(٢) انظر قائمةالمراجع الأجنبية تحت (Lane)، وانظر تحت (Tritton) ص ٢٠ .

(٣) انظر قائمةالمراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ٢١١ ـ ٢٣٥ .

من خلال ما يراه أو يقرأه عن تصرف المجتمعات المسلمة ، أو تصرف أفراد المسلمين أنفسهم ، فقد يحدث أحياناً أن يناقض التصرف ، أو لنقل سوء التصرف لشخص أو مجموعة من الأشخاص تعاليم دينهم إلى أقصى درجة، وعليه يحكم الناس المولعون بالحكم على الدين من تصرف أتباعه.

التناقض بين الإسلام والمسلمين :

لقد عاش المجتمع المسلم على عهد النبى ﷺ والجيل الذى تلاه مطبقاً لقواعد الإسلام الشاملة المفصلة لكل دقيقة من دقائق الحياة ، ففيها العبادات والأسرة والمجتمع والاقتصاد والسياسة والتعليم والحضارة ونواح أخرى كثيرة تتعلق بالحياة اليومية ، فضلاً عن العلاقات الدولية والمحلية والقبلية .

وبتداعى القرون ، وباتساع دولة المسلمين ، وبالنمو الهائل فى مصادرها ، وبدخول أمم جديدة إلى المجتمع وقد حملوا معهم خلفيات متفاوتة وفلسفات شتى ، ظهرت بعض الاختلافات بين تصرفات المسلمين من ناحية وتعاليم الإسلام من ناحية أخرى ، نتيجة لظهور أفراد ومجموعات وحكام وأمم دخلت حقيقة تحت المظلة الإسلامية إلا أن تصرفها كان منافياً تماماً للتشريعات القرآنية ، مما أدى إلى ظهور التشققات التى ما لبثت أن تحولت إلى صدوع أدت إلى إحداث براكين وفورانات هائلة .

ولعل من رحمة الله تعالى بنا أن القرآن لدينا ، وعلى نفس الصورة التى نزل بها منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، ومنذ تنزل على قلب النبى محمد ﷺ ، ففى ضوئه المتلألئ أمكننا مقارنة سلوك الأفراد والجماعات المسلمة بالقيم العليا الموجودة فيه ، ولقد تمت هذه المقارنة بلغة العصر ، فرأينا أن الإسلام يفرض سلوك النبلاء وتصرفاتهم من فعل الخير ومن الشفقة والوفاء والإخاء ونقاء السريرة ، ويحرّم كل أنواع الفساد من غش وخيانة وغدر ، وتعاطٍ للمسكرات ، ولعب القمار ، ولكن ،

يا حسرتنا !! كم عدد المسلمين فى أيامنا هذه الذين يعيشون وفق ما جاء به الإسلام من تعاليم ؟ وكم عدد البلدان الإسلامية التى تحجم عن مهاجمة البلدان الأخرى ؟ وكم عدد المسلمين الأميين ؟ وكم عدد أولئك الذين لا يزالون متمسكين بالخرافات والخزعبلات رغم ما تضمنه القرآن من تعاليم جاءت مع استهلال أول آية نزلت فيه بالأمر الإلهى القاهر (اقرأ) ؟

إن رجل الشارع الغربى لا يعرف الإسلام إلا من خلال الصديق المسلم الذى قد يحتك به مباشرة ، أو من خلال ما يقرؤه أو يسمعه عن المسلمين ، وهنا ربما نعذره عندما يتصور نوع الحياة الرديئة الذى أوجده الإسلام ، أو شجع عليه ، أو فرضه ، والذى وصل فى الواقع إلى مرحلة صار فيها مدانا !! فكيف يتسنى للإنسان الغربى العاقل أن يعرف الإسلام حق المعرفة ؟ إن طريقته الميسرة له هى أن يرى ويقرأ عن المسلمين المعاصرين ، والذين تشكل الأغلبية الكبرى منهم صورة شوهاء لحقيقة الإسلام ، فالحاضر عندهم ـ عند المسلمين ـ حاضر بائس حزين فقير مريض جاهل ، وأغلب البلدان الإسلامية مختلفة فاسدة قذرة ، وكثير من المسلمين يتشيعون ويتحزبون فى طوائف متخلفة ، منها السنة والشيعة والإسماعيلية والعلوية والأحمدية والقاديانية وطوائف أخرى ، كلها لا تتبع فى حياتها اليومية تعاليم الدين التى جاءت فى القرآن ، بل إن كلاً منها تسمح بعناصر دخيلة أحياناً لإحداث الخلافات والشقاقات .

والآن ؛ أين يذهب المواطن الغربى الراشد ليبحث عن حقيقة الإسلام ؟ الإجابة بسيطة : ليقرأ القرآن الكريم من أحسن ترجمة متاحة له ، وفيها سيرى النجم الأصلى الباقى على صورته اللامعة المتلألئة رغم تلك السحابات السوداء الكثيفة التى ينفثها أتباعه من حوله !!

* * *

الفصل الحادي عشر

موقف القرآن من الأديان الأخرى

يصنف القرآن الناس إلى ثلاثة أصناف، هم : المسلمون ، والموحدون الآخرون ، وهم أهل الكتاب ، ثم بقية البشر ، وأهل الكتاب هم النصارى واليهود الذين يؤمنون بنفس الإله الذى يؤمن به المسلمون ، والذين نزّلت إليهم كتب سماوية من عنده ، وقد قرر القرآن الكريم معايير التعامل مع كل صنف من هؤلاء .

وكما ذكرنا قبلاً : يؤمن المسلمون برسالتي موسى وعيسى عليهما السلام ، ويحترمونهما جداً ، وكذا باقي الرسالات لسائر الرسل ، بدرجة أكبر مما أبدته النسخ الحالية من الكتاب المقدس .

تسجيل القرآن للرسل الأولين :

لقد أثار السرد القرآنى لقصص الأنبياء الكتابيين والأنبياء الآخرين انتقادات عديدة ، فقد زعم (وات) (Watt) مستنداً إلى فرضية أن القرآن ما هو إلا وليد لتصور خلاّق من الرسول ﷺ فقال : « تبدو الأفكار القرآنية غير صحيحة فى أكثر من نقطة ، ومن ذلك فكرة أن الوحى ـ أو لنقل نتاج التصور الخلاّق ـ هو أسمى من كل التعاليم البشرية باعتباره مصدراً صحيحاً للحقائق التاريخية »[1] ، ونعلّق نحن متسائلين ؛ أليس بمعروفا دور المؤرخين على اختلافهم فى تزيين بعض الحقائق التاريخية بالوفير من الأساطير من كل شكل ولون .

ومن جانب آخر ، نرى أن التأريخ الإلهى للوقائع والأحداث هو المعيار الذى تقاس به الحقيقة فى أية عملية تأريخ أخرى ، وهو ما لم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٤٠

يقـبله ولم يَعه كل من (جـفـرى) (Jaffery)[1] و(أندرســون) (Anderson)[2]و(سيل) (Sale)[3] عندما اتهموا النبى ﷺ بكتابة القرآن من غير دراية منه بالتاريخ الكتابى ، وعليه فلسوف نعرض الموضوع بصورة أوضح عندما نعقد مقارنة بين تسجيل القرآن الكريم لبعض الحقائق التاريخية وتسجيل الكتب الأخرى لنفس الحقائق .

ولقد أعجب الكتّاب الموضوعيون من أمثال (بيثمان) (Bethman) بحديث القرآن عن عيسى عليه السلام فقال : لقد صورت المصادر الإسلامية عيسى على أنه كائن عظيم المنزلة رفيعها ، وأنه قد دلف إلى هذا العالم بصورة استثنائية معجزة ، وكان محفوظاً من مس الشيطان ، ووهب قدرات وقوى لم توهب لغيره من البشر ، وحتى عندما جاء أجله سمح له أن يغادر العالم بطريقة أخرى معجزة »[4] ، ثم أضاف (باريندر) (Parrinder) بعض التفصيل فقال : « يشتمل القرآن على تبجيل عظيم لعيسى الذى دعاه بأسماء : عيسى بن مريم ، والمسيح ، والنبى ، والكلمة ، وعبد الله ، وروح من الله ، وقد جاء ذكر بشارة مريم بمولده مرتين وبطريقة مشابهة لما جاء فى إنجيل (لوقا) حيث بيّن خضوع كل شىء لإرادة لله حين يقول كن فيكون »[5] .

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ﴾ [النساء آية ١٥٧]

والواقع أن هناك تناقضات كثيرة فى الروايات المسيحية نفسها عن

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سور من القرآن) ص ٢٢٧ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وبالمرجع انظر ص ٥٦ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وبه انظر ص ٣٨ ـ ٥١ .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bethman) وبالمرجع انظر ص ٥٣ .
(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Parrinder) وبالمرجع انظر ص ٢١ .

عيسى عليه السلام ، فمنها ما يدين البعث[1] على الرغم من أنه هو المبدأ الحاسم عند غيرهم ، فنجد من يقول : « إن المسيحيين ليسوا بحاجة إلى أن يثبتوا أن المسيح قد قام من الموت على الإطلاق ، ذلك أن البعض كان يعتبر البعث له قيمة ترمز إلى التجديد وإعادة الميلاد ولكنه ما لبث أن أصبح معناه تاريخياً موضوعياً وهو ما جعله أشبه ببضاعة توافرت لدى الجميع وأصبحت تكفيهم »[2] ، ونتساءل : لو سلّمنا بأن كل ما كان مهماً وحقيقياً فى الماضى لم يعد بذى قيمة فى الوقت الحاضر ، فما الحقيقة الناصعة الثابتة إذن ؟

والحقيقة أن قصة عيسى عليه السلام كما تسجلها الأناجيل الأربعة لا تزال تشكل دعامة راسخة للرأى الإسلامى من أنه كان عبداً مباركاً رفيع المنزلة ، وكان رسولاً لله ، ولكنه لم يكن برغم ذلك إلهاً إطلاقاً ، بل كان معجزة كبرى لله ، مثله كمثل آدم عليه السلام الذى خلقه الله بلا أب ولا أم . ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ [آل عمران آية ٥٣]

فقد جاء عن عيسى فى العهد الجديد : « فقال لهم يسوع متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أنى أنا هو ولست أفعل شيئاً من نفسى، بل أتكلم بهذا كما علّمنى أبى » (إنجيل يوحنا ـ الإصحاح الثامن ٢٨)) ، وجاء كذلك : « إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إله آبائنا مجّد فتاه يسوع الذى أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه » (أعمال الرسل ـ الإصحاح الثالث ١٣) ، وأيضاً : « فأجابه يسوع أن أول كل هذه الوصيات هى اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد » (إنجيل مرقس ـ الإصحاح الثانى عشر ٢٩) .

(١) البعث مقصود به قيام السيد المسيح وظهوره لمريم المجدلية بعد صلبه كما يزعم المسيحيون. (المترجم) .

(٢) مجلة (Newsweek) عدد ١٩٧٢/٤/٣ ص ٣٩ .

ولقد وضع (مفسّير) (Muffassir) نقطة فاصلة تقول : إن التعبير الكتابى (ابن الله) هو تعبير لا يمكن أن تنبس به شفتا عيسى نفسه ، وذلك لأنه وفق ما قاله (هاستنج) (Hasting) فى كتابه (معجم الكتاب المقدس) (Dictionary of the Bible)[1] من أن « كون المسيح نَسَبَ إلى نفسه أنه ابن الله مشكوك فيه » ، بل إننا على العكس ، نقرأ أنه ينسب لنفسه (أنه ابن إنسان) وذلك فى إنجيل متى ـ الإصحاح الثانى عشر (٣٢) وفى إنجيل مرقس ـ الإصحاح التاسع (٩) وإنجيل لوقا ـ الإصحاح السابع عشر (٢٤) وإنجيل يوحنا ـ الإصحاح الخامس (٢٧)[2] .

ويوضح القرآن هذه النقطة بلا لبس :

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا ، خيرا لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد . له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ [النساء آية ١٧١]

فعيسى بن مريم اعتبر نفسه قد جاء إلى هذا العالم مبعوثاً برسالة إلهية ، تحمل البشرى للمؤمنين والنذير للكافرين ، وجاء هذا مثلاً فى

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Hasting) و فى المرجع انظر ص ١٤٣ .

(٢) جاء فى إنجيل متى ـ الإصحاح الثانى عشر ـ ٣٢ : « ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له أما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى » .

وجاء فى إنجيل مرقس ـ الإصحاح التاسع ـ ٩ : « وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم أن لا يحدّثوا أحداً بما أبصروا إلا متى قام ابن الإنسان من الأموات » .

وجاء فى إنجيل لوقا ـ الإصحاح السابع عشر ـ ٢٤ : « لأنه كما أن البرق الذى يبرق من ناحية تحت يضىء إلى ناحية تحت السماء كذلك يكون أيضاً ابن الإنسان فى يومه » .

وجاء فى إنجيل يوحنا ـ الإصحاح الخامس ـ ٢٧ : « وأعطاه سلطانا أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان » . (المترجم) .

إنجيل لوقا ـ الإصحاح الثالث ، ثم أتى بعد ذلك حواريوه والتابعون لهم واعتبروه إنساناً ورسولاً للرب .

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [آل عمران آية ٥٢ ـ ٥٣]

إن (دانيال) (Daniel)(١) يقول : « إن التجديف التلمودى فى حق عيسى لهو الطرف المناقض لثناء القرآن عليه » ، ففى نفس الوقت الذى يجيء القديس (لوقا) فى إنجيله وينسب عيسى عليه السلام إلى داود عليه السلام باعتباره ابناً ليوسف النجار(٢) ، والذى لم يتعرض فيه القديس يوحنا ولا القديس بولس إلى نسب عيسى ، جاء القرآن الكريم مؤكداً لميلاده دون أب ، وقاطعاً بعفة مريم العذراء وطهارتها(٣) ، ثم أشار (لين) (Lane) إلى موضوع الصلب فقال : « لقد أدانت طائفة الباسليين (Basilidians)(٤) معاناة المسيح نفسه ، وأيدت أن سمعان القانوى(٥) هو الذى صلب بدله »(٦) ، وهو ما يدعم بالآيات القرآنية من سورة النساء والتى ذكرناها آنفاً .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ١٢٥ ـ ٢٠٠ .

(٢) جاء فى إنجيل لوقا فى الإصحاح الثانى ذكر أن عيسى كان له أب هو يوسف النجار وأمه هى مريم ، فمثلاً جاء فى جملة رقم (٤١) من نفس الإصحاح : « وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم فى عيد الفصح » (المترجم) .

(٣) انظر كتاب « المسيح رجل أم إله ؟ » للأستاذ م. مرجان ـ دار النهضة ـ القاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٤) الباسليون : طائفة من رهبان الكنيسة الشرقية ويتبعون قانون القديس باسيليوس الكبير فى الرهبنة ، ويعيشون فى وحدات متفرقة مستقلة دون سلطة مركزية ، وأشهر أديرتهم بجبل آثوس باليونان ، وطور سيناء بمصر . (المترجم) .

(٥) سمعان القانوى : حوارى من حواريى عيسى الاثنى عشر ويسمى الكنعانى أو الغيور (المترجم) .

(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) وفى المرجع انظر ص ٢٤٨ .

فتسجيل القرآن للأنبياء الذين ورد ذكرهم فى العهد القديم هو الذى يعطيهم حقهم وينصفهم ، حيث إن الله تعالى قد اختارهم وأعدهم ورضى عنهم ، فعملوا هم بدورهم على أن يتقوا الله حق تقاته ، وقدموا أمثلة رائعة على السلوك الأخلاقى الممتاز ، وعلى الخضوع لأوامر الله ، يقول القرآن فى حق نوح عليه السلام : ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على نوح فى العالمين * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ [الصافات آية ٧٥ ـ ٨١]

وهنا نجد اختلافاً مباشراً مع وجهة النظر الكتابية حين وصفت نوحاً بأنه قد شرب خمراً حتى الثمالة ثم لعن ابنا من أبنائه[١] .

وكذلك جاء ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فى مواقع متعددة من القرآن مقترناً بكل معانى الشرف والكرم والإخلاص ، ووصفوا بتمسكهم الشديد بالتوحيد ، وبصدقهم وتنفيذهم للتوجيهات الإلهية :

﴿ **سلام على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾

[الصافات آية ١٠٩ ـ ١١٣]

ورغم هذا نجد أن النسخ الحالية للكتاب المقدس تصف إبراهيم عليه السلام بأنه كان يشاور النجوم بحكم العادة[٢] ، وبأنه هو وإسحاق كانا يتبرآن من زوجتيهما ، ويدعيان أنهما أختاهما ، وهذه مقاطع من الكتاب المقدس تثبت هذا :

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

(٢) انظر قائمةا لمراجع الأجنبية تحت (Rodwell) وفى المرجع انظر ص ٣٢٤ .

« وانتـقل إبراهيـم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قـادش وشور وتغرّب فى جرار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة ... » (سفر التكوين ـ الإصحاح العشرين ١ـ٢)

« فأقام إسحاق فى جرار ، وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هى أختى لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر »

(سفر التكوين ـ الإصحاح السادس والعشرين ٦ـ ٧)

وفى الكتاب المقدس وصف يعقوب عليه السلام بالكذب والمخادعة عندما خدع أباه المسن الأعمى ، وسرق البكورية من أخيه عيسو واستولى على مباركة أبيه[1] .

ونجد فى القرآن الكريم تحية للنبى لوط عليه السلام كرسول مبارك من عند الله الذى أنجاه وأهله إلا امرأته من العقاب الذى حاق بسدوم بعد أن بذل لوط مع قومه ـ أهل سدوم ـ جهداً جباراً لإقناعهم بالإقلاع عن عاداتهم القبيحة : **﴿ وإن لوطا لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين *ثم دمرنا الآخرين ﴾** [الصافات آية ١٣٣ ـ ١٣٦]

ولعل صورته هذه وصورة ابنتيه المؤمنتين لا تتفقان بأى حال من الأحوال مع المزاعم الكتابية حول سكره ومضاجعته لهما ـ سفاح الأب ببناته ـ دون حتى أى تعليق من لوط نفسه .

« وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما

(١) انظر سفر التكوين ـ الإصحاح السابع والعشرون .

خمراً فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث فى الغد . أن البكر قالت للصغيرة إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلى اضطجعى معه فنحيى من أبينا نسلا فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما » (سفر التكوين ـ الإصحاح التاسع عشر ٣٠ ـ ٣٦) .

وعن داود عليه السلام الذى وصفه القرآن بالطهر والعفة وبأنه العبد الأواب تم اختلاق افتراءات مشابهة[١] .

وهكذا نرى الاختلافات القاسية بين تصوير الأنبياء الدنئ الموجود فى الكتاب المقدس فى وضعه الحالى ، وبين الصورة المثالية التى خلعها القرآن عليهم ، وهذه الاختلافات تثبت شيئين :

أولهما : أن النبى محمداً ﷺ لم يكتب القرآن أبداً بعدما تلقى العلم على أيد اليهود والنصارى ، كما يزعم مستشرقون عديدون[٢] وهو ما يعزز كذلك استنتاجاتنا فى الفصل الثانى .

وثانيهما : أن الله هو الذى أنزل القرآن ، واختار الرسل وجعلهم أتقياء ورعين متصفين بالسلوك الشريف ، وهذا القرآن ـ وهو كلمة الله ـ يقف بالمرصاد لكل زعم يفترى على رسل الله تعالى .

من ناحية أخرى وكما نعلم ؛ وحسب ما جاء فى القرآن ؛ يباح للمسلمين وأهل الكتاب أن يأكل كل منهم طعام الآخر شريطة أن يكون حلالاً ، كما يباح للرجال المسلمين أن يتزوجوا بنساء من أهل الكتاب .

---

(١) انظر سفر (صموئيل الثانى) ـ وخاصة الإصحاح الحادى عشر والثانى عشر .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jeffery) كتاب (سور من القرآن) ص ٢٢٧ ، وكذلك تحت (Lane) ، وتحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) ، وكذلك تحت (Bethman) .

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [المائدة آية ٥]

وللمسيحيين ولليهود مطلق الحرية فيما يعبدون فى كنائسهم الخاصة ومعابدهم ، بل هم مأمورون بأن يطبقوا القوانين التى تلقوها من الرب سبحانه : **﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾** [المائدة آية ٥٠]

﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ [المائدة آية ٦٨]

كذلك يثنى القرآن على المتقين من أهل الكتاب بغض النظر عن كونهم إما رجال دين أو غيرهم : **﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾** [آل عمران آية ١١٣]

موقف الإسلام تجاه المسيحيين والكتاب المقدس :

يعد ما فعله النبى ﷺ مع المسيحيين أول مثال يوضح مدى السماحة التى يبديها المسلمون تجاههم ، وذلك عندما منح رهبان دير سانت كاترين ـ وهو يقع بالقرب من جبل سيناء ـ منحهم فى عام (٦ هجرية) ومنح كل المسيحيين إقراراً [١] « يعد من أعظم الآثار فى التاريخ ، التى تدل على التسامح الشديد ، وبمقتضاه ضمن النبى ﷺ للنصارى امتيازات وحصانات لم يكونوا ليحصلوا عليها فى ظل حكم

(١) ليس فى تاريخ الرسول ﷺ شىء من هذا ، ولعله ينسب إلى عمرو بن العاص . (المترجم) .

أناس آخرين ، حتى ولو كانوا شركاءهم فى عقيدتهم »[1] ، وقد باشر النبى تنفيذ الإقرار بنفسه ، وفرض على صحابته حماية النصارى والدفاع عن كنائسهم وأديرتهم ، بل وحمايتهم من كل إيذاء وظلم يقع عليهم، وعليه لم يكن يمكن أن يفرض عليهم ضرائب باهظة ، ولم يرغم مسيحى على ترك دينه ، ولا أى راهب على مغادرة صومعته ، ولم يمنع حاج عن حجه ، وكذلك لم تكره أى من النسوة النصرانيات اللواتى تزوجن من رجال مسلمين على ترك دينها ، بل وحتى لو حدث أن خاض المسلمون حرباً مع مسيحيين آخرين فلا يمكن عندئذ أن يلقى مسيحى يقيم بين المسلمين أدنى معاملة سيئة بسبب عقيدته . وقد أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام أن أى مسلم يؤذى ذمياً فقد برئت منه ذمة الله ورسوله .

وقد بدت للعلاقة الأخوية الحميمة بين المسلمين والنصارى أمثلة كثيرة ، فعندما هاجر المسلمون الأوائل هرباً من عذاب كفار مكة ، كانت الحبشة النصرانية هى الملاذ والمأوى للمهاجرين الأولين ، ولقد رحب المسلمون بانتصار الدولة البيزنطية المسيحية على الدولة الفارسية الزرادشتية وسجّل هذا فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم* وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [الروم آية ١ ـ ٦]

لقد أعجب كثير من الكتاب بما لقيه كل ما هو مسيحى من طيبة وسماحة ولطف فى ظل الحكم الإسلامى[2] ، ذلك أن النصارى كانوا

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Ali) وفى المرجع انظر ص ٨٤٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص٢٤٠، وتحت (Sale) وفيه انظر ص ٣٨ ـ ٥٠ ، وكذلك تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) .

فى الحقيقة أكثر أمناً فى ظل الإمبراطورية الإسلامية منهم فى ظل شركائهم فى الدين فى القسطنطينية، والذين لم يشاركوهم فى مذهبهم.

ويخبرنا (دانيال) (Daniel)[٢] عن شعارات أعلنتها مجموعة من المسيحيين المتعصبين فى القرون الوسطى وقد جاءوا إلى البلدان الإسلامية للتبشير بالمسيحية داخل المساجد على أمل أن يموتوا شهداء ، وأن السلطان استقبل هذه المجموعة من المتعصبين بكرم ولطف ، ورثى لفقرهم وحالتهم العقلية غير المتزنة ، والتى رجّح أنها من فرط صيامهم وإجهادهم فى السفر الطويل .

ولكن أتت بعد ذلك الصدمة والمفاجأة ؛ لقد جاء الصليبيون «ليحرروا» القدس من أيدى العرب فى سبيل يسوع ، فحطموا رؤوس الأطفال فى الجدران ، وشووا الرجال بالنيران ، وشقوا أجساد بعضهم بحثاً عما قد يكون فى أجوافهم من الذهب ، وحشروا الآلاف من اليهود فى معابدهم وأحرقوهم فيها ، والأدهى من ذلك شوهد مبعوث بابا الكنيسة الكاثولوكية وهو يشهد الاحتفالات بالنصر !!

حتى لقد عبّر المؤرخ (جيبون) (Gibbon) فقال : « لا يوجد وحش مفترس على الإطلاق أشد عداوة للإنسان يمكن أن يأتى بمثل ما يحدث من طوائف المسيحية ، بعضهم ضد بعض »[٣] .

ويتحدث (هـ. ج. ويلز (H. G. Wells) عن وصمة أخرى من وصمات التاريخ المسيحى فيقول : « لقد بشّر شارلمان (٧٧١ ـ ٨١٤) بالإنجيل فى بلاد السكسون الوثنيين وعند البوهيميين[١] وحتى نهر الدانوب ، بشر هناك بالسيف والنار ، كما أنه سار بنفس المنهاج عندما

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ١٢٥ ـ ٢٠٠

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Ali) وفى المرجع انظر ص ٢٢٠ ـ ٢٣٠ .

(٣) بوهيميين : نسبة إلى مقاطعة بوهيميا بتشيكوسلافيا (المترجم) .

اتجه جنوباً بمحاذاة ساحل البحر الأدرياتيكى »[1] .

أما الحكام اليهود فلم يكونوا بأقل قسوة وعنفاً،فهاهو ذا (ذو نواس) حاكم اليمن فى القرن الخامس ، وقد ألقى بالشهداء المسيحيين داخل أخدود يتأجج نيراناً ، حتى لقد قرر (موير) (Muir) أن عدد الضحايا كان يجاوز العشرين ألفاً ، ولم يكن يدانى هذا العذاب فى بشاعته وهوله إلا ما أتى به الحكام المسيحيون بعد ذلك من تنكيل باليهود الذين اتهموا بصلب المسيح ، فقد « كان الأطفال عرضة لأن تمزق أذرعتهم بعيدة عن أجسادهم ، وكانوا ينهبون البضائع بأمر من البارون والقسيس ، وتحت سمع الجماهير الثائرة الساخطة وموافقتهم »[2] ، وظلت الحال على ما هى عليه حتى نهاية القرن السابع عشر ، وعليه فقد « كان الحكم الإسلامى يعد نعمة إلهية عظيمة ، وكان الملجأ الوحيد لأولئك اليهود الذين يعيشون خارج الإمبراطورية الإسلامية »[3] .

ومما لا شك فيه أن المسيحيين فى القرون الوسطى كانوا يحظرون دعوة « أولئك الذين يهاجمون المسيحية بادعائهم الطهارة فى الطعام » إلى منازلهم أو حتى للأكل معهم ، وما لبثت الكنيسة أن حرّمت على الأمراء المسيحيين أن يسمحوا برفع الأذان من المساجد فى أقاليمهم التى يحكمونها[4] .

وهكذا ؛ فإن ما ترتكبه الحكومات المسيحية واليهودية من جرائم قمعية ضد كل ما هو مسلم يجئ مناقضاً تماماً للمعاملة الحسنة التى تلقتها أقلياتهم الدينية فى ظل الحكومات الإسلامية عبر القرون .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) جزء (٢) ص ٥١٣ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Ali) ص ٢٧١ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (المحمدية) ص ٨٣ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ١٢٥ ـ ٢٠٠ .

ماذا حدث لمجتمعات اليهود حول المدينة ؟

كانت هناك ثلاثة من التجمعات اليهودية قاطنة فى المدينة وحولها وهى : يهود بنى النضير ، ويهود بنى قينقاع ، ويهود بنى قريظة ، كما كان هناك يهود أيضاً يسيطرون على قرية تدعى (خيبر) ، ولا تبعد كثيراً عن المدينة . وكان اليهود قبل ظهور الإسلام يشعرون بسبب كتابهم المقدس بتفوق له ما يبرره على جيرانهم الذين كانوا وثنيين ، لذا كانوا يتباهون أمام هؤلاء العرب ويقولون لهم : « إن لدينا نبوءة كتابية بأن نبياً قد آن أوانه ، سنتبعه ونحارب معه وسنقتلكم قتل عاد وإرم »[١] ، وقد اعتمدوا فى ذلك على ما جاء فى سفر التثنية من : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فيه فيكلمهم بكل ما أوحيه به » (سفر التثنية ـ الإصحاح الثامن عشر ـ ١٨) ، وهذه العبارة يمكن أن تكون موجهة إلى نبى كموسى عليه السلام وهو نبى من بنى إسرائيل ـ وبلّغ بها عن ربه ـ وربما تتحدث عن نبى من بين إخوتهم بنى إسماعيل ، ولكن الذى حدث أنه لدى تحقق النبوءة بظهور النبى محمد عليه الصلاة والسلام من بين أبناء إسماعيل بمكة رفض المجتمع اليهودى أن يؤمن به ، وأدان النبوءة ، وزعم أن النبى المنتظر لا يمكن أن يأتى من خارج مجتمعهم[٢] ، وهذا ما سجّله القرآن :

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب

---

(١) انظر كتاب (الرد الصحيح على من بدّل رسالة المسيح) للعلامة ابن تيمية ـ القاهرة ١٩٣٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٤٥ ـ ٦٥ .

على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾

[البقرة آية ٨٩ _ ٩١]

وعلى الرغم من أن أحبار اليهود وزعماءهم قد أظهروا الود فى البداية فإنهم تحولوا عنه ، وصاروا من ألد أعداء الرسول ﷺ بعد ذلك[1] ، فقد اتصلوا بالمشركين فى مكة وغيرها ، وعرضوا عليهم المساعدة لضرب محمد عليه الصلاة والسلام وجماعته الصغيرة المتنامية من المؤمنين ، وهو ما يشير إليه القرآن فى قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾

[النساء آية ٥١ _ ٥٢]

وفى الوقت نفسه كان عرب المدينة منقسمين إلى قبيلتين هما الأوس والخزرج ، وكانت المشادات والحروب مستعرة بينهما عبر أجيال ، ولكن عندما وصل الرسول عليه الصلاة والسلام ابتدأ جواً من السلام والتعاون ليشمل كل القاطنين بالمدينة من العرب واليهود ، فقد رسّخ قواعد الأخوة بين أهلها وأنهى الحرب المحتدمة بين القبائل ، وآخى بين المهاجرين والأنصار فى الدين ، فكانت أخوة لا تبارى ، وباتت عراها أقوى من عرى الدم والنسب .

ولنعلم أن النبى ﷺ أعطى فور وصوله إلى المدينة عهداً لكل ساكنيها[2] ، وفيه عرّف حقوق كل مجتمع بها وواجباته ، وكان يحوى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) .

(٢) انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ _ القاهرة .

حوالى عشرين بنداً تعالج جميع نوا-ى العلاقات المختلفة بين المؤمنين بعضهم وبعض وبين باقى المجتمعات ، وقد كان منها خمسة عشر بنداً لرعاية حقوق اليهود [١].

ولا شك فى وجود مجموعة من الدارسين والأحبار اليهود غير المتعصبين ، الذين رحّبوا بحماس بالنبى عليه الصلاة والسلام فى المدينة، وأعلنوا دخولهم فى الإسلام وأنهم سوف يعتبرون أنفسهم حواريين ومريدين للرسول ، الذى سيصبح سيداً مطاعاً فيهم[٢] ، ويبرز من بينهم عبد الله بن سلام ، ذلك الذى أصبح من أكثر الصحابة قرباً من النبى ﷺ .

لقد تبنت أغلبية المجتمع اليهودى لسوء الحظ موقفاً عدائياً مخاصماً متحدياً لمحمد ﷺ ، ولم يؤمنوا به إطلاقاً ، وكانوا فى موقفهم هذا تحت إمرة اثنين هما : رافع بن حريملة ، ووهب بن زيد[٣] اللذين « نصّبا من أنفسهما خصمين لدودين للنبى متهكمين منه » ، وعادوا المجتمع المسلم ككل[٤] ، ونشروا ـ لكى يزعزعوا إيمان المسلمين الجدد ـ شائعات حاقدة وأعلنوا أن النبى عليه الصلاة والسلام ليس إلا دعياً أفاكاً ، جاء رافع مرة وقال ساخراً متحدياً : « يا محمد إن كنت رسول الله حقاً كما

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى الحاكم) ص٢٤٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K. W. Morgan) وفى المرجع انظر ص ٢٥ .

(٣) قال ابن إسحاق : وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ : يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجّر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك فأنزل الله تعالى فى ذلك ما من قولهما : ﴿ **أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل** ﴾ (البقرة آية ١٠٨) ، وقال ابن إسحاق أيضاً : وقال رافع بن حريملة لرسول ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ **وقال الذين لا يعلمون ...** ﴾ (سيرة ابن هشام ١٧٤/٢ ، ١٧٦) (المترجم) .

(٤) انظر كتاب « محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل » تأليف م. وصفى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ ـ القاهرة .

تزعم فاسال الرب أن يأتى ويكلمنا »[1] ، ولعل القرآن قد سجّل مثل هذه التحديات فى قوله تعالى : **﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾** [البقرة آية ١١٨]

أما الآخر فقد هزأ قائلاً : « يا محمد ، أنزل علينا كتاباً مكتوباً على رقائق من السماء لعلنا نقرؤه ، أو حوّل هذه الأرض إلى بساتين وأنهار وإلى ربيع دائم »[2] ، ويعلن ثالث أن النبى عليه الصلاة والسلام على خطأ ، ثم يتهكم ويدعوه إلى اعتناق اليهودية : **﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾**
[البقرة آية ١٣٥]

ومما لا شك فيه أن التأثير الذى كان يحدثه الشعر فى ذلك الوقت يناظر تماماً ما تحدثه الآن محطة إذاعة أو جريدة يومية مقروءة وذات انتشار واسع .

ومن ناحية أخرى ركّز كعب بن الأشرف ، وهو الشاعر الناطق باسم يهود المدينة على إنشاد القصائد المختلفة التى تشوه سمعة الرسول ﷺ وصحابته ، وقال كذلك قصائد أخرى ضمّنها تحريضاً للمشركين على حرب النبى ، وتعرض فى أخرى للنساء المسلمات ، وكان ينشد أشعاره بمكة وبأماكن أخرى ، حيث تقام الأسواق ، وامتد نشاطه إلى أبعد من ذلك ؛ حيث اتجه إلى عقد معاهدات مع عديد من زعماء المشركين ، « وبمرور الأيام ، وبإبرام المعاهدات مع مشركى مكة ، تكاتفت كل القوى لتقف فى وجه محمد »[3] .

وقد نجد أن بعض أحبار اليهود وحلفائهم من أمثال ابن سلول قد

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص٤٥ ـ ٦٥ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص٤٥ ـ ٦٥ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ٥٣ ـ ٢٠٠ .

اعتنقوا الإسلام بصورة ظاهرية ، وظلوا فى الوقت نفسه متحالفين مع قريش وقبائل أخرى فى محاولة لتقويض المجتمع المسلم من داخله ، وإلى ذلك يشير القرآن :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون * الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير * يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة آية ٨ ـ ٢١]

ويجب ألا ننسى أن المدينة وقتئذ كانت ولاية فى المهد ، وتعمل قريش وحلفاؤها على النيل منها لوأدها من جميع الاتجاهات، ولا نحتاج هنا إلى التأكيد بأنه فى حالة الحرب يجب أن يؤخذ الخونة وصنّاع الفتن بحزم شديد .. ، كما أن أغلبية طوائف اليهود بالمدينة وما حولها قد أخلفت ما تضمنه العهد الذى أعلنه النبى ﷺ فور وصوله ، والذى كانوا

قد وافقوا عليه ، كذلك رأينا كيف تصرف عدد من أحبارهم وزعمائهم وشعرائهم ، ومن ثمّ فإننا نجزم أن « النبى قد احتمل الكثير من انحرافاتهم التى قضت بخطوة جادة تجاههم »[1] .

بنو قينقاع :

وقد استقرت هذه القبيلة في إحدى مناطق المدينة ، واشتركت في حرب الشائعات والفتن ـ سراً وجهراً ـ ضد المسلمين ، وقد حدث أن كان هناك فى المنطقة التى يعيش فيها بنو قينقاع سوق للذهب وللجواهر تتألف من عدد من الصوّاغ ، وذات صباح ذهبت امرأة مسلمة هناك لتتسوق ، فتعرض لها عدد من شبان اليهود ، كأنما أرادوا إحداث فتنة ، فهزأوا بها وكشفوا عورتها ، فلما انكشفت سوأتها ضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون[2] .

وعندما هرع النبى ﷺ وأصحابه لاستعلام الخبر[3] ، استخف بهم زعماء اليهود وتحدوهم قائلين : « يا محمد ، إنك ترى أنّا قومك ، لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس »[4] ، وبغضب عميق ، أمر النبى بضرب حصار حولهم ، واستمر الحصار خمس عشرة ليلة ، حتى

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٤٥ ـ ٦٥ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، الجزء الثانى ص ٤٢٧ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٤٠ ، وكذلك انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ سنة ١٩٧٠ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) ، وكذلك انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ ـ القاهرة وفيه انظر ص ٨٦ ، ٩٢ .

أتى عبـد الله بن ابى بن سلول متوسطاً لصالح المتمردين ، فرفع الحصار عنهم مع استسلامهم ، ولكن بشرط أن يتركوا كلهم المدينة بأمر النبى ﷺ فى غضون ثلاثة أيام ، آخذين معهم كل ما يملكون ، وحاول ابن سلول الوساطة لصالحهم مرة أخرى من أجل العفو والسماح لهم بالبقاء، ولكن المسلمين حالوا بينه وبين الوصول إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن ثمّ أذعن بنو قينقاع للرحيل .

بنو النضير :

وكانت هذه الجماعة تقطن ضواحى المدينة ، وقد عاهدت هى الأخرى النبى ﷺ على التحالف معه ومساعدته ضد أعدائه ، وعلى الإسهام فى مواجهة الأزمات الاقتصادية وفى مقابل ذلك يتمتعون بكل الامتيازات والحقوق التى أوردناها فى بداية هذا الجزء .

وعلى مبعدة من المدينة تحالفت قبيلة مشركة أخرى هى قبيلة بنى عامر مع النبى ﷺ ، وحدث أن أسلم أحد زعمائها وطلب من النبى أن يرسل وفداً ليعرض الدين الجديد على قبيلته ، فأرسل النبى ﷺ أربعين صحابياً لأداء هذه المهمة ، ولكن للأسف ، لقد بدت الخيانة فى الأفق ، فقد كان لهذا الزعيم ابن أخ ، عدوانى متعطش للدماء ، فأصدر أمراً بقطع الطريق على الأربعين صحابياً وأسرهم ، فأخذوهم غدراً ، إلا أنهم استطاعوا إبداء بعض المقاومة ، التى أدت إلى قتلهم جميعاً ، عدا اثنين استطاعا الهرب ، وفى طريق عودتهما اعترض أحدهما رجلين من قبيلة بنى عامر وقتلهما ، ثأراً للثمانية والثلاثين من أصحابه ، إذ إنه لم يكن يعلم أنه بهذا التصرف قد نقض العهد والجوار بين النبى وبنى عامر.

ولكن الرسول ﷺ ـ وهو مثال العدل والاستقامة ـ لم يعترض على دفع دية القتيلين من بنى عامر ، عقاباً لهم على قتلهم رجاله الثمانية والثلاثين ، وإنما حاول أن يجمع المال المطلوب من المجتمع المسلم ، ومن

حلفائه بنى النضير ، فذهب يستعينهم ، فطلب منه أفراد القبيلة أن ينتظر خارج سور حصنهم الشاهق ، وبينما هم يتظاهرون بإحضار المال له ، تسلق أحدهم ويدعى عمرو بن جَحّاش بن كعب ، إلى أعلى الحائط ، صعد ليلقى صخرة لقتل محمد[1] ، ولكن النبى ﷺ قبيل وقوع الخطر ألهم الخبر من السماء ، فقام راجعاً إلى المدينة ، ثم ذهب إلى المسجد ، وأصدر أمراً بالتهيؤ لبنى النضير ، لحربهم ، وإجلائهم عن المدينة فى غضون عشرة أيام ، ولكنهم رفضوا وتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر الرسول بحصارهم وتحريق نخلهم إرهاباً لهم ، وفى خلال ذلك أوعز ابن سلول وعصبة من المنافقين إليهم ، أن اثبتوا وتمنعوا فإنّا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وهو ما أشار إليه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **ألم ترى إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ [الحشر آية ١١ـ١٢]

ومرت خمسة عشر يوماً ، والمتمردون فى الحصن حتى رفع الحصار، ورحل بنو النضير إلى خيبر ، وقد أخذوا معهم ستمائة من الإبل المحملة بالأمتعة والأموال إلا السلاح .

بنـو قريظــة :

وهذه قبيلة أخرى كانت تسكن فى ضاحية محصنة من ضواحى المدينة ، وقد عاهدت هى الأخرى النبى ﷺ ، وتعهدت بمساعدته ضد المشركين ومنعهم من دخول المدينة ، وقام بذلك زعيمهم كعب بن أسد

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وكذلك انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ ـ القاهرة

القرظى ، ولكن على الرغم من وجود المعاهدة هرع اليهود إلى إرسال المندوبين فى كل مكان مرددين مزاعمهم عن « الدعى الدجّال »[1] ، كما قاموا بتوثيق صلاتهم سراً مع مشركى مكة وحضوهم على الاتحاد ضد محمد طالما بقى أى من الطرفين على قيد الحياة .

وقد سألتهم قريش : « يا معشر اليهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فما كان من زعمائهم إلا أن أجابوا : « بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه » ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾ [النساء آية ٥١ ـ ٥٢]

ونجح اليهود فى تهييج القبائل المتاخمة للمدينة وهى غطفان وأسد وسليم ، وبناء عليه أتى مارس من عام (٦٢٧) ميلادية وكانوا قد اتحدوا مع أهل مكة ومع أكبر القبائل العربية ، واستعد عشرة الآف مقاتل بقيادة أبى سفيان لاجتياح المدينة[2] ، وفى أثناء ذلك أقنع بعض من أصحاب الشأن اليهود[3] زعيمهم كعب بن أسد بأن ينبذ العهد بينه وبين النبى عليه الصلاة والسلام .

وعندما علم النبى بأن قريشاً وحلفاءها تعد للانقضاض على المدينة، أدرك هو وصحابته وجوب التحرك السريع ، واستقر الرأى على حفر خندق عميق حول المدينة من ثلاث جهات ، وترك الرابعة ، وفيها حصن بنى قريظة ، إذ إنه وفقاً لشروط الاتفاق تتعهد هذه القبيلة بصد أى

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٤٥ ـ ٦٥ .

(٢) انظر المرجع السابق وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K.W. Morgan) وفى المرجع انظر ص ٢٥ .

(٣) هو حيى بن أخطب النضرى (المترجم)

عـدوان يبتغى دخول المدينة من ناحيتهم ، وانهمك المسلمون فى الحفر ليل نهار ليكون عميقاً واسعاً ، وانتهوا منه قبل مدة بسيطة من ظهور جيش العدو الذى سقط فى يده عندما رأى الخندق الدفاعى الذى لم يعهدوه كخطة فى حروبهم ، ومن ثمّ عاق الخندق هجومهم على المدينة، فعسكروا على الجانب الآخر ، واكتفوا بالرمى على المدافعين، حتى إن القلة التى تجرأت وحاولت عبور الخندق فوق ظهور الخيل لاقت حتفها أثناء المحاولة .

ولقد شك الرسول عليه الصلاة والسلام فى بنى قريظة وفى حفظهم للعهد ، ولكنه آثر أن يتأكد، فأرسل نفراً من الأنصار البارزين وفيهم سعد ابن معاذ وسعد بن عبادة وكانا من حلفاء بنى قريظة ، وعندما وصلوا إلى حصن بنى قريظة وبدأوا يتناقشون هالهم تصرف اليهود ، وقولهم ، إذ أخذوا يصرخون ويصيحون : « من هو رسول الله ؟ لم يكن بيننا وبين محمد أى ميثاق ولا حتى أى عهد ! »[1] ، وعندئذ اغتاظ سعد بن معاذ وأخذ يكيل لهم السباب والإهانة ، ولكنْ رفاقه أثنوه عن المضى فى ذلك، مشيرين إلى أن الموقف قد أصبح خطيراً ، ومن ثم عادوا أدراجهم إلى ساحة الحرب حيث أخبروا النبى سراً بغدر بنى قريظة .

ولكن العناية الإلهية أبت إلا أن تكون مع المؤمنين ، فهبت الرياح فى ليلة مظلمة ، ودمر المطر الغزير معسكر الأعداء وأخمد نيرانهم ، وقوضت العاصفة الهائلة بعض الخيام وفرت الخيل والإبل فى ذعر ، وارتبك جيش قريش وحلفائها وامتلأت قلوبهم بالتشاؤم والخوف ، فالوقوف أمام الخندق كان سيئاً ثقيلا على نفوسهم ، ولكن هذا الدليل الواضح على الغضب الإلهى جعلهم يقررون الرحيل ، وطلعت شمس

---

(١) انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف محمد وصفى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ ـ القاهرة ، وانظر كذلك قائمة المراج الأجنبية تحت (Muir) ج ٣ ص ٥٥٩ .

اليوم التالى على فرار الجميع ، وانتهت المعركة بفضل هذه الرياح المعجزة ، ودون حاجة إلى قتال حقيقى .

وذهب النبى بعد الظهر إلى بنى قريظة يطلب توضيحاً وتفسيراً ، ولكن اليهود ردوا عليه بأن جهزوا الحصن وأعدوا العدة للقتال ، لذلك أصدر النبى الأوامر وللمرة الثالثة بضرب الحصار حولهم ، واستمر لمدة خمسة وعشرين يوماً حتى تسلم سعد بن معاذ من اليهود رسالة يطلبونه فيها للوساطة ، وكان سعد رضى الله عنه قد جرح جرحاً قاتلاً أثناء المعركة ، وكان عليه أن يحمل من بيته إلى مجلس النبى ﷺ ، وجاء سعد وسأل النبى وزعماء اليهود إن كانوا يرضون بحكمه ، فوافق الطرفان وعندئذ نطق سعد بالحكم الرهيب وهو : « أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء »[1] .

إن الحكم رهيب ولكنه عادل ، وتم تنفيذه عقاباً لبنى قريظة على خيانتهم العظمى فى تلك الفترة الحرجة من حياة مجتمع المدينة ، وقد يكون مشابهاً لما أصدره الأنبياء الكتابيون وما نفذوه من أحكام ، ولكنه لم يصل إلى درجة القسوة والفظاعة التى ظهروا بها ، وذلك أننا نقرأ فى العهد القديم مثلاً أن صموئيل قال لشاول : « ... فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كل ما له ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجلا وامرأة ، طفلاً ورضيعاً ، بقراً وغنماً ، جملاً وحماراً » (صموئيل الأول ـ الإصحاح الخامس عشر ـ ٢٣) .

إن الكثير من المستشرقين يكتبون وقد أغفلوا تماماً الخيانة الشنيعة التى بدت من بنى قريظة ـ عن « القسوة » و« الجرم الشنيع الشائن » ، ولكننا نرى أن الخيانة العظمى التى جاءت بعد حادثتين سابقتين من التمرد والعصيان ونقض العهد لا تستحق غير الحكم الكتابى القاسى

(١) انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) ص ١٠٨ ـ ١٢٥ .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٤٠

الذى نطق به سعد بن معاذ ، وهو حكم الله فيهم من فوق سبع سماوات .

يهود خيبر :

بعد خروج يهود بنى قينقاع ويهود بنى النضير ، توجهوا إلى خيبر التى استوعبتهم مع ما فيها من قبائل يهودية أخرى ، ولقد ظل « يهود خيبر وخاصة زعماء بنى النضير ساخطين على محمد ، فسخّروا ثروتهم لحث القبائل العربية المجاورة للاحتشاد لحرب المسلمين »[1] .

ومن بين قبائل خيبر كانت قبيلة سلاّم بن أبى الحُقَيْق ، ذلك الذى شعر « بمرارة وغصة بسبب المسلمين ، ولبغضه لهم ولمحمد بذل كل المحاولات لإثارة القبائل المجاورة بما فيها سُلَيْم وغطفان ضدهم ، ولا شك فى أنه كان مستحيلاً على المجتمع المسلم أن يسكت عن هذه المؤامرة المكشوفة التى تنفذ بوساطة أناس لا يطمعون هم إلا أن يكونوا محايدين ، كما أن المجتمع المسلم كله فى خطر ، وينبغى القضاء على هذه المخططات الغادرة مراعاة لأبسط قواعد السلامة »[2] .

وفى النهاية عندما أصر يهود خيبر على أن يجعلوا من أنفسهم بشراً لا يطاقون مطلقاً ، فرض الرسول ﷺ حصاراً حولهم حتى استسلموا رغم أن قلة منهم حاربت حتى الموت ، وكان من شروط التسليم أن يدفع أولئك الذين أرادوا البقاء جزية للنبى ، بينما آثر آخرون الرحيل ، ولكن (منيزس) (Menezes) لم يكن منصفاً ، ولا أميناً ، حينما زعم أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أغار عليهم ليستولى على ثرواتهم[3] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٤٠ .

(٢) انظر كتاب (محمد عليه الصلاة والسلام وبنى إسرائيل) تأليف م. وصفى ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ ـ القاهرة ص١٠٨ ـ ١٢٥ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٤٥ ـ ٦٥ .

بيد أن بقاء بعض اليهود فى المدينة يظل حجة ضد أولئك الكتّاب الأوربيين الذين زعموا أن محمداً ﷺ قد تبنى سياسة إخراجهم من المدينة لمجرد أنهم يهود[1] .

موقف القرآن من المشركين وغيرهم :

كان على المسلمين أن يعاملوا المشركين واللادينيين كالشيوعيين على أنهم بشر مختلفون ، فكل من الاعتقاد بوجود آلهة متعددة أو بعدم وجود إله على الإطلاق يعد إثماً لا يغتفر ، وكما أدان القرآن الكريم الشرك ، فالإنسان أيضاً عندما لا يؤمن بالله يبدو جاحداً لخالقه ، ولعل هذا ما يبين لماذا لم تعترف دولة إسلامية كالسعودية لعشرات السنين بالدول الشيوعية كروسيا التى تتبنى سياسة الإلحاد العلمى[2] ، وتطبقها على نفسها ، بل وتدعو لتطبيقها على مجتمعات أخرى ، ولا شك فى أن كلمات (لينين) الغابرة « بأننا نحتقر ونزدرى كل فكرة دينية ، وكل فكرة إلهية وكل نزعة إلى التأليه » ـ لا شك فى أنها أثرت كثيراً فى هذا القرار[3] .

كيف تم تقديم الإسلام إلى الآخرين ؟ :

لقد سجل (دانيال) (Daniel) أن كتّاب القرون الوسطى قد اتهموا محمداً بشدة بأنه قد فرض الإسلام على الآخرين «بالعنف والقوة »[4] ، وقد كرر (وولستون) (Wollaston) و(منيزس) (Menezes) حديثاً نفس الاتهام الذى كرره كذلك مؤخراً (دى جرامونتس) (De Gramants)[5] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢٤٠

(٢) سقط النظام الشيوعى والحمد لله وزال معه الإلحاد الماركسى فى عام ١٩٩١(المراجع).

(٣) مجلة (Time) عدد ١٩٧٩/٦/١١ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel)وفى المرجع انظر ص ١٢٥ ـ ٢٠٠ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (De Gramonts)

فعلى سبيل المثال زعم (وولستون) : « أن القرآن والسيف وجهان لعملة واحدة تتلقى صورتها العين على كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى »[1] ، بينما كرر (مينزس) فقال : « إن الدين الإسلامى يدين للسيف بتقدمه واستقراره »[2] .

ولكن (سيل) (Sale) لم يصدق هذه المزاعم ـ وقد جاء فى القرن الثامن عشر ـ وأشار إلى « أنهم ـ يعنى الكتّاب ـ قد خدعوا من يتصور الإسلام قد انتشر بحد السيف وحده »[3] ، كذلك أكد ذلك كتّاب لديهم حصيلة علمية أكثر من أمثال (لين) (Lane)[4] الذى جاء فى القرن الماضى ، ومن أمثال (هـ. ج. ويلز) (H.G. Wells)[5] و(جيردنر) (Gairdner)[6]. و(بالجون) (Baljon)[7] الذى جاء فى هذا القرن ، إلى أن جاء (رودينسون) (Rodinson)[8] مؤخراً وبرأ الحكام المسلمين عندما كتب يقول : « إنهم لم ينشروا الدين بالقوة كما يعتقد فى أوروبا، بل على العكس فإنهم لم يؤمنوا بها ـ أى بالقوة ـ أبداً » .

ومن الثابت والمعروف تاريخياً أن النبى ﷺ كان يبشر فى مكة بالإسلام بسلام تام وقد تحمل العداء الشديد والتعذيب الواقع بجماعة المؤمنين الصغيرة المتنامية ، وكذلك فى المدينة وحتى نهاية حياته .. لم يستخدم سوى أساليب المسالمة الشديدة فى الإقناع .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Wollastom) وفى المرجع انظر ص ٢٧ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ٦٣ ـ ١٦٥ .
(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وبالمرجع انظر ص ٣٨ ـ ٥٠ .
(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lane) وفى المرجع انظر ص ٧٢ ـ ٧٨ .
(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H. G. Wells) جزء ٢ ص ٤٨٨ .
(٦) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner)ص ١١٢ .
(٧) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Baljon)وفى المرجع انظر ص ١٠٩ .
(٨) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson)كتاب (محمد) ص ٢٩٦ .

ولعلنا نجد طريقة دعوته لرؤساء القبائل ولحكام المناطق المتاخمة وأمرائها مدونة جيداً فى التاريخ الإسلامى ، فقد أرسل رسائل مع مبعوثين مخصوصين لكسرى الفرس ولعظيم الروم ، ولمقوقس مصر ، ولعديد من الأمراء العرب بما فيهم حكام غسان واليمن والبحرين ، حيث استقبل بعضهم بالاحترام وحسن الوفادة ، على حين استقبل آخرون بعداء سافر، فقد ازدرى كسرى الفرس رسالة النبى ﷺ من أعماقه وطرد مبعوثه من مجلسه[1] ، بينما قتلت الغساسنة رسول النبى عليه الصلاة والسلام ، وعند ذلك غضب صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً وأرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى مؤتة .

ولقد أجبر المسلمون على حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم ولضمان سلامة مجتمعهم الناشئ وحمايته ، عندما كان الرسول بالمدينة، وهو ما يحوّل الرؤية تماماً عن تلك التى ترى أنهم حاربوا أثناء وجود النبى ﷺ فى المدينة لينشروا الإسلام .

ولعل هذه الآية تشير إلى طريقة تقديم الإسلام إلى الآخرين: ﴿ ادع **إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾

[النحل آية ١٢٥]

وكذلك أُمر المسلمون بأن يكونوا دمثين مهذبين عندما يناقشون أهل الكتاب : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ [العنكبوت آية ٤٦]

وما إن عرف الناس الرسالة حتى بدأ الرسول إكمالاً لميثاق الدعوة والرسالة فى تذكير المعرضين كما أمره الله : ﴿ **فذكّر إنما أنت مذكّر** *

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وبالمرجع انظر ص ٣٨ ـ ٥٠ .

لست عليهم بمسيطر ﴾ [الغاشية آية ٢١ ـ ٢٢]

﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ [الشورى آية ٤٨]

وعليه فالدعوة القسرية ليست فقط غير مثمرة ، وإنما هى أيضاً محظورة بأمر القرآن :**﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتي يكونوا مؤمنين ﴾** [يونس آية ٩٩]

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة آية ٢٥٦]

وكما قال المستشرق (بلاشير) (Blachere)[١]: « إنه من المحزن حقاً أن يشاع عن القرآن روح القسر والعنف ، بل إن العكس هو الصحيح » .

ولعل وجود المجتمعات المسيحية المزدهرة حضارياً فى بلاد حكمها الإسلام لعدة قرون يعد حجة بالغة على ما لاقوه من سياسة التسامح الدينى فى ذلك الوقت ، بل كانت أحياناً أحسن كثيراً من تلك التى لاقوها من إخوانهم وشركائهم فى الدين ، وقد كان من السهل على كل من السلطان سليم الأول (١٥١٤) والسلطان إبراهيم (١٦٤٦) أن يقوموا بطرد الرعايا المسيحيين ونفيهم من أراضيهم ، كما فعل الإسبان مع المسلمين والإنجليز مع اليهود[٢] ، إلا أن هذا فى واقع الأمر لم يحدث، وهو ما جعل المجتمعات الصغيرة غير المسلمة تفضّل دائماً أن تكون تحت الوصاية الإسلامية دون سواها[٣] ، فعلى سبيل المثال : لم

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Blachere) وفى المرجع انظر ص ١٠٩ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold) وفى المرجع انظر ص ٣٣٣ ـ ٣٥٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٢١٩

يجد اليهود ملجأ يلجأون إليه بعد خروجهم من أسبانيا فى نهايات القرن الخامس عشر فى أعقاب هزيمة المسلمين سوى فلسطين وكانت حينئذ جزءاً مباركاً من الدولة العثمانية .

وقد استقبلت الكنيسة المسيحية في شمال إفريقيا أفواجاً متفرقة وهاربة من الاضطهاد الوندالى[1] فى القرن الخامس الميلادى ، حيث عذّب الآريون الونداليون جميع من نالته أيديهم من الأرثوذكس بضراوة شديدة ، وأرسل رهبانهم للمنفى ، ومنعوا ممارستهم لعقيدتهم على الملأ ، وعاقبوا بقسوة كل من تسوّل له نفسه رفض ممارسة عقيدتهم[2] . كذلك لم يكن أهل الشام من النصارى الأرثوذكس والأقباط فى مصر بأحسن حالاً تحت الحكم البيزنطى ، ومن ثمّ فلم يكن بغريب أن يرحبّوا بالحكم الإسلامى وعدله وأمنه ، وهو الذى أنقذهم من العبودية الرومانية[3] ، ونروى هنا حادثة يذكرها التاريخ الإسلامى ، وتحكى عن غلام قبطى كان يتسابق يوماً مع ابن فاتح مصر عمرو بن العاص ، وحين سبق الغلام المصرى جعل ابن الأمير يضربه ويقول له : أتسبق ابن الأكرمين ، فاغتاظ أبوه ، وآثر السفر إلى المدينة ليلقى الخليفة عمر بن الخطاب ويرفع إليه شكاته ، فرحب عمر رضى الله عنه به كضيف ، واستدعى عمراً وولده من مصر ، وبعد المحاكمة أمر عمرُ أن يقتص ابن المصرى لنفسه من ابن الأمير ، قائلاً له : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال قولته الخالدة : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) .

ولكى نتصور كيف انتشر الإسلام فى تلك العصور بين أناس كثيرين من ذوى الخلفيات المختلفة تماماً فى إفريقيا وآسيا وأوربا ، ينبغى

---

(١) الاضطهاد الوندالى : نسبة إلى قبيلة جرمانية اجتاحت فرنسا وأسبانيا وشمال إفريقيا فى القرن الخامس الميلادى فى عام ٤٤٥ ، كما احتلت روما ونهبتها . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold) ص ١٠٤ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Trimingham) ص ١٥ وكذلك تحت (Hitti) وفيه انظر ص ١٥٣ .

أن نحاول تخيل الواقع والظروف المحيطة بهم آنذاك ، ولنرى مدى ما وصلنا إليه الآن فى مجال الاتصالات وسرعة السفر ، لم يكن ليدركه الخيال وقتئذ ، إنه لم يكن هناك وكالات أنباء ولا إذاعة ولا اتصالات لاسلكية ، ولم تكن هناك خدمات بريدية حقيقية ، ولا كانت البنوك المالية ذات الاتصالات العالمية.. ولاشك فى أن طريقة الإسلام فى الانتشار فى آسيا وأواسط إفريقيا والهند وإندونيسيا تستحق الإمعان فى النظر .

فالتاريخ يقول لنا : إن العرب ، وخاصة أولئك القرشيين كانوا تجّارا بطبيعتهم ، وقد تكونت لديهم جماعات من الدهاة والتجار المحنكين طوال أجيال قبل ظهور الإسلام ، حيث كانت قوافلهم تجوب الصحراء إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفاً ، ولا شك فى أنهم قد عرفوا الهند والبلدان الإفريقية عن طريق البحر الأحمر ، ثم تمكن أولئك التجار الرواد بوسائل المواصلات المتاحة وقتئذ ـ من توثيق الصلات الدائمة بينهم وبين مواطنى هذه المراكز التجارية العامرة عبر البحار ، بل وتمكن بعض التجار العرب من اليمن وحضرموت ونجد من الاستقرار فى الموانئ الرئيسية كجيبوتى ودار السلام ومقديشو على الساحل الأفريقى، وفى جاوة المعروفة الآن بإندونيسيا ، وعاشوا هناك حياة طبيعية واختلطوا بالأهالى وتعلموا لغتهم وتزوجوا منهم[1] ، واكتسبوا إعجاب المحليين ورؤسائهم لتصرفاتهم وتعاملاتهم الإسلامية النبيلة فى كل ركن من أركان حياتهم اليومية .

ولقد اعتبر المحليون العائلة التى هى ثمرة زواج تاجر مسلم عربى بمحلية ذات أصل ومقام رفيعين .. اعتبروها عائلة مقدسة ، فنجد فيهم أسماء المهدى والميرغنى وهى أسماء شاعت فى السودان لقرون وما زالت موجودة حتى الآن . ولعل من الأسماء الصومالية الجديرة بالذكر هنا :

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Trimingham) كتاب (الإسلام فى أثيوبيا) ص ١٣٩ .

الشيخ « على درجيبا » والشيخ « محمد بن جوليد »[1] ، ذلك أن هذين هما أصلان لعائلات اعتادت بناء المساجد والمدارس ، وبذلت جهداً كبيراً فى نشر الدين الجديد بين المواطنين ، مما جعل من هذه المراكز التجارية مراكز إشعاع ينطلق منها الإسلام بسلام إلى شرق ووسط إفريقيا، ولعلنا قرأنا عن المملكتين الإسلاميتين إيفات وسيداما والإمبراطوريتين مالى (١٢٣٨ـ ١٤٨٨) وغانا[2] .

وبنفس الأسلوب قُدِّمَ الإسلام إلى جاوة وإلى شرق الهند ، فقد تمكن من القلوب « بالمسالمة الشديدة والتى تمثلت فى التبشير به ، أو بفعل تأثيره وهيبته الاجتماعية »[3] ، حيث إن مولانا مالك إبراهيم المتوفى عام (١٤١٩) هو أول داعية للإسلام فى جاوة ، بعد المسلمين الهنود الأوائل ، « فقد كان تاجراً يقطن حضرموت فى جنوب الجزيرة العربية مثل الذين تبعوه ، وتمكنوا من أن يصبحوا المسئولين الرئيسيين عن نشر الإسلام فى الجزيرة وفى إندونيسيا وذلك بوسائلهم الفردية وغير التقليدية [4]» .

وتختلف قصة دخول الإسلام إلى شرق أوربا عما سبق ، ولكن الاختلاف ليس كثيراً ، والذى حدث هو أنه فى القرن السابع ، تم أسر قاض مسلم فى إحدى الحروب بين البيزنطيين وبين إحدى الولايات

---

(١) انظر كتاب (علم الاتصال بالجماهير والمجتمع الإسلامى) للدكتورة إجلال خليفة ـ الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ص ١٩٦ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Trimingham) كتاب (الإسلام فى أثيوبيا) ص ١٣٩ ، وكذلك كتاب (علم الاتصال بالجماهير والمجتمع الإسلامى) للدكتورة إجلال خليفة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ص ١٩٦ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ٥٣ ـ ٢٠٠ ، وكذلك انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold and Guillaum) ، وأيضاً تحت (Zwemer) كتاب (أثر الوثنية على الإسلام) ص ٧٥ ـ ٩٠.

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy)

الإسلامية المجاورة ، ثم أتوا به إلى بلدة (بيشنجز) (Pechenegs) وهى تقع بين نهر الدانوب الأصغر ونهر (الدون) (Don) ، وهناك أقنعت طريقة حياته الإسلامية من حوله باعتناق الدين فى النهاية ، وكذلك اعتنق الكثير من البشكيريين وهم من قبائل المجر ـ الإسلام فى نهايات القرن العاشر بعدما قدم إليهم من بلغاريا ـ الإسلامية آنذاك ـ سبعة رهط من المسلمين[١] .

ولقد عزا (السير توماس أرنولد) (Sir Thomas Arnold) هذه النتائج إلى عقلانية الدين ، حيث استشهد بما أشار إليه (البروفيسور مونتيه) (Professor Montet) فقال : « يعتبر الإسلام ديناً عقلانياً جداً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ذلك أن بساطة تعاليمه ونقاءها يجعلانها تبدو واضحة جلية لكل إنسان يراها ، كما أن العقيدة صحيحة ودقيقة ومتجردة من كل التعقيدات اللاهوتية ، ومن ثمّ فهى قابلة للفهم من قبل الشخص العادى ، ولا يتطلب لفهمها أن يكون لدى الإنسان قدرات عقلية هائلة [٢]» .

إن الإسلام لو كان انتشاره قد تم بحد السيف ، ولو كان الناس قد اعتنقوه تحت التهديد والقسر لما أخلصوا له ، ولما حملوا أطفالهم ونشأوهم عليه[٣] .. إن الذى حدث بالفعل هو أن أحفادهم فى مرحلة معينة أصبحوا هم الذين يشكلون الجزء الرئيسى من الأمة الإسلامية ، وكان منهم العارفون بالدين ، والمتفقهون فيه ، والذين تلمع أسماؤهم في سماء التاريخ الإسلامى ، ومن أمثلتهم البخارى الذى ولد فى (بخارى) بجنوب روسيا والرازى الذى ولد فى (الرى) بالقرب من طهران عام ٨٥٦ ميلادية ، والعالم التركى الفارابى الذى مات فى عام

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold) ص ٣٣٥ .
(٢) انظر السابق ص ٣٤٣ ـ ٣٥٠ .
(٣) انظر السابق .

(٩٥٠) ميلادية ، وكذا المفسر القرطبى والفيلسوف العالمى ابن رشد ، وهما اللذان ولدا وعاشا فى الأندلس أو أسبانيا الحالية ، وأخيراً وليس آخراً طارق بن زياد[١] الذى لا يزال اسمه يطلق على جبل طارق ، فقد كان قائداً من البربر[٢] .

فالإسلام لم ينتشر بحد السيف ، والتاريخ يسجل وقائع وأحداثاً تثبت عكس هذه المقولة ، ونذكر هنا ما سجّله المبشر (جون لارسون) (John Larson) فى عام (١٩١٠) من أنه وبمجرد ضمان الحرية الدينية لسكان القوقاز بروسيا القيصرية فى سنة (١٩٠٥) عاد للإسلام جميع الذين سبق أن أجبروا على اعتناق النصرانية[٣] .

ولا ريب أننا قرأنا عن المغول الذين اكتسحت جيوشهم آسيا فى القرن الثالث عشر ، وسلبوا مدن بخارى وسمرقند وبلخ وبغداد وتركوا كلاً منها قفراً يباباً ، وأخضعوا الجزء الأكبر من الدولة الإسلامية[٤] ، لقد تأثر المنتصرون بالدين الإسلامى ، وما لبثوا أن اعتنقوه ، كذلك لقد حوّل أحد الأسرى المسلمين الذين استرِقّوا بعد ذلك ـ حوّل الآلاف منهم إلى الإسلام بما قدّمه من نموذج طيب مخلص ، وبعد ذلك ظهرت بعض الممالك المغولية المسلمة فى الهند[٥] .

ولكى نتحقق أكثر من مجرد انتشار الإسلام وتوسعه من أى شبهة إكراه أو قسر ، دعونا ننظر إلى الوضع الدولى القائم طوال القرون الخمسة الأخيرة : فى هذه الفترة ، صارت الدول الإسلامية فى وضع دفاعى ، بل

---

(١) طارق بن زياد هو فاتح الأندلس فى عهد الأمويين (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arnold and Guillaum) ص ٣٢٤ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Zwemer) كتاب (أثر الوثنية على الإسلام ص٧٥ ـ ٩٠ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع ص ٢٥ .

(٥) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) الجزء الثانى ص ٦٧١ ـ ٦٧٥ .

حتى لقد احتلتها قوى أجنبية ، ومع ذلك ظل الإسلام ينتشر شرقاً وغرباً إلى يومنا هذا ، وأصبح هناك ملايين المسلمين فى أمريكا الشمالية وأوربا، بالطبع لا يمكن لأحد أن يصدّق أن من اعتنقوا الإسلام هنا اعتنقوه تحت تهديد السيف ، كما يدّعيه البعض ممن ليس لهم من الإسلام إلا اسمه ، أو بعض المبشرين الحاقدين على الإسلام .

ولنطرح سؤالاً : إن كانت هذه هى الطريقة التى انتشر بها الإسلام فما شأن تلك الحروب التى قرأنا عنها فى كتب التاريخ ؟ وللإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نتصور شكل المجتمع الإنسانى منذ فجر التاريخ ، أليس بحقيقة واقعة أن البشرية قد عانت وما زالت تعانى من الحروب المحلية الأهلية والعالمية ؟ ... وما المدة التى عاشها الناس دون عذابات الحروب ، أو معاناة التهديد بنشوبها ؟ .. إن الحروب عندما تنشب بين الأمم ينعكس تأثيرها على حياة الأفراد والمجتمعات ـ وكأنها ضرورة لبقاء بعض الناس ، وعليه لا يمكننا استثناء المسلمين من هذه القاعدة ، فعلى الرغم من أن الإسلام هو دين السلام ، وأن الإسلام ملطخ بالحروب والنزاعات والمشكلات التى تمتد أحياناً ليصبح طرفاها جماعات مسلمة، فنسمع فى التاريخ الحديث ونقرأ عن حروب بين مصر واليمن ومنازعات بين الأكراد والشيعة فى العراق وإيران .

والقرآن بالطبع لا يغفل حقائق الحياة ، ولا يسأل المسلمين أن ينقلبوا عميا يستسلمون لمبدأ اللاعنف ، وهم تحت ظروف الظلم والاضطهاد ، إنه يأمرهم بأن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم إذا ما هوجموا حتى يعم السلام ، وكما نرى أن القرآن يلفت النظر إلى إدانة العدوان والبغى تحت أى ظرف : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [البقرة آية ١٩٠]

نجده يأمر المسلمين بمنتهى الواقعية بألا يستسلموا للاضطهاد

وللظلم ، ولكن على أن يتحلوا بتقوى الله وأن يسألوه العون والصراط المستقيم : ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ [البقرة آية ١٩٤]

فالقرآن إذن لا يقول : إن الله معكم أيها المسلمون ، وإنما يقرر أن الله مع المتقين ، الذين يتقون الله حتى فى ظروف القتال الضارى ، إنه يفرض عليهم أن يطبقوا العدل حتى فى ساحة المعركة وفى مواجهة أعدائهم ، وليس تصرف صلاح الدين والقواد المسلمين الأوائل على صفحات التاريخ الإسلامى ببعيد : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾ [الأنفال آية ٦١]

ويصدّق القرآن على القصاص ولكن وفقاً للقوانين والاحتياطات الشرعية ، ونادراً ما يفشل فى إضافة تعاليم تناسب أى موقف لتخلط ما بين العدل الصارم والرحمة والشفقة الملائمتين لحاجة الإنسان الماسة لعون الله تعالى ومغفرته(١) .

فإذا لم يكن الحافز للجيوش الإسلامية فى القرون الأولى للإسلام هو نشر الدين . فما هو إذن ؟ .. لقد جاء (رودينسون) (Rodinson) مؤخراً بفكرة تقضى بتسليمه بأن أحداً لم يرغم على اعتناق الإسلام ، ولكنه رأى أن الجيوش التى خرجت من شبه الجزيرة العربية كانت جيوشاً طالبة للمغنم والمكسب والقوة الدنيوية ، ثم حدس : « والجزيرة العربية يقطنها الكثير وأرضها الخصبة لا تكفى أبداً لإقامة أود الحياة فيها»(٢) ، ولكن زعماً كهذا يعد هراء ولا يحكّم الحقائق العلمية على الإطلاق وإننا ينبغى أن نسلك مسلك البحث الموضوعى ونتساءل : ما

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gibb) كتاب (المحمدية) ص ٣٢ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Rodinson) كتاب (محمد) ص ٢٧٣ .

مقدار ما حققه المسلمون الغزاة لأنفسهم ؟ وكيف عايشوا الناس ـ وهم الحكام ـ سواء بمصر أو بالشام أو بشمال أفريقية أو بالأندلس ؟ وما مقدار ما أرسلوه إلى حكومتهم المركزية فى المدينة أو فى دمشق ؟ وما عدد المدن الجديدة التى تم إنشاؤها فى الأراضى التى فتحها الإسلام ؟ وما حجم النفقات على الفن المعمارى فى قرطبة مثلاً ، أو فى غرناطة ، أو فى القاهرة ، أو بغداد ، أو فى أجرا ، وما عدد تلك المدن فى الجزيرة العربية ؟ وما الفرق فى ضخامة الموارد المالية للأراضى المفتوحة قبل الفتح الإسلامى وبعده ؟ وسؤال آخر بحاجة ماسة إلى إجابة ، وهو : كم عدد العرب المغامرين فى الجيوش الإسلامية الفاتحة ؟ وكم عدد الأتراك والبربر والمصريين والفرس ؟

ومما لا شك فيه أن المعلومات التى تحتويها هذه الأسئلة تحتاج إلى بحث مستفيض ، ولكنها ولا شك أيضاً ستثبت أن الجيوش الإسلامية لم تخرج أبداً من أجل المغنم أو غيره ، وهو ما ينبغى أن نعلمه جيداً ، ومع ذلك كله فإن الحقيقة الأصلية تبقى دائماً ، ويعلمها الدارسون ، وهو أن انتشار الإسلام فى الشرق والغرب لم يرتكز إلا على الاقتناع العقلى ، والإيمان الراسخ المتين .

* * *

الفصل الثانى عشر

قانون الأخـلاق الإسلامى

عندما أرسل الله تعالى الرسالة ـ وهو الخالق الوهاب القوى الكريم ـ إلى الإنسان الذى جعله الله خليفة فى هذه الأرض ، أنزل القرآن ليمثل ثروة هائلة من النصائح الإلهية والتعاليم العلوية ليبين للبشر ما هو طريق الخير وما هو طريق الشر .

إن القانون الأخلاقى الإلهى عال ومثالى ،ومجاله شامل وبعيد المدى ، وهو فى تفاصيله دقيق وحازم ، وموازينه دقيقة وعادلة وحساسة ، ويعد تأثيره وهدفه أمراً ثابتاً دائماً برغم اعتماده فى بعض التفاصيل على المتغيرات التاريخية والجغرافية فى المجتمع .

الوحى فى مقابل الأخلاق النسبية :

تختلف المعايير القرآنية لسلوك الفرد والمجتمع اختلافاً كبيراً عن تلك التى وضعها الإنسان ويغيرها باستمرار بسبب نوع من التخمين الاجتماعى والبحث التجريبى ، فالأخلاق الوضعية والنسبية لا ترى سوءاً أو عيباً فى أن ينقل المجتمع الخط الفاصل بين الخير والشر ذات اليمين أو ذات الشمال ، حسب تغير نزوات المجتمع وأهوائه ، بل بناءً على أفكار قلة من التجمعات القوية على الساحة العامة فيه .

وبنظرة إلى أوربا فى القرون القليلة الماضية نلاحظ أنها نبذت أشياء فى أوقات ، واعتبرتها سوقية مبتذلة وفاحشة ، بل وغير أخلاقية ، ثم روجتها بعد ذلك واعتبرتها موضة !! وهو ما يمكننا التعرف عليه دون زيادة تصريح أو شرح ، ولنتساءل : هل يعنى هذا أن التطور العلمى التقنى مرتبط بالتغير المتصل فى تعهداتنا تجاه أخلاقياتنا ؟ بالطبع لا ،

وذلك أن من يسرق يدان بلا شك سواء فى ذلك من سرق جملاً أو طائرة ، دجاجة أو هليوكوبتر ، شيكلا (Shekel)(١) أو بنكاً ، سواء سرق بقرا أو بلدا .

ومما لا شك فيه أن تقدم الإنسان خلال آلاف الأجيال قد ضاعف كثيراً من معرفته ، وأقدره على أن يجوب الأعماق السحيقة فى المحيطات وأن يقتحم الفضاء الخارجى ، كما أنه استطاع أن يعالج الذرات ويستخلص مواد جديدة، وعلى كل من الصعيدين المتناهيين فى الضخامة أو فى الصغر ، فلقد فاق التقدم العلمى والتقنى جميع التوقعات، وبالرغم من كل ذلك فإن حاجاته الأساسية قد ظلت كما هى ، فهو ما يزال لا يستطيع البقاء دون هواء وماء وغذاء ونوم ، فلماذا إذن يتغاضى عن الحاجات الأساسية لعقله وروحه ويهملها ، بل ويتبرأ منها ؟ ولماذا يتخم جسده على حين تتضور روحه جوعاً ، وتختنق وتتسمم بسبب التخمة الجائرة من الأخلاقيات الفاسدة التى زعم مسايرتها التقدم ؟.

إن عملية التمثيل بجسد القيم الأخلاقية وتغييرها زاعمين أن ذلك (تغيير لابد منه لمسايرة العصر) ومن أجل مجاراة التقدم لا يمكن بأى حال أن تكون صحيحة أو حتى مقبولة لدى العقل المنطقى والذهن النقى وللذوق الصافى المجبول على الخير ، ولا شك فى أن هذا القسر لتغيير الأخلاق يبدو مرتكزاً بزيف على مسائل بيانية منمقة تجعل من السهل أحياناً للإنسان أن يضع حداً لمسئوليته عن سعادة الآخرين وخيرهم من أجل مصلحته الشخصية فقط . وعليه؛ ولكى يبقى الهيكل الحضارى للمجتمع يجب أن نحافظ على القيم الأخلاقية الأصلية .. فالأخلاقيات لا يمكن أن تعتبر عتيقة الطراز على الرغم من أنها قد تبدو هكذا لبعض الناس، وكذلك لايمكن وصف الأخلاقيات بأنها نسبية أو شخصية ،

---

(١) الشيكل : عملة عبرانية قديمة ، وهى أيضاً العملة المتداولة فى الأراضى المحتلة فى فلسطين الآن (المترجم) .

وإنما هى ديناميكية، فعّالة ، حيوية ومؤثرة فى نمو المجتمع إلى حد كبير.

ويوضح قانون الأخلاق القرآنى مدى حكمة الله تعالى ورحمته وحبه للإنسان ، فهو الذى سخّر للإنسان كل ما فى السموات والأرض : **﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجرى بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾**
[إبراهيم آية ٣٢ ـ ٣٣]

كما أنه تعالى لم يحرّم عليه الاستمتاع بطيبات الحياة ما دام هناك اعتدال واتزان : **﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير حق وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾**
[الأعراف آية ٣١ ـ ٣٣]

فكل شىء مسموح به إذن نظرياً عدا ما جاء بصيغة التكليف والإلزام ، وهو ما ينبغى أن يراعى ، وما جاء بصيغة الحظر والتحريم وهو ما ينبغى أن يتحاشى ، وكلا الأمرين ينبعث من الإرادة الإلهية للعناية بالإنسان ككل ، وتحقق سعادته كاملة بشطريها الروحى والمادى ، وذلك أن التدريب على مراعاة الأوامر والمحظورات إنما كان ليربى الفرد والضمير والروح المسالمة مع نفسها ، والشخصية القوية والجسد الصحيح ، أما على المستوى العام فهو يرسّخ فى المجتمع قيم الخير والرفاهية والازدهار والسعادة[1] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

فالتعاليم القرآنية والاعتقاد بالآخرة هما النبرة الوحيدة التى تحرك الوعى والإدراك ، وذلك أن الإيمان الراسخ بيوم الحساب هو الإجابة الشافية النهائية لكثير من المشكلات المعقدة فى هذا العالم ، ولنضرب مثلاً : عندما يتصور بعض الناس أنهم دهاة ومهرة وعباقرة لدرجة تجعلهم يفلتون بما ارتكبوا من أعمال سيئة تماماً كتهربهم من الضرائب ، وكتزويرهم لإرادة الشعوب ، وكتملصهم من كل ما يربطهم بالأخلاق .. هؤلاء الناس مخطئون ولا شك ، إذ إنه فى النهاية وفى يوم الحساب سينكشف كل شيء ، ولن يوكل أحد محامياً أو مستشاراً قانونياً ليدافع عنه ، كذلك وبنفس الطريقة سيثاب كل امرئ فى الآخرة عما قدّم من صالحات فى دنياه : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد** ﴾ [آل عمران آية ٣٠]

وبذلك تبقى الحيوية صفة مميزة للضمير المسلم ، وكيف لا وهو فى ذلك الربيع الروحى الدائم المستمد من الصلوات الخمس ، والتى تستغرق الواحدة منها دقائق معدودة ويمتد وقت أدائها كلها من الفجر إلى ما بعد الغروب، مما يدعم الرابطة الفعلية بين روح المؤمن وربه ، وهو مصدر الهداية الغامرة والراحة السابغة وذلك طوال اليوم ودائماً : ﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** ﴾ [العنكبوت آية ٤٥]

﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾

[البقرة آية ٤٥]

﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة آية ١٥٣]

﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين** ﴾

[البقرة آية ٢٣٨]

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ﴾

[البقرة آية ٢٧٧]

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

[البقرة آية ٢٨٦]

التصرف الإنسانى والوازع الأخلاقى والحكم الإلهى :

ولكى تتسنى لنا مقارنة قوانين الأخلاق يجب أن نحسم هذه النقطة ونتناولها بالمناقشة خاصة إن كان من بين أطراف المقارنة القانون المدنى . فنحن نلاحظ أن الجرائم التى ترتكب فى ظل النظام التشريعى الوضعى تتراوح عقوبتها بين درجات كثيرة ومختلفة من الصرامة والحزم ، ونادراً ما نلاحظ ثواباً بين بنوده لأعمال الخير والإحسان ، وإنما يتم المرور عليها مر الكرام ، ولا تؤخذ فى الاعتبار إذ لا تعتبر أخبار أعمال الخير للأسف أخباراً على الإطلاق .

ونحن نعرف أن قانون الأخلاقيات والقيم يغطى جانب كل من الصواب والخطأ ، وأن أعمال الخير يجنّدها المجتمع ويمتدحها وينشرها بين الناس ويكرّمها فى المهرجانات ، على حين أنه على النقيض تماماً مع أعمال الشر ، فهو يزدريها ويحتقرها ويسعى إلى دفنها بعيداً عنه ، ولكننا هنا بصدد قانون آخر مختلف هو القانون المدنى الذى يحكم على التصرف من منطلق ما يراه الرأى العام بحيث إن من فعل خيراً أو شراً أو نطق به لن يسقط أبداً تحت طائلة القانون طالما ظل فعله فى إطار بيته وبصورة شخصية بعيداً عن الناس ، وعليه فلن يدان ويدخل فى ساحة

القضاء والمحكمه ، أما إن كان ما يفعله أو يقوله على الملأ ويتعدى تأثيره حدود ذاته فإنه ينقد أو يشجع وفق نزوات المجتمع فقط ، ولا ريب أن هذا هو ما تعلمناه من درس التاريخ ، فإن مقاييس القضاء والحكم باتت تتغير كثيراً عبر القرون ، فعلى سبيل المثال : كان المواطن الرومانى يعتبر امتلاكه لعدد من العبيد الأقوياء مبعثاً للفخر والمباهاة بين مواطنيه ، وكمثال آخر فقد أصبح الكثير من الشعوب الإسلامية والمسيحية الآن يستنكرون احتساء الخمر والتدخين وهو ما يعد أمثلة واضحة على تغير القيم الوضعية والنسبية عبر العصور .

إن القانون الأخلاقى السامى كما وضعه القرآن لهو المثال فى الثبات والاتزان والعدل وله تأثير ومدى بعيدان ، وبه يرضى القلب النقى ، ويطهر الإدراك الحقيقى ويهدأ ، إذ إنه كالعقيدة التى لا تختلف بتاتاً وفق حالة الفرد أو المجتمع ، وهى تسمح بالخير وتشجعه ، وتدين الشر والأعمال المشينة وتستنكرها ، هذا فضلاً عن تنشيط حس الناس ـ رجالاً كانوا أو نساء ـ بحيث تجعلهم يشعرون وكأن الوازع والحكم ينبعث من جوانيتهم ..

وليس لأى إنسان أن يكون قديساً ، والطبيعى جداً أن تظهر عصابات الإجرام والشر فى كل المجتمعات ، إلا أن هؤلاء وفى ظل المجتمع الإسلامى المثالى يخضعون للمراقبة اليقظة والحريصة من الرأى العام الذى يصفهم فى وضع يكونون معه محرجين أمام جمهور الأمة المؤمنة القوية ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ [آل عمران آية ١٠٤]

فوجهة القرآن الأخلاقية وجهة شاملة متكاملة ، لأنها تصهر كلاً من الإيمان بالله وحقوق الدين ومراقبة النفس والعلاقات الاجتماعية والأفكار العقلية ، بل وعادات تناول الطعام وطريقة المخاطبة وآدابها ، ونواح أخرى كثيرة فى الحياة الإنسانية ـ تشملها جميعها فى عنايتها ،

فهناك آيات تدعو إلى الطهارة والعفة مثل : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾

[النور آية ٣١ ـ ٣٢]

وكذلك آيات تدعو إلى الأمانة كآية الدين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم ﴾ [البقرة آية ٢٨٢]

وإلى التأدب تدعو الآية : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله على كل شىء حسيبا ﴾ [النساء آية ٨٦]

وتدعو واحدة إلى المسالمة والمصادقة والتعارف : ﴿ يا أيها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات آية ١٣]

﴿ الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ [آل عمران ١٣٤]

وإلى الإحسان وبذل الخيرات : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا ﴾ [النساء آية : ٣٦]

وإلى الشجاعة والجرأة : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران آية ١٧٣]

وهذه آية تدعو إلى تحرى الصدق : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ [الحج آية ١٣٠]

وهذه أخرى تدعو إلى الصبر[1] : ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ [البقرة آية ١٥٥]

ثم لنقرأ الآية : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير ﴾ [آل عمران آية ٢٩]

ولنعلم أن القرآن يخبر المسلمين أن الله العليم البصير يحكمَ على كل ما يصدر عنهم ، حتى ولو كان قولاً أو فكرا ، ويقضى فيه بعدالة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Galwash) الجزء الثانى ص ١١٥ ـ ١٤٠ .

مطلقة : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ [النساء آية ٤٠]

ولا يطلب القرآن أيضاً أو يتوقع من الإنسان أن يفعل المستحيل ، ولكن على المؤمن أن يبذل غاية جهده فى سبيل الله الرحمن الرحيم ، الذى لا يحمله أى مسئولية عن الأخطاء الناجمة عن الجهل ، أو تلك الأخطاء غير المقصودة ، وكذلك لو حاول المؤمن أن يفعل الخير ، ولكن لسبب أو لآخر خارج عن إرادته لم يتمكن من فعله ، فإن الله تعالى بكرمه يثيبه على نيته الطيبة وعلى مجهوده ، وكذلك يتوب عليه لو خضع لإغراء بارتكاب معصية ثم رجع عنها وأناب : ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما** ﴾ [النساء آية ١١٠]

﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾ [النساء آية ١٢٤]

ولقد أوسع الدارسون اهتمام القرآن الكريم بالتقوى وبالاستقامة بحثاً وتدقيقاً ، وتأملوا فى أسلوب النصح فيه ، وفى طريقة ذكر الله مع أداء الشعيرة الإسلامية : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ [البقرة آية ١٧٧]

ومن المؤكد أن القانون الأخلاقى الإلهى والاستقامة ؛ وقد حرص القرآن على بثهما فى وعى المؤمن وعقله ، يتوغلان إلى عمق أكبر من تلك القوانين السلوكية الوضعية الناتجة عن تجربة عشوائية مرت بها بعض المجتمعات ، وذلك أن المؤمن يدرك دقة الحساب الإلهى لأعمال البشر ، كما يدرك مدى ما ينبغى له من الحذر ليجعل من ضميره وازعاً حقيقياً،

إلى جانب الإيمان بعظمة الشرع الإلهى ، وكرمه ، وعدالته ، فى مقابل أى قانون أخلاقى لأى مجتمع ذى معرفة وتجربة محددتين .

ومن الصعوبة بمكان ـ بعد قراءتنا للآيات السابقة ـ أن نتصور وجود أى أساس للاتهامات الخطيرة للقرآن الكريم التى تزعم بأنه « خال من الأخلاقيات »[1] أو أن « كل الرذائل المعروفة قد صورت فيه بشكل جنونى بارز واعتبرت وكأنها فضائل » وهى صورة لا تليق بكتاب مقدس[2] !!! ولا مجال للشك فى أن أمثال هذه الاتهامات لا تشكل بأى حال من الأحوال الرأى السائد لجمهور المستشرقين ، على الرغم من أنها قد جاءت على لسان قلة من الدارسين المعروفين ، فليس غريباً إذن أن نجد فى نفس الدائرة الثقافية إعجاباً شديداً بالأخلاقيات المنزّلة ، وبالقيم العميقة الجادة ، وبالحكمة السديدة ، وبنموذج المفاهيم الأساسية اللازمة لإنشاء مجتمع متحضر جاء ذكره فى القرآن[3] ؟

وقد يجب على الإنسان وهو ذلك الكائن المفكر أن يكون له رأيه الخاص ، ولا يتّبع رأياً ، أى رأى دون مناقشة .. ، وأن يغوص فى أعماق القرآن ليدرس كل آية فيه ، ويستخرج الأخلاقيات المستمدة منها ومقارنتها بتلك التى تم التعارف عليها فى كل المجتمعات القديمة والحديثة ، كل هذا للأسف بعيد عن ميدان بحث هذا الكتاب ، كما أنه لا يصح الحديث عنه فى مجرد فصل واحد ، إذ إن هذه الدراسات تغطى حقلاً يحوى علوماً كثيرة كالفقه والتفسير والشريعة ، وقد بلغ

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٨٤ ، وتحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ٢١٤ ، وانظر أيضاً تحت (Watt) كتاب (محمد النبى والحاكم) ص ٣٣ ، ثم انظر تحت (Sommer and Zwemer) وفى المرجع انظر ص ٣١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص١٤٠ ـ ١٥٠ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Cragg) كتاب (النداء من المنارة) ص ١١ ، وكذلك انظر تحت (Gibb) كتاب (دراسة للحضارة الإسلامية) ص ١٩٧ ، وتحت (Hughes) وفى المرجع انظر ص ٦ ، وكذلك تحت (H.G. Wells) وفى المرجع انظر الجزء الأول ص ٤٥٠ ـ ٥٠٠ .

عدد الكتب التى تتحدث عنها ، وفى كل منها آلاف الكتب ، لآلاف المؤلفين الذين أفنوا أعمارهم فى سبيل وضعها ، ومنهم من كان من داخل العالم الإسلامى ، ومنهم من كان من خارجه . ومع ذلك يمكننا أن نستقى الخلاصة بدراسة الآيات القرآنية المتعلقة بباب معين من الأخلاقيات فى المجتمع :

﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلك وصّاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [الأنعام آية ١٥١ـ١٥٢]

موضوع الصحة الخلقية والعقلية والجسمية :

تبدو الآيات القرآنية وكأنها عدد من المنارات اللامعة القوية التأثير ، تشع ضياء من التقوى والاستقامة لترشد الورعين الأتقياء فى هذا الخضم الحياتى . والقرآن ينصح ـ وهو فى هذا على النقيض تماماً من الحرية الجنسية الكاملة والانحلال فى الأزياء فى مجتمعات معروفة ـ بل هو يفرض على الرجال غض البصر ، ويفرض على النساء أن يتبعن هذه النصيحة ولا يبدين زينتهن إلا لأزواجهن وللمحارم : **﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو**

الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [النور آية ٣٠ ـ ٣١]

فلا بد أن يكون للرجال وللنساء قيم ومثل عليا تحكم تصرفاتهم ، فإن حدث وبدأت القيم الدنيا الحقيرة فى البزوغ فما عليهم إلا أن يطلبوا المساعدة من الله تعالى ، ومن ثمّ يكون التذكر : **﴿ إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾**

[الأعراف آية ٢٠٠]

ويحذر القرآن أيضاً المسلمين بألا يقاربوا أو يستدرجوا إلى جريمة أو تصرف لا أخلاقى ، لتأكده من تأثيرهما الهدّام المخرّب على الأخلاقيات والصحة الجسدية فى حياة كل من الفرد والجماعة : **﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾** [الإسراء آية ١٣٢]

﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ذلك وصّاكم به لعلكم تعقلون ﴾ [الأنعام آية ١٥١]

كما يولى القرآن أهمية كبيرة للزواج ، ويرى أنه لا يمكن تحقيق السعادة الحقيقية والرفاهية للمجتمع إلا من خلال وقاية شرف الأسرة والفرد والذى تهدده الممارسة غير الشرعية للجنس تهديداً خطيراً ، وعلى ذلك فقد جاءت العقوبات التى نص عليها القرآن لأولئك الذين ينغمسون حتى شحمات آذانهم فى مثل هذه الجرائم الحقيرة ـ عقوبات صارمة بدرجة كافية لتروعهم عندما يقعون تحت طائلة مغرياتها .

وفى القرآن العديد من الآيات التى اهتمت بالصحة العقلية وبالطريقة المنطقية للتفكير ، وهى تدعونا إلى التأمل فى آيات الله فى

الكون من حولنا : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [البقرة آية ١٦٤]

﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾ [آل عمران آية ١٩٠]

وتدعونا كذلك إلى التعلم بدراسة الظواهر الطبيعية ، وبدراسة تاريخ الأمم وبالقراءة فى كل ما يفيد : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [العلق آية ١ ـ ٥]

﴿ **ن والقلم وما يسطرون** ﴾ [القلم آية ١]

﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ [الزمر آية ٩]

إن من يقرأ القرآن يدرك مدى اهتمامه بإيقاظ وإنماء المنطق السليم عند الإنسان ، ويجد فى آياته العديد مما يستحث على التفكير والمقارنة المنطقية . لنقرأ مثلاً المواضع التالية :

فرداً على من زعموا أن الرسول ﷺ هو مؤلف القرآن ، يقول القرآن: ﴿ ... **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة آية ٢٣]

ورداً على من أنكر البعث وإمكانه ، حثّه على النظر إلى الأرض التى كانت مجدبة ثم اخضرت وأينعت يقول : ﴿ ... **إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير** ﴾ [فصلت آية ٣٩]

ورداً على من زعم أن الملائكة إناث يتساءل القرآن : ﴿ ... **أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ [الزخرف آية ١٩]

وفي العديد من الآيات يحض القرآن على النظر والتفكير والقياس للأمور وللخلق في السموات والأرض .

وإلى جانب الاهتمام بقوى الإنسان العقلية المختلفة فقد حظيت صحة الإنسان وغذاؤه ونظافته وملبسه باهتمام بالغ في مضمون تعاليم القرآن : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** ﴾

[المائدة آية ٦]

فبدافع التقوى يحافظ المسلم على طهارة جسمه وملابسه ومسجده ومحل إقامته حتى ولو كانت هناك أزمة حادة في المياه، فهو عمل تعبدى لله :﴿ ... **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ [البقرة آية ٢٢٢]

فما أبعد أولئك الأفراد وتلك المجتمعات الإسلامية التي تحيا قذرة وسط الأوحال والأدران برغم وجود الماء وتوفره ـ ما أبعدهم عن روح الدين ، وما أكثر نسيانهم لعقيدتهم ، وما أعظم عصيانهم ومخالفتهم لتعاليم القرآن !!! ذلكم هو ما رآه كاتب (كمنيزس) (Menezes) في حياة المسلمين وواقعهم فأصدر حكماً خاطئاً على الإسلام ، واندفع قائلاً : « إن الإسلام يعيش بين الأوساط الأكثر قذارة واتساخاً »(١) . وياله من تصور سقيم !!!

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) ص ١٤٠ ـ ١٥٠ .

ولا تنحصر العناية القرآنية بطهارة الإنسان الخارجية فحسب ، وإنما هناك أيضاً عادات الحمية وتحريم الطعام المؤذى ، وخاصة تلك الأنواع من اللحوم المحرمة ، وكذلك تجنب المسكرات ، وقد يرفع التحريم تحت ظروف المجاعة ، وهو ما يمكن الحكم عليه فقط من خلال وعى مسلم خالص : ﴿ **إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم** ﴾

[البقرة آية ١٧٣]

إن عادات الحمية الإسلامية والصوم لها تأثير أكبر من كونها فائدة لصحة الإنسان الجسمية ، فهى تزيد من حيوية ضميره ، كما أن المؤمن عندما يأكل وجبة أو يشرب شراباً يشكر ربه على نعمه ، وعلى منحه إياها، وعلى إعطائه القدرة على هضمها ، وهو يعلم أن إنتاج خضراوات وفاكهة من تربة وماء عملية إلهية بحتة ، حيث إنه يعد التربة ويحرثها ويبذر الحب فيها ويرويها ، أما عملية نمو النبات الفعلية فهى عملية إلهية ، هذا على الرغم من الخطوات العملاقة فى مجال العلوم والتقنيات، إذ إن الإنسان لا يزال يعتمد اعتماداً كلياً على الأرض فى الحصول على طعامه .. وهو يستطيع صناعة الألياف والمواد الصناعية كبديل للقطن والجلود ، ولكنه لا يمكنه صناعة مواد صناعية تحل محل الخضر والفاكهة ، ويلغى بذلك دور التربة والماء والشمس .

وليس الغذاء الإسلامى للعقل والفكر بأقل أهمية ، فالاستقامة والكلمات والأفكار البنّاءة مستحبة ، أما الفساد الخلقى والابتذال والسوقية فلا يسمح بها تحت أى ظرف من الظروف : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾

[الفرقان آية ٦٣]

فالمؤمنون مأمورون بالتقوى ، وإذا تكلموا تكلموا دائماً بالكلام السديد : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا**

عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾ [النساء آية ٩]

وألا ينغمسوا فى اللغو : **﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾**[القصص آية ٥٥]

أما أولئك الذين يريدون إشاعة الفواحش بين المؤمنين ، فهذه الآية تبين موقفهم : **﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾**

[النور آية ١٩]

الكسب والإنفاق :

لقد توغلت الأخلاقيات حتى فى الحياة الاقتصادية ، وجعلتها مستقرة على قاعدة صلبة من التعاليم الإلهية ، فأن تكسب قوت يومك من عمل شريف ليس فقط أداء لمهمة ، ولكنه فضيلة عظيمة تقف جنباً إلى جنب مع أعمال العبادة والتقديس وتكمّل إيمان المسلم : **﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ﴾**

[المؤمنون آية ٥١]

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾ [فصلت آية ٣٣]

ويجب على المسلم أن يعتمد على نفسه ، وينهض بأعبائه بذاته ، فالطبيعة مسخرة لخدمة الإنسان الجرىء الشجاع الذى يستثمر كل المصادر المتاحة له فيها : **﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾** [الملك آية ١٥]

وبمجرد أن يمتلك الفرد ـ رجلاً كان أو امرأة ـ شيئاً بطريقة شرعية وقانونية ، فإن الدولة أو المجتمع ليس لهما الحق فى ادعاء ملكيتهما لهذا الشيء أو جزء منه ، فالإسلام ـ على عكس المذهب الشيوعى ـ قد

استبدل بالتأييد الزائف لديكتاتورية الدولة حب الله تعالى ، ذلك الحب الذى يحظر وضع النظريات التى تحارب الأخلاق والتعاون الأخوى والمسئولية المشتركة بين الفرد والمجتمع ، وبين الأغنياء والفقراء .

وعلى الجانب الآخر يوفر الإسلام الحماية الكاملة ضد الجشع الرأسمالى والاستغلال الذى لا يرحم العمال[1] ، فهو إذن لا يؤله الإنسان وملكيته ، كما لا يؤله طبقة البروليتاريا ويلغى العمل الحر .

إن الإسلام يقبل الإنسان بصورته التى خلقه الله عليها ، ويضع فى اعتباره طموحه الغريزى وقدراته المحدودة .

كما يلح الإسلام طلباً للأمانة فى كل الأعمال ، والأمانة تشتمل على الصراحة والعدل والشرف :﴿ **ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾

[المطففين آية ١ـ ٦]

ويشجب الإسلام الغش ، ويرفض الربا الفاحش وهو أخذ الفائدة مقابل إقراض المحتاجين : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾

[البقرة آية ٢٧٥]

ولنعلم أن هذا التحريم للربا يسرى أيضاً فى حالة كون المدين معتنقاً لدين آخر ، فإن حدث وأصابه طارئ منعه من سداد دينه ، فلا بد من إعطائه مهلة حتى تتحسن أحواله : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [البقرة آية ٢٨٠]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

ولعل هذا يبدو مناقضاً تماماً لما جاءت به المجتمعات القديمة من تقليد ، وهو تهديد المدين وعائلته بالاسترقاق والعبودية إن هو عجز عن السداد[1] ، وحسبنا أن نقرأ هذا النص من العهد القديم : « أما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم ، منهم تقتنون عبيدا وإماء . وأيضاً من آباء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لكم » (سفر اللاويين ـ الإصحاح الخامس والعشرين ٤٤ ـ ٤٥)

ويدين الإسلام أيضاً حبس ومصادرة الأموال والممتلكات ، كما نرى في بعض الحالات في عصرنا هذا[2] .

ومن خلال تقديم المحظورات ، ينصح القرآن الإنسان بأن يحفظ العهد والأمانة : ﴿ **فمن ابتغي وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ (المعارج آية : ٣١ ـ ٣٢)

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ [النساء آية ١٣٥]

ومع أن الإنسان قد يجد تشجيعاً في القرآن دائماً على أن يعمل ويكافح في سبيل تحسين أحواله المعيشية والمادية ، إلا أن الملاّك يذكّرون على الدوام بحقيقة أنهم مجرد موظفين ومعينين من قبل الله سبحانه لرعاية ممتلكاتهم التي آتاهم الله من فضله ، إذ إن الإنسان يأتي إلى هذه الدنيا صفر اليدين ، ويتركها كذلك أيضاً ، أما المالك الحقيقي والفعلي والدائم أبداً فهو الله تعالى وحده ، الذي يهيمن على كل شيء في

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Roberts) وفي المرجع انظر ص ٩٥ ـ ١٠٥ .

(٢) وهو أمر دعت إليه الشيوعية البائدة ، وتبنته نظم دكتاتورية قامت في العالم الثالث ، وسقطت الشيوعية وبقي أن تندثر هذه النظم الخارجة على شرع الله (المترجم) .

السماء والأرض : ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ (البقرة آية : ٢٨٤)

وعلى ذلك فالتصدق على الفقراء والمحتاجين يعنى إعطاءهم قسمهم الحقيقى من الثروة التى منحوها عن طريق الأغنياء ، وهذا أمر إلهى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير * وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾

[الحديد آية ٧ ـ ٨]

أما الإرث فعندما يتم تقسيمه فإنه يوزع بين الورثة وفق نسب حددها الله سبحانه : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيما * ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم * تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ .

[النساء آية ١١ ـ ١٣]

فإن حضر القسمة أحد من المحتاجين أو اليتامى ، فإن الورثة مأمورون بضمان رزق له من التركة ، وأن يقولوا له قولاً معروفا : ﴿ **وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا** ﴾ [النساء آية ٨]

كذلك يعلّم القرآن المسلمين أن يؤتوا الصدقات مما أعطاهم الله ، وأن يخرجوها راضين سعداء خاشعين ، لا متذمرين كارهين لها ، وألا تكون مصحوبة بنوع من الرياء والسمعة أو بالمن والأذى: ﴿ **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم** ﴾ [البقرة آية ٢٦٣]

وبجانب الصدقات وإيتاء الزكاة يحدد القرآن الحد الذى لا يخرج عن نطاقه صرف الأموال : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ [الإسراء آية ٢٩]

ولقد ذكرنا فى الفصل العاشر أن إيتاء الزكاة ركن أساسى ، وعمود من عمد الدين الخمسة ، مفروض دفعها على كل قادر ممن يملكون نصاباً محدوداً ، وقد تجب الصدقة على من يملك قوت يومه فقط ، وذلك عندما تأتى نهاية شهر رمضان ، فيجب حينئذ على رب كل أسرة لديها ما يفوق حاجتها ليومها أن يخرج مقداراً من ماله للمحتاجين وفق عدد من يعول ـ زوجته وأطفاله وأبويه المقعدين ، بل وأطفاله الرضّع ـ وهو ما يعد عرفاناً ولا شك بفضل الله على ما منحه من حياة وعافية لكل فرد فى الأسرة ، فضلاً عن طبع المجتمع بطابع من الأخوة الروحية التى لا تنفصم لها عرى .

والزكاة ليست مجرد واجب مدنى تفرضه الدولة على الرأسماليين فيها وفق قانون وضعه الإنسان ، ويسهل على البعض أن يراوغ فى أدائه ، أو أن يخترقه ويهمله ، ولا هى مثل الضرائب أو العشور[1] ، أو كالتى

(١) العشور هو جمع عشر، وهو عشر الغلة أو المال الذى يؤخذ ويدفع للكنيسة. (المترجم)

فرضها الملوك القدامى على شعوبهم مكافأة لأنفسهم على حكمهم للناس فردياً[1] ، بل إنها على العكس تماماً ـ منحة دينية يحكمها الضمير المؤمن ، والله هو الحكم والشهيد فى الدنيا وفى الآخرة .

ولقد حرّم القرآن الكريم بذاته المساس بالملكية الفردية للرجل وللمرأة على السواء ، وفرض احترام هذه الملكية طالما جاءت بطريق شريفة ، وعليه فقد تم تشريع عقوبات صارمة قاسية على كل من يأتى بجريمة السرقة أو السلب أو قطع الطريق أو الرشوة بغض النظر عن عقيدة كل من السالب والمسلوب ، وهو ولا شك ما يتميز به الشرع الإسلامى عن المعتقدات القديمة ، تلك المعتقدات التى قصرت اعتبار التجريم على كون الجريمة ضد القريب ، وأباحتها ، بل وأغرت بها فى حق غيره : «إذا وجد رجل قد سرق نفسا من إخوته بنى إسرائيل واسترقه وباعه يموت ذلك السارق فتنزع الشر من وسطك » (التثنية ـ الإصحاح الرابع والعشرين ـ ٧) .

« لا تقتل ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك » (التثنية ـ الإصحاح الخامس ١٧ ـ ٢١]

ومن ثمّ تعتبر هذه الجرائم أفعالاً شائنة وشنيعة فى حق قواعد الدين، وليست مجرد جر ائم يفرض القانون الوضعى عقوبتها ، أو يخفف تلك العقوبة ، أو حتى يمكن أن يتهرّب منها . هذا بالنسبة إلى شرائع أهل الكتاب . أما بالنسبة إلى الشريعة الإسلامية فإن الأمر جد مختلف ، وتشير الدراسات المعنية بالتشريعات القرآنية ، والتى قام بإعدادها صفوة من الدارسين المسلمين ، إلى أن عقوبة قطع اليد لا تطبق على كل جريمة

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sweetman) وفى المرجع انظر ص ٧١ .

سرقة ، إذ لكى يستحق السارق هذه العقوبة القاسية لا بد وأن تترك له فرصة الدفاع عن نفسه ، كما ينبغى ضبط المسروقات والتأكد من أن قيمتها فوق قدر معين ، وكذلك لا بد أن يكون القاضى مقتنعاً تماماً قبل إصدار الحكم ، وقد يحدث كذلك ألا تكون هذه العقوبة ملائمة حيث تكون السرقة تمت ، وكان طرفاها ـ السارق والمسروق ـ من نفس الأسرة ، أو حين تكون السرقة قد تمت لسد جوعة محتاج إلى طعام ، ذلك أن أمثال هذا المحتاج تكفل لهم العدالة الاجتماعية فى ظل الحكم بالشريعة الإسلامية مستوى من المعيشة والرفاهية بغض النظر عن أديانهم التى يعتقدونها .

أما أولئك الغربيون الذين يتباكون على ما أصاب اللص المسكين من قطع يده ، ويصفون العقوبة بالوحشية والهمجية ، فهم يمنحون أولوية ظالمة جائرة لتدليل فرد معروف أنه مجرم على حساب الأمن والطمأنينة للمجتمع كله .

ولقد أعجب أناس كثيرون ممن قضوا فترة من أعمارهم بدولة كالمملكة العربية السعودية ، والتى تطبق فيها الشريعة الإسلامية ـ بما فيها من أمان تام ، لا يشوبه أى تهديد للحياة الإنسانية وللممتلكات وللأعراض وللمنازل وللأعمال وللطرق ، حتى ولو كانوا فى وسط الصحراء ، وهو ما يفتقده نهاراً وليلاً كل من يعيش فى أى مدينة كبيرة بالغرب[١] ، وعليه فدولة كالسعودية نادراً ما تحتاج إلى أن تطبق تلك العقوبة إذ إن تطبيقها العملى ولو لمرة واحدة يمنع كل إنسان من المساس بما يملكه غيره[٢] .

وهكذا يعم جو السلام أرجاء البلاد دون حاجة إلى أقفال أو أجهزة أمان معقدة ، أو إلى قوة هائلة من الشرطة .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry) كتاب (جوانب للحضارة الإسلامية) ص ٤١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Galwash) الجزء الثانى ص ١١٥ ـ ١٤٠ .

والآن ؛ ما أعظم الاختلاف فى الصورة من كافة نواحيها ، فهناك مدن ضخمة فى الغرب ، ولكن لا يشعر كثير من الناس فيها بالأمان والاستقرار ، فيهرعون إلى احتجاز أنفسهم فى منازلهم قبل الغروب ، ولا يسمحون لزائر بالدخول قبل التأكد عدة مرات من شخصيته، ولنسأل كم عدد أولئك الذين يعيشون تحت تهديدات السطو والسلب والاغتصاب والاختطاف بل والاغتيال ؟

حيــاة الأسرة :

تتمتع الأسرة فى الإسلام بوضع متميز ، إذ هى تعد اللبنة الحية الأكثر أهمية فى صرح المجتمع ، فهى مجموعة من روابط الدم والنسب، والتى تستلزم الرعاية المتبادلة للحقوق والواجبات ، فيما يتعلق بالهوية والرزق والنصح والإرث والحب والعناية بالصغار وكذلك الأمان للمسنين.

ولقد أخذ القرآن على عاتقه تناول النواحى المختلفة لحياة الأسرة ، بما فيها الزواج والطلاق والعلاقات بين الأبناء والآباء وحقوق الأرامل والأيتام والميراث والتبنى ، بل والرضاعة الطبيعية وما يترتب عليها . ففى آياته وفى السنّة المشرفة مادة عزيرة وعظيمة عن القانون الإسلامى والأخلاقى الذى ترتكز عليه هذه الموضوعات[1] ، وقد لا نكون منصفين حقاً إذا نحن حاولنا تغطية كافة هذه الموضوعات بما لها من فروع ونقاط فى فصل أو قسم واحد ، فالحق أن هذه الموضوعات قد تم تناولها فى مجلدات ضخمة وكثيرة بالعربية ، ولعله يعد كافياً أن نعلّق على الآيات القرآنية المتعلقة بكل باب منها على حدة .

الزواج :

ينظر الإسلام إلى الزواج على أنه واجب دينى ، الهدف منه هو الحماية الأخلاقية ، وعلى أنه تعهد اجتماعى بين شريكين ، يتعهد كل

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب هيكل(الأسرة فى الإسلام)

منهما أمام الله تعالى وأمام الآخر بأن يقيما معاً حياة سوية مستقيمة ترتكز على تحقيق الأخلاق وتحقيق الذات والحب والسلام والإخلاص والحنان والراحة والهدوء والأمل ، فهو عهد التحدى لإقامة الحياة والمجتمع بصورة كريمة ، وذات معنى، وهو عمل من أجل التقدم المتواصل للإنسانية .

فالزواج فى الإسلام ليس طقساً من الطقوس الدينية المحضة ، ولا هو مجرد عقد مدنى، إنه فوق ذلك بكثير، فهو رابطة إلهية ، واتفاقية مقدسة بين رجل وامرأة يشهد الله عليها أولاً، وتحمل اسمه تعالى قبل كل شيء طاعة له وإذعاناً وخضوعاً لأوامره ، وبمقتضاها يتحمل الزوجان المسئولية بالتساوى : ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم** ﴾ [البقرة ٢٢٨]

ويرفض الإسلام تماماً أنواع الزواج المزعومة ، كأن يفتح باب الزواج على مصاريعه بين المجموعات وهو ما نراه سارياً فى بعض المجتمعات التى تزعم التحضر[١] .

ويأمر الله الزوج بمعاشرة زوجه بالحسنى وأن ينسجم معها ، وأن تكون إحدى مسئولياته المؤكدة كفالتها ، كعهد التزام يتم تنفيذه بسعادة وبلا تأنيب أو إيذاء وبلا طريقة تشعره بالتفوق وبالهبوط إليها من علُ[٢] ، كذلك يتم تنفيذه بتفهم وعفو وحب ولطف ، وإذا أخطأت الزوج فإن الرجل مأمور بمعاملتها بصبر وأناة ، فضلاً عن عدم إيذائها : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف**

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت(Anderson) وكذلك انظر تحت (Abu - Sa'ud)
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ra'uf)

فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾
[النساء آية ١٩]

ويجب على الخاطب أن يمهر زوجته المقبلة طاعة لله تعالى ، ويكون المهر وفق طلبها ووفق قدراته إيماء منه إلى أنه يريدها ويحتاج إليها، ودليلاً على استعداده للقيام بكل مسئولياته ، وضماناً لأمانها معه، وبرهاناً على عدم ابتغائه لهدف مادى من ارتباطه بها .

وتقوم الزوجة باعتبارها شريكاً فى الحياة الزوجية ـ بدور رئيسى هام، هو الإسهام فى نجاح الزواج ، وتحقيق سعادته بقدر الإمكان ، وذلك ليبقى زواجاً مستقيماً وقائماً على الدين والحب والاحترام ، كما يجب أن تطيع زوجها فى الحلال ، وأن تحصر همها الأكبر فى تربية الأطفال وتنشئتهم بأحسن صورة ، وأن تضفى على المنزل لمسات السرور والراحة والسعادة . ويبدو دور الزوجة واضحاً جداً فى الآية القرآنية التى تصف عباد الرحمن ، وهم يدعون ربهم : ﴿ **يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾** [الفرقان آية ٧٤]

أما عن المهر وما تكسبه الزوج فهو لها ، ولا حق لزوجها فى جزء منه حتى بعد دمج الموجودات أو غيرها واختلاطها ، وهو ما جاء على النقيض تماماً مما أتت به بعض التقاليد القديمة فيما تقرر فى الكتاب المقدس : « ... وإن كانت لزوج ونذورها عليها أو نطق شفتيها الذى ألزمت نفسها به ، وسمع زوجها فإن سكت فى يوم سمعه ثبتت نذورها ولوازمها التى ألزمت نفسها بها تثبت ، وإن نهاها رجلها فى يوم سمعه فسخ نذرها الذى عليها ونطق شفتيها الذى ألزمت نفسها به والرب يصفح عنها ، أما نذر أرملة أو مطلقة فكل ما ألزمت نفسها به يثبت عليها ، ولكن إن نذرت فى بيت زوجها أو ألزمت نفسها بلازم بقسم ، وسمع زوجها فإن سكت لها ولم ينهها تثبت كل نذورها وكل لازم ألزمت نفسها به يثبت ، وإن فسخها زوجها فى يوم سمعه فكل ما خرج

من شفتيها من نذورها أو لوازم نفسها لا يثبت قد فسخها زوجها والرب يصفح عنها ، كل نذر وكل قسم التزام لإذلال النفس زوجها يثبته وزوجها يفسخه ، وإن سكت لها زوجها من يوم إلى يوم فقد أثبت كل نذورها أو كل لوازمها التي عليها أثبتها لأنه سكت لها في يوم سمعه ، فإن فسخها بعد سمعه فقد حمل ذنبها » (سفر العدد ـ الإصحاح الثلاثون ٦ ـ ١٥)

كذلك نرى في بعض الأعراف المعاصرة حقاً للزوج في مهر زوجته، وذلك على خلاف ما قررته شريعة الإسلام .

الزيجات المحرمة :

لقد أشار القرآن بوضوح وتفصيل إلى علاقة الدم التي تحرم الزواج: ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نساءكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ [النساء آية ٢٣]

وكذلك توجد بعض العلاقات التي تحرم الزواج كعلاقة الظئْر ، وهي المرضعة التي ترضع أولاد غيرها ، فهي تعتبر أماً لمن أرضعت ، كما جاء في القرآن الكريم أيضاً بتحريم منطقي لعادة سادت بين العرب قبل الإسلام ، وهي عادة التبني : ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا** ﴾ [الأحزاب آية ١٣٧]

فالعرب قبل الإسلام اعتادوا أن يتبنوا أطفالاً وأن يعطوهم كل الحقوق التي يتمتع بها الابن الصلبي ، ومنها أن تكون زوجة المتبَنِّي محرمة على متبنيه دون سبب واقعي بيولوجي . ومن ناحية أخرى نجد أن الناس في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، إلى جانب مجتمعات أخرى قديمة ، بل وحتي وقتنا الحاضر ـ كانوا يقيمون حواجز لا تتخطى أبداً ، وهي حواجز قائمة على الجنس واللون والخلفية الاجتماعية ، تحول دون إتمام الزواج ، وهو ما أدانه القرآن ، حين جعل المعيار الرئيسي هو الإيمان والتقوى ، ووضح أن أَمة مؤمنة خير من سيدة مشركة : ﴿ ولا **تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ [البقرة آية ٢٢١]

فانطلاقاً من الفهم لحقيقة التبني وهو أنه يخلق علاقات دم شبحية وهمية ، وروابط غير عادية وربما يحرم الزيجات المحللة منطقياً وبيولوجيا ودينياً ، ويتدخل في العلاقة بين الطفل وعائلته الحقيقية وبينه أيضاً وبين عائلته الجديدة التي نشأ في كنفها ، بل بينه وبين المجتمع ككل ، لذلك ينصحنا القرآن تجنباً لهذه المشكلات الاجتماعية بأن ندعوهم لآبائهم : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ [الأحزاب آية ٥]

تعدد الزوجات :

وهذا أحد الأهداف المهمة الرئيسية لانتقادات المستشرقين ، وواحد من الموضوعات التي انتشر حولها سوء فهم خطير في الغرب بسبب الكم الهائل من الأفلام الخيالية ، والروايات من نوع ألف ليلة وليلة، فما زالت الأغلبية تتصور الإنسان المسلم على أنه ذلك الذى تتملكه

الرغبة الجسدية، فهو يمتلك بالتالى فى قفص حريمه عدداً كبيراً من الزوجات والمحظيات ، ولديه الحرية الكاملة للانتقال من واحدة منهن إلى أخرى[1]، ومن ثمّ فإننا نسمع بين كل حين وآخر صيحات تنادى بتحرير المرأة ، ولا ريب أن هذه النقطة الخطيرة تحتاج إلى أن يلقى أولئك المهتمون بتعلم الحقيقة من القرآن ومن الكتب الأخرى التى تناولت هذا الموضوع ـ تحتاج إلى أن يلقوا الضوء على كافة حقائقها .

وأولاً وقبل كل شيء نريد أن ننوه إلى أن الإسلام يسمح بتعدد الزوجات ، وهو (Polygyny) ولا يسمح بتعدد الأزواج (Polygamy) وهو أيضاً يدين الشذوذ الجنسي والسحاق ولا يسمح بهما ، وتعد كلتا الجريمتين نوعاً من الفساد الأخلاقى الشديد ، ولكننا للأسف نرى أن بعض المجتمعات الغربية قد مزقت كل رابطة بينها وبين الإرث المسيحى، وانغمست فيما أسمته التطور الأخلاقى ، واتخذت موقفاً سلبياً ، وسنت القوانين المشجعة لمثل هذا الهبوط الخلقى الرهيب[2] .

ولقد وازن الإسلام بين الإنسان كما نعرفه وبين الصورة المثالية له ، فهو لم يطلب منه ـ أو يتوقع ـ أن يكون شيئاً آخر غير ما هو عليه من طموحات طبيعية ، وميول فطرية ورغبات غريزية ينبغى تهذيبها على المدى البعيد . لذلك فعندما يجيز الإسلام تعدد الزوجات فهو يقدم الحل الأسلم والمضمون لبعض المشكلات الاجتماعية الخطيرة ، ولكن هذه الحقيقة تغاضت عنها للأسف بعض المجتمعات المسيحية واليهودية التى فرضت قاعدة اتخاذ زوجة واحدة فقط ، بصورة استبدادية دون أصل من دين .

ومن المعروف أن تعدد الزوجات لم يعمم على مستوى العامة فى

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sommer and Zwcmer) وفى المرجع انظر ص ٣١ ، وكذلك تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١٤٠ ـ ١٥٠ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abu - Sa'ud)

كثير من الدوائر المسيحية واليهودية، سواء فى الماضى أو فى الحاضر ، كما فى المجتمعات المورمونية[1] ، إلا أن تعدد الزوجات قد تقرر بالممارسة طوال تاريخ الإنسانية ، مروراً بالأنبياء الكتابيين كإبراهيم وداود وسليمان وغيرهم ، كما قامت به الرعية فى عهد الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية قبل الميلاد وبعده، إلى أن أصدر الإمبراطور (جستنيان الأول Justinian I) قانونا يفرض الزواج الأحادى على الشعب ، بيْد أن هذا القانون التزمت به الصفوة الممتازة منهم ، على حين لم تكترث به على الإطلاق بقية الجماهير ، واعتبروه قانوناً ميتاً ، أما اليهود والعرب القدامى فقد اعتقدوا بتعدد الزوجات واتخذوه تقليداً وعرفاً[2] .

واليوم ؛ ترد الأخبار[3] بأن الهجرات اليهودية التى تسمح بتعدد الزوجات قد أوجدت لدى السلطات الإسرائيلية كماً ضخماً من المتاعب المالية ، ولعل الكثيرين يعرفون أن الأساقفة الأفرسيويين يرون أن تعدد الزوجات هو أفضل من الخيانة أو المبادلة الزوجية على الرغم من أن هذا لم يعلن على نطاق واسع[4] .

ولا شك فى أن العمل على أحادية الزواج فى المجتمعات المسيحية ليس متبعاً على أنه أمر دينى ، وإنما هو دعوة اجتماعية ، إذ لا أساس له فى الأناجيل ، فقد كان تعدد الزوجات يعد طريقة مقبولة على مستوى العامة فى مرحلة النبوات الكتابية ، ولعل هذا ما يحسب للكتاب المقدس، إذ إنه لم يتعامل مع الموضوع نهائياً ، فلم يحرمه ولم يقيده ولم يضع قوانين تنظيمية له (انظر إنجيل يوحنا ــ الإصحاح الثامن ــ وسفر التثنية ــ الإصحاح الثانى والعشرين) .

---

(١) مورمونية : اسم طائفة دينية فى أمريكا الشمالية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠ وقد أباحت تعدد الزوجات مرة ثم حرمته . (المترجم)

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (A. Ali)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Goitien) وفى المرجع انظر ص ١٨٤ .

فلما جاء القرآن ؛ لم ينبذ ممارسة عادة تعدد الزوجات أو يهملها ، كما لم يطلقها دون قيود وروابط ، فهو لم يستطع أن يكون غير مبال بالموضوع ، وبذلك يتيح فرصة للتشويش والخلط واللامسئولية أن تطغى عليه ، ولكنه بدأ بتهذيب العادة ـ شأنها شأن الأعراف والتقاليد المنتشرة آنذاك ـ وذلك باستئصال تقاليدها الشريرة من خلال تأكيده لمنافعها ، ومن ثمّ نتجت معايير جديدة للتعددية ، وذلك لاستيعاب القرآن للحاجات الإنسانية لدى دخول العقيدة القرآنية واقتحامها[1] ، وصار تعدد الزوجات مسموحاً به فى ظل ظروف معينة وبقيود محددة ، ولعل التشريع القرآنى هو الأول الذى صارح بهذه النقطة ، وجعل حداً أقصى لعدد الزوجات (أربعاً) ، ولا يزال هذا السماح استثناء من القاعدة العادية ، إلا أنه يعد الحل الأمثل لبعض المشكلات الاجتماعية والأخلاقية .

وعلى ذلك ينبغى أن تمنح الزوجة الثانية أو الثالثة نفس الحقوق القانونية والاجتماعية والاقتصادية والشخصية التى منحتها الزوجة الأولى ، والزوج مطالب بأن يعدل بين زوجاته فى الصون والمعاملة والحنان والعاطفة، فإذا خرج بعض الناس عن القاعدة أحياناً فليس ذلك بدليل على خلل القاعدة نفسها، يقول القرآن ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا**﴾ [النساء آية ٣]

لقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد التى استشهد فيها عدد كبير من المسلمين مخلّفين وراءهم العديد من الأيتام والأرامل الذين يقع عبء رعايتهم على الأحياء من المسلمين ، وعلى ذلك فقد كان الزواج هو الطريقة المثلى والعادية للعناية بأولئك الأرامل والأيتام .

ومن هذه الخلفية التاريخية ، خرج المؤلف المسلم عبد العاطى ببرهان سجله على أنه هو ما يميل إليه ، وهو أن الإسلام لم يبتدع تعدد

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) وكتاب (Islam in Focus)

الأزواج ، كما أنه لم يشجع تعدد الزوجات بجعله قاعدة عامة[1] ، ولم يطالب بإلغائه ، لعلمه باستحالة التنفيذ قسراً ، ولما قد يقوم به الناس من تحايل والتفاف حول التحريم ، وهو ما يغلب ـ تحت أسماء مختلفة ـ على تلك المجتمعات التى لديها قوانين وأخلاقيات تحرم تعدد الزوجات .

وبنظرة إلى ظروف اليوم ، نجد أن التعدد يمثل الحل الطبيعى لمشكلات اجتماعية معينة . ففى بعض الأمم ، وبعد انقضاء حروبها المدمرة ، يتفوق عدد النساء على عدد الرجال ، فماذا تفعل المرأة غير المتزوجة ؟ وأنى لهم أن يجدوا لها الرفيق الطبيعى المرغوب فيه من الناحية الطبيعية والأخلاقية والوجدانية والعاطفية ؟ وما العواقب فى حالة عدم تحقيق هذه الرغبات الطبيعية ، والمطامح العادية بصورة قانونية ودينية فى الزواج ؟

لقد رأى كثيرون وأدركوا مدى الخلل الأخلاقى والتصرفات غير المسئولة التى تبدر عن مجتمع ، يبدو أنه انقلب أعمى ، أو أنه بات يصدر القوانين وفق الموضة التى يراها . ونسأل : من هم ضحايا هذا النوع من الأخلاقيات ؟ وهل من مصلحة المجتمع أن يكبت هذه الرغبات المشروعة والتشوّف الطبيعى بين الرجال والنساء لأن يتعارفوا .. ذلك الكبت الذى لن يسوقهم فى الواقع إلا إلى منافذ غير شرعية ؟

وعليه فالسماح بالمشاركات القانونية ـ سواء من وجهة النظر الاجتماعية أو الأخلاقية أو الإنسانية أو الروحية ـ السماح بها فى الصورة الشريفة المسئولة يعد أفضل من تحريم ما قد أتت به الطبيعة ، وإهمال كل ما يترتب على ذلك من أصداء أخلاقية قاسية .

إن عدداً من الكتّاب ، من الشرق والغرب على السواء ، ولا سيما أولئك الذين تعلموا أمثال هذه الأخلاقيات أو اللاأخلاقيات المنمقة ـ

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sommer and Zwemer) وفى المرجع انظر ص ٣١ .

يعبّرون عن اشمئزازهم من التقاليد الإسلامية التى تتعلق بالتعدد على وجه الخصوص ، وبوضع المرأة بوجه عام[1] ، ولكن العديد من الدارسات الغربيات تمكنّ من دحض وتفنيد ما جاء به هؤلاء الكتاب ، وقد درسنه جيداً ، ثم اعتنقن الإسلام بعد ذلك[2] .

الطلاق : متى ؟ وكيف ؟

وهذا الموضوع هدف آخر للهجمات القاسية والانتقادات التى لا ترحم من الغديد من المستشرقين فى الماضى والحاضر ، إذ زعموا أنه أمارة الحط من قدر المرأة فى الإسلام[3] . وقد يحدث أن نرى ذلك واضحاً فى حالات فردية وموجودة فى مجتمعات قلة ، توصف بأنها مسلمة ، ونتساءل : هل هذا هو الإسلام ؟ .. ترى ما مدى ابتعاد هذه المعاملة المتجهّمة للزوجات عن تعاليم القرآن ؟ .. سؤال لم يفكر أحد من المستشرقين أن يطرق بابه ، وأن يجد حلاً علمياً هادفاً له .

إن القرآن لم يترك إطلاقاً الحبل على الغارب للطلاق ، كما أنه لم يرفضه بغشم ، أو بصورة جزافية ، وإنما انطلاقاً من واقعية الإسلام فإنه قرر أن الطلاق هو الدواء المناسب لحالات خاصة من الزواج التى استعصت على الشفاء ، وحيث لا يوجد حل إنسانى آخر ممكن . ومع أن الطلاق حلال إلا أن معاذ بن جبل رضى الله عنه روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أبغض الحلال عند الله الطلاق »[4] .

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sommer and Zwemer) وفى المرجع انظر ص ٣١ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Haidar) وكذلك انظر تحت (Jamilah)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Anderson) وفى المرجع انظر ص ٨٤ ، وكذلك انظر تحت (Menezes) وفيه انظر ص ١٤٠ ـ ١٥٠ ، وأيضاً انظر تحت (Roberts) وفى المرجع انظر ص ٩٥ ـ ١٠٥ ، وتحت (Wollaston)

(٤) انظر تفسير القرطبى ، الجزء الثانى ص ٩٣٤ .

ولقد ذكرنا قبلاً ، أن الزواج هو رباط مقدس بين الزوج وزوجه ليعيشا فى سعادة دائمة ، وفى رفقة مسالمة ، ولكى يحققا هدف الزواج الشريف ، بيْد أن السلوك الإنسانى ـ كما نعلم ـ متغير وغير متوقع ، على الرغم مما قد يتخذه الزوجان من احتياطات تجعلهما يظنان ـ ويظن الآخرون معهما ـ أنهما قد حققا الهدف الشريف . وهذا هو ما سمح به القرآن وأقره ، ولكنه فى الوقت ذاته لم يعترف بالزواج الاسمى أو المؤقت أو غير الفعّال ، كالانفصام ، بل وصف طرقاً فعّالة وكثيرة تعمل على علاج المشكلات التى تنمو بين الزوجين والتى تبدأ فى الغالب من نقطة للخلاف ، فيجب أن يحاول كل منهما التهدئة من النزاع ، ومعالجة الأمر ، وحل المشكلة بينهما ، ويجب أن يتمسك كل منهما بالتقوى ومراقبة الله ، وأن يكون محسناً وكريماً مع الطرف الآخر : ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صالحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ [النساء آية ١٢٨]

فإن لم يصلا إلى تسوية للموقف ، فليطلب كل منهما حكماً من أهله ، فقد يمكنهما حسم الخلاف : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيرا** ﴾ [النساء آية ٣٥]

فالزوج إذن وزوجه يحسن كل منهما إلى الآخر ، فإن تذكر الزوج بعض أشياء سيئة لزوجه ، فليذكّر نفسه أن لها أشياء كثيرة حسنة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا** ﴾ [النساء آية ١٩]

ولا شك أن هذه النصيحة موجهة إلى كلا الطرفين .

فإن فشلت هذه المحاولة أيضاً للتوفيق ، فليكن التطليق ، ولكن بصورته المكونة من ثلاث مراحل متتابعة : فإذا لم يحدث في غضون شهر أية علاقة زوجية فعلى الزوج أو الزوجة ـ من منهما لديه الحق ـ أن يعبر عن رغبته في التطليق ، وفي فترة الانتظار التالية وهي من ثلاثة إلى تسعة شهور[1] تبقى المُطلَّقة أو المُطلَّق في كنف الطرف الآخر ، إذ قد يحدث في هذه الملابسات والظروف الصعبة أن يتذكر أي من الطرفين ويعتذر للآخر ويتقى الله العليم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ . [الطلاق آية ١]

وانظر كذلك في الآيات (٢٨ ـ ٤٠) من سورة النساء .

ولا تستطيع المنتظرة للتطليق أن تتزوج من رجل آخر قبل انقضاء عدتها ، فتبقى لها ولزوجها السابق فرصة ليفكرا في الأمر مرة أخرى ، فيقدر أحدهما للآخر صنيعاً طيباً فتفتح بذلك بوابة يدلفان منها إلى المصالحة .

وبعد انتهاء فترة العدة (فترة الانتظار) فإن تراجع الزوجان فإن تراجعهما يعتبر وكأنه زواج جديد من الناحية الشكلية ، فإن لم تكن علاقتهما قد تحسنت فليطلبا الطلاق مرة أخرى وتبدأ عدة جديدة، فإن فشلا فليكن الطلاق الثالث والبات ﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ [البقرة : ٢٢٩]

(١) الثلاثة الأشهر هي مدة العدة (ثلاثة قروء) ، والتسعة الأشهر هي ما يتعين على المرأة أن تتحمله من الانتظار في حال الحمل إلى أن تضع حملها ..

وقبل الشروع فى إجراءات الطلاق ، وأثناءها وبعدها ، تتصدر المواقف أخلاق الاستقامة والتقوى ومراعاة الكرامة الإنسانية ، بل ويطالب كل من الطرفين بأن يحفظ هذه القيم ، على عكس ما جاءت به بعض التقاليد الأخرى من إعطاء الزوج سلطة بلا حدود ولا رقابة فى تطليق زوجه ، بل ومقاضاتها وسلبها كل حقوقها : « وإن لم تسرّ بها فأطلقها لنفسها ، ولا تبعها بيعاً بفضة ولا تسترقها من أجل أنك قد أذللتها » (سفر التثنية ـ الإصحاح الرابع والعشرين ـ ١) إذ أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شئ وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته » (سفر التثنية ـ الإصحاح الرابع والعشرين ـ ١) .

وكما أشار الأستاذ عبد العاطى فى كتاب (هيكل الأسرة فى الإسلام) إلى أنه ليس من الضرورى للمسلم أن ينفصل عن زوجه لعدد سنين قبل إجراء الطلاق ، كما فى المجتمعات الأخرى ، حيث صدّقت نظم معينة على أن يخالط الطلاق والانفصال الكثير من الأفعال اللاأخلاقية والتى لا يقبلها الإسلام لأنها نقضت قانون الأخلاق الذى يدعو إليه[١] .

وضع النساء :

وهذا موضوع آخر خاض فيه المستشرقون باتهامات لا ترحم ضد التعاليم القرآنية ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ـ تصور (ولاستون) (Wollaston) وآخرون: أن القرآن الكريم قد حرّم الجنة على النساء، ومنعهن من المشاركة فى الصلاة ، واستن الأحكام التى تحط من قدرهن [٢] .

والإسلام ـ طبقاً لسنة الفطرة لا يعتبر المرأة مماثلة للرجل ، .. بل

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (هيكل الأسرة فى الإسلام)
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Haidar)

هما متساويان وكل منهما مكمل للآخر ، غير أنهما ليسا متطابقين ولا متشابهين ، والفرق بين المساواة والمماثلة يعد ذا أهمية كبرى فى تقدير الفطرة الإنسانية ، وفى نظر المجتمع من الناحية الإسلامية ، إذا تمثلنا هذه الحقيقة فلا مجال لتصور أن النساء فى الإسلام هن أدنى من الرجال ، لسبب بسيط هو أن التكاليف والحقوق ليستا متماثلة . إن الإسلام وقد أعطى المرأة حقوقاً مساوية ـ لا مماثلة ـ لحقوق الرجل يؤكد أنه يراها ذات شخصية مستقلة ، وكيان مختلف من الناحية البيولوجية .

والإسلام كما أشار عبد العاطى لم يصم النساء بأنهن نتاج الشيطان، أو بأنهن بذور الشر[1] ، بل لم يشكّ أحد من الكتّاب المسلمين عبر التاريخ الإسلامى كله فى الوضع الإنسانى للمرأة ، وأن لها نفساً محترمة، وخصائص روحية خيّرة ، بل لم يقف رجل مسلم داعياً الله شاكراً على أنه تعالى لم يخلقه امرأة ، كما فعل أتباع الأديان قبل الإسلام ، كذلك لم تؤمر النساء المسلمات على الإطلاق بالصمت وبأن يرضخن ويمتثلن دائماً: «لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن ، بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً » (من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ـ الإصحاح الرابع عشر ـ ٣٤) .

ولقد اعتبرت الأديان السائدة قبل الإسلام المرأة مخلوقاً خسيساً ، فلم يكن يلمسها أحد حتى من عائلتها خلال طمثها ، وفى حالة موت زوجها ، فإما أن يرثها أحد أقاربه ، أو أن تحرق ـ كما فى بعض المجتمعات ـ حية فى محرقته الجنائزية[2] .

إن وضع المرأة فى الإسلام وضع فريد ، صحيح أننا قد نجدها مقدمة

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus) وانظر كذلك تحت (Baljon)

(٢) انظر (Quranulhuda) عدد شهر أبريل / ١٩٧٧ .

على الآخرين فى بعض النواحى ، وذلك فى الدول الغربية والشيوعية[1] ، ولكنها لابد فى كلا المعسكرين أن تكدح لتعيش ، وأحياناً تقوم بنفس العمل الذى يقوم به الرجل ، وبأجر أقل بكثير ، فهى ـ فى سبيل الفوز بمعركتها لاكتساب المعرفة وحرية العمل بذلت تضحيات جسيمة ، حين تنازلت عن الكثير من حقوقها الطبيعية الأخرى .

ولكن فرحة النساء بهذه الحركات التحررية ـ شىء ، وأن يكنّ سعداء فعلاً بالنتائج ـ شىء آخر ، ذلك أن الحقيقة الماثلة تعلن أن الحقوق التى تستمتع بها المرأة المعاصرة باتت هزيلة وقاصرة إذا ما قورنت بنظيرتها الإسلامية التى أقرها شرع الله تعالى .

إن المرأة فى الإسلام لها شخصيتها الاقتصادية المستقلة ، سواء أكانت زوجة أم أما أم أختا أم ابنة ، أم كانت ذات صفة أخرى : ﴿ **ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شىء عليما** ﴾ [النساء آية ٣٢]

فالمرأة لها الحق الكامل فى أن ترث ، وأن تكسب ، وأن تدير أعمالها دون أية قيود أو كفالة ، أو ضمان من زوج ، أو من أب ، كما أن وجود أى عدد من الإخوة لا يمنعها من أن ترث حقها ، يقول القرآن فى ذلك : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا** ﴾ [النساء آية ٧]

فى حين قرر العهد القديم قاعدة أخرى غاية فى الظلم حين يقول: « إذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين ، المحبوبة والمكروهة ، فإن كان الابن البكر للمكروهة فيوم يقسم لبنيه ما كان له لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكرا على ابن المكروهة

(١) أى : قبل أن يسقط النظام الماركسى ، وتنهار النظم الشيوعية فى العالم . (المترجم) .

البكر ، بل يعرف ابن المكروهة بكرا ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه هو أول قدرته له حق البكورية » [سفر التثنية - الإصحاح الحادى والعشرين ١٥ - ١٧]

والإسلام لا يعترف بتغيير اسم المرأة بعد الزواج ، كما فى المجتمعات الغربية ، وإنما يظل اسمها الأول جزءاً مكملاً لشخصيتها الاجتماعية والاقتصادية والعملية ، وهو ما يعد على النقيض تماماً من اتهامات بعض المستشرقين ، إذ تعتبر هذه الامتيازات متقدمة جداً بالنسبة إلى ما تطالب به النسوة فى بعض المجتمعات المتحضرة اليوم(١) .

ولا ريب فى أن المرأة المسلمة تلقى احتراماً كبيراً بسبب حجابها التقليدى ، فهى تجمّل نفسها بالشرف والكرامة والطهارة والعفة والنقاء والكمال ، كما تحمى نفسها وأخلاقها بالإحجام عن كل الأعمال والإيماءات التى تثير الشهوات ، وتدعو الرجال الغرباء إلى أن يتفرّسوا فيها ويحدّقوا ، وحسبنا أن نقرأ قول الله تعالى فى سورة النور :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [النور آية ٣٠ - ٣١]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (هيكل الأسرة فى الإسلام) وكذلك تحت (Rodinson) كتاب (الإسلام والرأسمالية) .

ويجب على كل مسلم ومسلمة أن يجدّ فى طلب العلم ، روى أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »[1] . لقد نفّذ المسلمون هذا الإعلان بحماس فى تلك الفترة التى كانوا فيها يمشون وفق منهاج دينيهم ، فنقرأ كيف برزت أسماء النساء بين مشاهير الدارسين والشعراء والصوفيين ، ومنهم السيدة زينب[2] ، والسيدة سكينة[3] ، ورابعة العدوية ، مما يبين أن المرأة قد أوتيت حرية التعبير ، مثلها مثل الرجل ، وحرية أن تفصح عن رأيها الدينى والعقائدى على الملأ ، وهو ما وصفه التاريخ عندما ذكر عدول الخليفة عمر بن الخطاب عن رأيه بناء على اعتراض المرأة عليه، بل لقد كان دور المرأة مهماً فى حياة النبى ﷺ، وهو ما سجله القرآن فى قوله تعالى: ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب مهين** ﴾ [المجادلة آية ١ ـ ٤]

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم**

(١) انظر تفسير القرطبى ـ الجزء الرابع ص ٣١٣٤ .
(٢) هى زينب بنت الإمام على بن أبى طالب ـ شقيقة الحسن والحسين . (المترجم) .
(٣) هى سكينة بنت الحسن بن على بن أبى طالب . (المترجم) .

الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلك حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم * وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون * يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴾ [الممتحنة آية ١٠ ـ ١٢]

فليس غريباً أن ينسب الإسلام للمرأة أنها هي الشريك المكافئ للرجل في عملية تناسل الجنس البشرى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾** [النساء آية ١]

فهى مساوية للرجل فى تحمل المسئولية الشخصية والمشتركة بينهما، وفى عدم ضياع أجرها على أعمالها ، وهـذه آية توضح هذه النقطة : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾**

[آل عمران آية ١٩٥]

لقد وقع بعض المستشرقين فى سوء فهم يتعلق بالآيتين (٢٢٨) من سورة البقرة ، و(٣٤) من سورة النساء ، فظنوا أنهما تؤكدان على سيادة الرجل وفوقيته على المرأة ، وهاهما الآيتان ، قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**

وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ [البقرة آية ٢٢٨]

وقوله فى سورة النساء : **﴿ الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا ﴾** [النساء آية ٣٤]

ولنفهم الموضوع الآن بكل ملابساته ، لقد تعرضت الآيتان (٢٢٧) ، (٢٣٤) من سورة البقرة إلى مناقشة العلاقة بين الزوج وزوجه، وخاصة من زاوية الطلاق ، بيد أن الآية التى نعرض لها الآن وهى (٢٢٨) من نفس السورة تشير إلى أن النساء لهن جميع الحقوق ، فهن مساويات للرجال ، ولكنها أضافت أن الزوج لديه درجة قوامة هى العدل بعينه ، إذ إنها تذكر أن عبء صون الأسرة وحمايتها تحت كل الظروف يقع على عاتق الرجل وحده ، فلابد من أن تكون لديه فرصة أكبر للبت فى الأمور من زوجته ، فهو فى الحقيقة أكثر قدرة على النظر بموضوعية إلى الأشياء ، وهو يتخذ قرارات أكثر عقلانية ومنطقية وبعيدة عن التأثر بالعواطف والأحاسيس الوجدانية ، وكل ذلك فى إطار إيمانه بأن التقوى هى أساس العلاقة بين الزوج وزوجه .

لذلك ؛ وجدنا بعض المفكرات الغربيات يبدين إعجاباً كبيراً بحفاظ الإسلام على أنوثة المرأة ، وحرصه على أداء النساء لوظيفتهن الطبيعية ، كما نقدن بشدة أوضاع : « البنات المسترجلات الغربيات ... اللواتى يلبسن السراويل ويرفعن أصواتهن بصورة فجة ، والنساء اللاتى يحاكين الرجال ، ويتباهين بقيامهن بأعمالهم ، والنسوة اللاتى فقدن أنوثتهن ، فلا هن أمهات ولا هن زوجات ، بل ولا هن حتى عشيقات »[1] .

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Jamilah) ، وكذلك انظر تحت (Haidar) ص ١٩٤ ـ ٣٠٠ .

علاقات الآباء بالأبناء :

ارتبط الآباء والأبناء بعهود أخلاقية متبادلة ، فعلى كل منهما أن يتذكر الله ويطيع أوامره سبحانه ويحبه ويخشع له ، فالأبناء ليسوا سوى منحة إلهية ، وهم فى الوقت نفسه ابتلاء ، فقد يشكّلون مصادر للفخر والفرح ، وبذوراً للغرور والخيلاء ، وإغراء بالتدليل لهم من قبل آبائهم ، وقد يكونون سبب حزن وكمد لهم : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾ [الكهف آية ٤٦]

لذا جاءت التوجيهات للآباء كيلا يدللّوا أبناءهم بصورة مبالغ فيها، وكذا لكيلا يهملوهم ويتركوهم بلا رعاية .

كما أن القرآن الكريم أدان عادة وأد البنات ، تلك العادة اللاإنسانية القاسية التى وجدت فى جزيرة العرب[١] على غرار ما ساد خلال المرحلة الأنطونيونية (Antonine Period) للامبراطورية الرومانية فى طبقات الشعب الفقيرة[٢] ، واعتبر القرآن أن حق الأبناء فى الحياة الكريمة يعد من حقوقهم المحرّم تجاوزها ، وأمر الآباء أن يرعوا أبناءهم ويربوهم مادياً وروحياً بصورة صحيحة : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾ [طه آية ١٣٢]

﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [التحريم آية ٦]

فمسئولية الأبوين ودورهما الحاسم هو تشكيل شخصية الأولاد كما ينبغي ، وسواء أكان الأبوان على قيد الحياة أو لا ، موجودين أو غائبين ، قادرين أو عاجزين ، معروفين أو غير معروفين ، فإن المجتمع ككل مسئول

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Roberts) وفى المرجع انظر ص ٩٥ ـ ١٠٥ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) ص ٣٩٥ .

بالمشاركة عن العناية بالطفل وإسعاده فى كل كلمة توّجه إليه : ﴿ **وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا** ﴾ [النساء آية ٢]

﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ (الضحى آية : ٩)

ثم يأتى التأكيد الشديد على رعاية الأبناء لآبائهم تحت أى ظرف من الظروف ، ذلك أن بر الوالدين بعد توحيد الله والإيمان به :﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير** ﴾ [لقمان آية ١٤]

﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما** ﴾ [الإسراء آية ٢٣]

ويشمل مفهوم الإحسان جميع معانى الحق والخير والأدب والجمال، فهو يتطلب من الابن الحب الشديد والصبر والعرفان والرحمة والاحترام لوالديه ، فيغمرهما بالنصائح والمشورة والرعاية التى يحتاجان إليها ، ويبذل غاية ما فى وسعه لمساعدتهما لجعل حياتهما مريحة ، كذلك يدعو لهما بعد مماتهما ، والقرآن يعبر هنا فيقول : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا * ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ [الإسراء آية ٢٤ ـ ٢٥]

إن هذا السلوك المطلوب من الأبناء هو بدون قيد أو شرط ، بمعنى أنه لا يعتمد على استحسانهم لما يأتى به آباؤهم من أفكار وأعمال ، وإنما ينبغى أن يسود رغم أى خلاف ـ مهما عظم ـ فى العقيدة أو فى الرأى، أو رغم حدوث فجوة بين الأجيال كما يسميها البعض .. ويورد القرآن إبراهيم كمثال ممتاز للابن البار رغم اختلاف العقيدة : ﴿ **وإذ قال**

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (H.G. Wells) ص ٣٩٥ .

إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ﴾
[الأنعام آية ٧٤]

﴿ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً * يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سويا * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا * قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا * قال سلام عليك سأستغفرُ لك ربى إنه كان بى حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألاّ أكون بدعاء ربى شقيا ﴾ [مريم آية ٤٢ ـ ٤٨]

موقف القرآن من الرق :

على الرغم من تحريم تجارة الرقيق على المستوى الدولى فى القرن الثامن عشر ، إلاّ أن بعض البلدان وضعت بديلاً لها مؤخراً ، فقد تم اكتشاف مئات من الأفريقيين وهم مشحونون فى صناديق على شاحنات عبر إيطاليا ، ومنهما إلى دول أوروبية أخرى ، حيث يتم استغلالهم فى الأعمال الثقيلة ، وفى تشييد المبانى ، دون ضمان صحى أو وظيفى أو اجتماعى ، وحيث يعيشون فى ظروف معسكرات الاعتقال[١] . ولكن ما يثير التعجب والاستغراب هو تلك الاتهامات التى تكال للإسلام بطريقة عشوائية حول موضوع الرق وأسبابه[٢] !!!

إن التاريخ يسجل أن الرق قد عايش المجتمع الإنسانى منذ بدايته ، فقد كان متأصلا فى روما القديمة ، وفى اليونان ، قبل ظهور الإسلام والمسيحية بقرون عديدة ، بل إن (أرسطو) قد وصف نظام الرق بأنه

(١) انظر مجلة (Egyptian Gazette) عدد ١٩٧٢/٧/١٩ ص ٢ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Abdel - Ati) كتاب (Islam in Focus)

ضرورى وطبيعى ومفيد عند تطبيقه بدقة[1] ، بينما قدّر كل من (جيبون) (Gibbon) و(بلير) (Blair) نسبة أعداد العبيد إلى أعداد المواطنين الأحرار فى روما بأنها حوالى ثلاثة إلى واحد وذلك فى غضون الثلاثة القرون التى أحاطت بمولد السيد المسيح . وقد كانت مصادر الرق إما نتيجة للأسر فى الحروب ، أو الاختطاف ، أو بيع الآباء لأطفالهم ، أو عقوبة توقّع فى بعض أنواع الجرائم ، كأن يستعبد اللصوص والمدينون المفلسون وفق بعض تقاليد العهد القديم ، وكان الاستعباد يشمل أحياناً نساءهم وأطفالهم ، وهو ما نجده فى سفر الخروج ـ الإصحاح الحادى والعشرين إلى الإصحاح الثالث والعشرين . أما عند الإغريق فقد حبّذوا استعباد الأجانب فى حين لم يكن استعباد المواطنين مسموحاً به ، على عكس ما سمح به العبرانيون من استعباد مؤقت . كل هذا يجعلنا نخلص إلى أن الاستعباد للأجناس الدنيا كان مسموحاً به ، وشائعاً .

ولم تكن الكنيسة سعيدة بالرق ولكن موقفها كان سلبياً دائماً ، وذلك أن كثيراً من المسيحيين يؤمنون بأن المسيحى الأبيض وأخاه فى الدين الأسود يتساويان فى مملكة السماء ، ولكن هذا لا يعنى أنهما متساويان فى مملكة الأرض[2] ، ولعل تلك السيطرة المطلقة فى الحياة والممات التى كان يفرضها الإقطاعى على رقيقه وعبيده ـ كانت انعكاساً للانحطاط والفساد الأخلاقى .

أما القرآن ؛ فهو يذكر عبودية ، ولكنه يذكر تحرير العبيد ، وهو ما يتم فى صور متعددة ليست من قبيل التقاليد الاجتماعية والإنسانية ، ولكنها أولاً وأخيراً عبادة لله الرؤوف الرحيم ، فمن أفضل أعمال الخير وأكثرها حسنات إعتاق العبيد ، ثم يليه مباشرة الإطعام فى ظروف المجاعة:

﴿ فك رقبة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ﴾ [البلد آية ١٣ ـ ١٤]

---

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية مجلد ١٦ ص ٨٥٦ .

ويرينا القرآن أن هناك آثاما يمكن التكفير عنها بإعتاق العبيد ، فإن لم يكن لدى العاصى أى عبد ، فليشتره وليعتقه ، وإن كان هذا مستحيلا بسبب عدم وجود عبيد أصلاً ، أو لأن المذنب لا يملك إمكانية شرائه ، فإن هناك أعمالاً عوضية للتوبة وللتكفير عن الذنب . فمثلاً الظهار ؛ بمعنى أن يحرّم الرَجل زوجته على نفسه ويجعلها عليه كظهر أمه ، فيجب عليه أن يتوب بتحرير رقبة ، فإن لم يجد رقبة يحررها ، فعليه صيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فليطعم ستين مسكيناً ، وهو ما توضحه الآيتان الآتيتان :

﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ [المجادلة آية ٣ ـ ٤]

وكذلك ينبغى على من يحنث فى يمين الله أن يحرر رقبة : **﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لمن يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾** [المائدة آية ٨٩]

وعلى من يقتل مؤمناً خطأ أن يحرر رقبة مؤمنة وأن يدفع دية الميت إلى أهله : **﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن يقتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم**

بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيما ﴾
[النساء آية ٩٢]

ويدين القرآن الكريم تلك المقولة القديمة التى ترى أن العبيد سيحاسبون ويسألون بدلاً من سادتهم فيقول : **﴿ ... ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾**
[الإسراء آية ١٥]

فلا فرق بين عبد وسيد ، ولا تمييز بين الأجناس ، فكل الناس لآدم وآدم من تراب ، ولا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح : **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾**
[الحجرات آية ١٣]

ولعله قد وضح الآن وتأكد أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى علّم أتباعه أن يتحلّوا بالرحمة والإنسانية فى معاملتهم مع أولئك التعساء الذين استرقّوا لسبب أو لآخر ، فقد فرض عليهم تحرير الرقيق وبين لهم الوسائل، حتى إن القرآن ليضرب مثالاً بزوجين فى حياة النبى ﷺ كان لديهما قليل من الطعام ويكاد يكفيهما وحدهما إلا أنهما حبا لله تعالى استضافا مسكينا ويتيما وأسيرا وأعطوهم كل ما لديهم :

﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوسا قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا* وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قوارير من فضة قدورها تقديرا * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا *

عينا فيها تسمى سلسبيلا * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا * وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾

[الإنسان آية ٨ ـ ٢٢]

فالمسلمون إذن عندما كانوا يعيشون فى ظل التعاليم القرآنية ، كانت تصرفاتهم نحو عبيدهم تمثل أسمى معانى الإنسانية ، وهو ما أقر به المستشرقون[١] ، ألم يكن بلال ـ الذى كان عبداً حبشياً ـ من أكثر صحابة النبى ﷺ قرباً إليه ؟ فقد منحه امتياز رفع الأذان ، ثم صار بعد ذلك واليا على إحدى الولايات الإسلامية[٢] ، بل ويسجل التاريخ أن سلالات الملوك والحكام فى مصر والهند إبّان القرون الوسطى كانت ذات أصول مملوكية ، وهم أولئك الذين كانوا عبيداً والتحقوا بالجيش ، وارتقوا إلى مناصب السلطة والتأثير على أهل الصفوة فى المجتمع .

الخلاصة :

ينبغى أن نعلم أن الآيات المذكورة تحت جميع العناوين ليست كل الآيات التى تتعلق بموضوع الأخلاق ، فغيرها كثير فى القرآن الكريم ، وكيف لا يكون كذلك ، والقرآن هو الرسالة الإلهية لهداية الإنسان فى حياته على الأرض ؟ إن هناك الكثير من الآيات التى تقود الإنسان إلى الصراط المستقيم تحت كل الظروف والملابسات ، فهناك الدعوة إلى التواضع : ﴿ **ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور * واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾

[لقمان آية ٨ ـ ١٩]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Margoliouth) كتاب (نشأة المحمدية) ص ٨٤.

(١) لم يتول بلال رضى الله عنه أية ولاية ـ فيما نعلم ، ولكنه كان خازن بيت المال فى عهد الرسول ﷺ (الأعلام) ـ (المترجم)

والدعـوة إلى الصـبـر : ﴿ **يا أيهـا الذين آمنـوا اسـتـعـينوا بالصـبـر والصلاة إن الله مع الصابرين** ﴾ [البقرة آية ١٥٣]

وإلى التـواضـع : ﴿ **ولا تمش في الأرض مـرحـا إنك لن تـخـرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾ [الإسراء آية ٣٧]

وإلى الدعـوة إلى كل فـضـيلة ، ونبـذ المنكرات : ﴿ **يا بنـي أقـم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ [لقمان آية : ١٧]

وإلى الدعوة إلى الاعتصام بالحق قبل الانزلاق في المعصية: ﴿ **ولقد همّت به وهـمّ بهـا لولا أن رأى برهان ربه كـذلك لنصـرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ [يوسف آية ٢٤]

وإلى الصــــدق : ﴿ **الصـابرين والصـادقين والقـانتين والمنفـقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ [آل عمران آية ١٧]

وإلى الإخـلاص : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتـاب بالحق فـاعـبـد الله مخلصاً له الدين** ﴾ [الزمر آية ٢]

ودعوة إلى التعاطف مع الضعفاء والمبتلّين : ﴿ **يا أيهـا الذين آمنوا كـونوا قـوّامين بالقـسـط شـهـداء لله ولو على أنفـسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقـيرا فالله أولى بهـمـا فلا تتبعـوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾

[النساء آية ١٣٥]

والدعوة إلى رعاية اليتـامى : ﴿ **وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبـدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا** ﴾

[النساء آية ٢]

ودعوات أخرى إلى مكرمات وأخلاقيات طيبة ، فـمـثلا التناجى ينبـغى أن يكون موضـوعه بِرّاً وتقـوى لا شراً وعـدوانا : ﴿ **يا أيهـا الذين**

آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾ [المجادلة آية ٩]

ومن قواعد السلوك الاجتماعى التى لفت القرآن النظر إليها التحية والاستئذان عند التزاور : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ﴾** [النور آية ٢٧]

﴿ ... فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ [النور آية ٦١]

﴿ ... وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾

[البقرة آية ١٨٩]

أما إذا أكلت فما عليك سوى أن تذكر الله تعالى الذى وهبك ما تأكل : **﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴾**

[المائدة آية ٤]

ومن آداب التحية : **﴿ وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها إن الله كان على كل شىء حسيبا ﴾** [النساء آية ٨٦]

كذلك إن توسطّت فى خير تجلبه لمحتاج فإن الله سبحانه يثيبك : **﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شىء مقيتا ﴾** [النساء ٨٥]

ولا تسخر من الآخرين الذين ربما يكونون خيراً منك ـ رجلاً كنت أو امرأة ـ ولا تفتر على الناس وتتهكم عليهم ، ولا تنابز الآخرين بألقابهم التى يكرهونها ، ولا ترتب ولا تتجسس وتغتب : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من**

نساء عسى أن يكن خير منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون * يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ [الحجرات آية ١١ ـ ١٢]

﴿ ... وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ [المائدة آية ٢]

ولا شك في أن علاقات الأمم والشعوب ، بعضها مع بعض ، تعد جزءاً مكملاً لحياة المجتمع ، فهناك إجراء المعاهدات وإضرام الحروب بين البلدان . أما تعاليم القرآن فهي لم تتغاض عن ذلك ، بل جعلت التقوى والإنصاف هما الأساس تحت كل ظرف من الظروف ، حيث يجب أن تتحقق شروط العدالة في أي موقف مواجهة ، بين الأمم ، أو بين الأفراد : **﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا ﴾** [النساء آية ٥٨]

فالمقاتلون المسلمون مأمورون في أوقات الحرب ، وفي ساحات الوغى ، أن يكونوا صارمين ثابتين ، ولكنهم لا يمكن أن يكونوا معتدين آثمين ، إذ ينبغي أن يتقوا الله وأن يتذكروه : **﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾** [التوبة آية ١٢٣]

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة آية ١٩٠]

ولقد أعجبت قلة من الدارسين بكل هذه الفروع من الأخلاق التعاملية والسلوك السامي ، ولا عجب في ذلك ، فقد استمرت هذه

الأخلاق الإسلامية قبل زمن طويل من معرفة قوانين التعامل والشهامة والفروسية سواء فى الغرب أو الشرق ، وعندما اعتنقها والتزم بها الأفراد والجماعات فى الأمة الإسلامية فى قرونها الأولى ـ رفعتهم من القاع إلى القمة فى المجتمعات البشرية. فقبل اعتناقهم للإسلام كانت ضمن عاداتهم وأد بناتهم الصغار أحياء ، وتعدد الأزواج والزوجات ، ثم غارات القبائل القوية على تلك الضعيفة ، ومصادرة إبلهم وأغنامهم ، بل واسترقاق نسائهم وأطفالهم . كان هذا هو العرف السائد عندهم قبل الإسلام .

والآن بعد النظر فى الآيات السابقة نتساءل : هل يوجد أى قانون وضعى أخلاقى يحاكى القانون القرآنى ، ونتساءل أيضاً : كيف تغاضى أولئك المستشرقون الذين اتهموا القرآن والإسلام بتجردهما من الأخلاقيات وحضهما على الآثام ؟ كيف تغاضوا عن كل هذه الآيات؟ وكيف استطاع أولئك الدارسون الجدد أن ينبذوا القرآن لعدم احتوائه على شىء من احترام الوالدين ، أو الملكية ، أو الحياة ، أو حتى عن تجنب شهادة الزور ؟ هل هى اللامبالاة أصابتهم أثناء قراءتهم للكتاب الكريم ؟ أم كانت حالة عدم فهم ؟ أم كانت مجرد إجحاف أعمى ؟

وعلى الرغم من هذه الانتقادات المعيبة فى حق القرآن ، سيظل القرآن هو المثل الأعلى ، والأكثر إلهاماً للملايين ... ملايين المؤمنين ، لهدايتهم فى مسيرتهم ... فى كل مرحلة من مراحل حياتهم .

* * *

الفصل الثالث عشر

القضاء والقدر وحرية الإرادة

هل يملك الإنسان الاختيار بإرادة مطلقة فى مسيرة حياته ، بحيث يصل بهذا الاختيار إلى أهدافه ، ويحقق عن طريقه آماله ؟ أم ... إنه مجبر تحت قهر قدرة عظمى تحدد مساره ولا يملك معها قولاً أو فعلاً ؟ لنعلم بداية أن أحداً لم يستطع تحديد زمن ولادته ولا مكانها ، ولا بيئتها مسبّقاً ، ثم نتساءل : إذا كان المولد شيئاً خارجاً عن إرادة الوليد ، وهو ليس بخارج كلية عن إرادة والديه ، فما حجم تدخلهما وتحكمهما فى الموضوع ؟ ثم إذا رجعنا إلى منشئنا ونظرنا فى أصلنا الذى ورثنا عنه صفات معينة تظهر فى هيئتنا وطاقاتنا وخصائص خلقتنا ، نتساءل : من ذا الذى يزعم لنفسه القدرة على التحكم فى الأجداد الذين يورثونه صفاته؟ وإلى أى درجة ؟

وكذلك كم عدد الوظائف التى تحت تحكمنا ، من بين الوظائف الكثيرة التى تتم باستمرار داخل أجسامنا ، سواء فى الجهاز العصبى ، أو الهضمى ، أو التنفسى ، أو غيره من الأجهزة ؟ وإلى أى مدى ؟ صحيح أن الأكل والشرب خاضعان بدرجة كبيرة لإرادتنا ، ولكن بمجرد أن يتجاوز الطعام لهاتنا ، ما مقدار السيطرة التى تبدو منا عليه بعد ذلك ؟

إننا بكل بساطة ، وأنّى توجهنا ـ خاضعون لأقدار خارجة عن سيطرتنا ، ليس هذا اعتقاداً للمؤلف، ولا هى فكرة يحاول أن يعرض لها، وإلا فكم عدد الأفكار والكلمات والأفعال التى تنسب إلينا كاملة ؟ بل كم عدد أعمالنا المؤثرة فى الأصدقاء والأسر وغيرهم ممن قد لا نعرفهم ؟

لا أحد ينكر حريتك فى قضاء وقتك كما تشاء ، وفى أن تلتحق

بالعمل الذى تستمتع به إن توفر ، وفى أن تأكل ما تشتهى من طعام فى أى وقت تريد ، وفى أن تقول ما تشاء لمن تحب ، فكل ذلك خيار لك وعلى مسئوليتك الخاصة .

وعليه فقد ثبت أنه لا يمكن طرح موضوع الجبر والاختيار أو القدر وحرية الإرادة بصورة قاطعة ، وعلى طريقة التفريق بين الأبيض والأسود ، كما يتصور بعض الناس ، ذلك أن دور الإنسان يتضاعف بلا شك فى الحياة إذا نظر إلى الأشياء وفقاً لأصولها ، فتصرفات بعضهم تكون أحياناً تحت إرادتهم ، فى حين لا يملك آخرون قول أقل القليل انطلاقاً من سيطرتهم التامة .

ولعل كثيراً من المفكرين والكتّاب قد أدلوا بدلوهم فى مناقشة لا تنتهى حول موضوع حرية الإرادة منذ الأزل ، بغض النظر عن خلفياتهم إن كانوا مسلمين ، أو مسيحيين ، أو ملحدين ، أو أى شىء آخر ، وقد ادّعى كل منهم أنه قد توصل إلى الفصل النهائى للجدل، الذى ينبغى أن يتبعه الآخرون الذين ما يلبثون أن يعترضوا عليه ، ويرفضوا رأيه،ويبدأوا من جديد .

وليس فى نية المؤلف أن يناقش وجهات نظر مختلف الكتّاب ، القدماء منهم والمحدثين ، لأن ذلك ليس من اهتمام هذا الفصل ، ولكنه سيركّز الاهتمام على أقوال القرآن وتعليقات المستشرقين عليها حول هذا الموضوع ، ولسوف يستشف القارئ من خلال القراءة وجهات النظر المختلفة التى أتى بها الدارسون الغربيون ، ذلك الاختلاف الناجم عن ظنهم بشىء يفترضون أن القرآن الكريم قد أتى به ، وليس من أفكارهم هم ، ولعل الإنسان يجد عذراً للتناقضات بين أقوال المستشرقين لصعوبة الموضوع . ولكن ما الحقيقة ؟

* * *

هل يبشر القرآن بالجبرية[1] ؟ :

هذا هو الانطباع الذى يسود الملايين فى الغرب لدى رؤيتهم أو سماعهم عن العديد من أفراد المجتمعات الإسلامية ، ولا شك فى أن كثيرين قد خبروا تلك التصرفات وعرفوها ، كاستسلامهم للقسمة والمكتوب ، وبذل المجهود القليل بل والمعدوم لتحسين أوضاعهم ، وتقاعسهم عن طلب العلاج فى حالة المرض ، ولكن القضية كلها تنحصر فى نقطة واحدة هى أن بعض الأمهات الساذجات فى مصر وغيرها، وهن اللاتى كتب عنهن رضا أمين[2] لا يعتنين بصحة أطفالهن بصورة كافية أو ملائمة. وعليه .. فجرثومة تواكلهن تكمن فى إهمالهن، وليس بالطبع فى دينهن ، الذى نزل أول تعليم فيه بالأمر الديناميكى والواجب تنفيذه «اقرأ » (العلق ١)، ولعل دانيال (Daniel) كان من الذين ناقشوا هذه النقطة فلاحظ أن المسلمين فى القرن السابع عشر، وهو زمن انحطاطهم الشديد ، اعتادوا ألا يبذلوا أى مجهود، أخذاً بالاحتياطات الواقية من الطاعون ، فى حين أنهم عندما كانوا متمسكين بدينهم فى القرون الوسطى كان هذا النمط من الاستسلام المطلق غير موجود[3] .

ومن ثمّ فسلوك الناس يمكن أن يكون مختلفاً تماماً عن تعاليم دينهم ، ولكن ما الذى يقوله القرآن بالفعل ؟ أهو الجبر أم غيره ؟

لقد وجد (بيثمان) (Bethman) من خلال دراسته لموضوع القضاء والقدر عدداً كبيراً من آيات القرآن تركت لديه انطباعاً جعله لايشك مطلقاً فى أن مسيرة الإنسان الحياتية قد وضعت ونظّمت مسبّقاً ، ولا يمكن لشىء أن يُعرف قبلاً ، أو أن يُمنع حدوثه[4] ، ثم أضاف

(١) الجبرية : الإيمان بالقضاء والقدر . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (R. Amine)

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Daniel) وفى المرجع انظر ص ١٥٠ ـ ١٦٠ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bell) كتاب (أصل الإسلام) .

(سيل) (Sale) إلى ذلك : « إن الخير والشر ثابتان لا يتغيران ، ولا يمكن للبصيرة الثاقبة أو الحكمة الصائبة أن توجد أى احتمال لتلافيهما»[1] ، ثم اتهم (درايكوت) (Draycott) الإسلام بنفس الضراوة العمياء بأنه يرسّخ معتقده القوى بالجبرية فيقول : « إنها ليست جبرية للسبب وللتأثير ، بحيث تولّد من خلالها روح السبب العظيم ، الذى لا يمكن للإنسان أن يدركه ، وإنما هى الإيمان بالحتمية ، التى يفرضها كائن ذو سلطة كلّية ، وقدرة نزوية ، لا يستطيع الجنس البشرى معها أن يبدّل ، ولو أنملة دقيقة ، فى نصيبه المرسوم له »[2] .

وإلى نفس المدرسة ينتمى (فون جرونباوم) (Von Grumebaum) الذى خلص من أمثال الآية الآتية إلى أنها إنكار لحرية الإرادة فيقول : «إنها تدعو إلى إغماض العين عن الماضى ، واللامبالاة بالحاضر ، وعدم الاهتمام بالمستقبل »[3] .

﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران آية ١٢٩]

ثم أخطأ (بيثمان) فزعم أن الإسلام قد كبت السعى للارتقاء السلوكى ، ومنع كل النضال للوصول إلى الأهداف السامية ، وكبح كل المساعى لتحسين الأخلاق ، كما لم يرـ بيثمان ـ فى الإسلام أى مجال للمسئولية الشخصية عن النجاح أو الفشل . وسوف نعرض لمناقشة هذه الانطباعات الخاطئة لهؤلاء المستشرقين فى الصفحات القادمة .

أما ما جاء به (لامنز) (Lammens) و(وات) (Watt) فقد تعارض تماماً مع وجهات النظر السابقة ، إذ بدا لهم واضحاً لدى

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٧٤ .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Draycott) وفى المرجع انظر ص ١٣ .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Von Grunebaum) وفى المرجع انظر ص ٧ .

ملاحظتهم لآيات كثيرة أن « هداية الله والضلال يتبعان بلا انقطاع تصرفات الإنسان من إيمان وتقوى أو من كفر وشر »[1]، وأضاف (وات) (Watt) : « صحيح أن هناك كثيراً من الجبرية بين المسلمين ، ولكن الإسلام المثالى الصحيح الموجود فى القرآن يقاومها بعنف رغم ما يتكرر من أسلوب حول معنى التدين الحقيقى من اعتماد على الله لمنحنا القدرة على التصرف ، ولحمايتنا من الشر »[2] .

وبنظرة أوسع وأرحب إلى القرآن ، أتى (أربرى ولاندو) (Arberry and Landau) بشرح للعلاقة بين الله سبحانه وتعالى وبين الإنسان : «من المتفق عليه أن كل نَفَس يتنفسه الإنسان ، بل وكل لمحة يأتى بها ، وكل حركة ـ هو بفضل القوة والطاقة اللتين أنشأهما الله فى جسده ، فلا حركة بدونهما ، كما أن الناس لا يزالون أحراراً فى تصرفهم بطريقة ملائمة، وبجدارة، فى ظل إحساس حقيقى بأنهم سيثابون أو يعاقبون »[3] فقد أنزل الله تعالى الأوامر والنواهى ، وأرسل رسلاً مبشرين ومنذرين للناس ، حتى يتمكنوا من تقييم أعمالهم .

وعلى نفس المنوال أعلن (لويس) (Lewis) أنه مهما كانت القيود التى وضعها القضاء الإلهى على الحرية الإنسانية ، فإن لدى الناس حرية كافية فى إطار هذه القيود ليقرروا مصيرهم بأنفسهم ، وعليه فبعيداً عن الاعتقاد بأن الإسلام دين جبرية ـ نرى أن الإسلام دين يميزه شعور قوى بالمسئولية الإنسانية تجاه التصرف ، إذ لا يمكن لإنسان أن ينوب عن آخر فى العذاب[4] ، فالله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا فى حدود

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lammens) ، وتحت (Watt) كتاب (الجبر والاختيار فى الإسلام).

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (الجبر والاختيار فى الإسلام) .

(٣) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Arberry and Lammens) وفى المرجع انظر ص ٢٥٠ ـ ٣٠٥ .

(٤) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lewis) وفى المرجع انظر ص ١٠٠ ـ ١١٠ .

استعدادها وطاقتها : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ...** ﴾ [البقرة آية ٢٨٦] ، كذلك لا تحمل نفس أوزار أخرى : ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾
[النجم آية ٣٨]

لقد وقع كل من (جيردنر) (Gairdner)[1] و(ليفى) (Levy)[2] بكل أسف فى خلط كبير ، عندما قرءا وجهة النظر القرآنية فى هذا الموضوع ، إذ ظنّا أن هناك نغمتين متباينتين فى القرآن ، فأعلنا أن الإسلام فعّال بنّاء فى بعض الأوقات فقط ، أما فى الأوقات الأخرى فإنه يغرق فى جبرية ميتة .

فماذا يقول القرآن حول هذا الموضوع ؟

لا يمكن تركيز أقوال القرآن عن هذا الموضوع المتشعب فى كبسولة صغيرة ، ولكى نكوّن رأياً دعونا نتأمل فى قليل من الآيات التى يستشهد بها عادة المستشرقون الذين يكتبون فى هذا الموضوع الخلافى . لقد ذكرنا قبلاً فى الفصل العاشر أن الله القادر العليم قد خلق الكون وحفظه وأحكمه ، بل وصوّر كل شىء بإبداع وإتقان : ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير** ﴾
[الأنعام آية ٧٣]

﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار * وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله**

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Gairdner) وفى المرجع انظر ص ١٣٠ ـ ١٤٥ .
(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Levy) وفى المرجع انظر ص ٢٥ ـ ٣٠ .

لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفّار ﴾ [إبراهيم آية ٣٢ ـ ٣٤]

وبالرغم من أن عديداً من الظواهر الطبيعية خاضع للإنسان ، فإن الإنسان نفسه مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، .. قد يكون مخلوقاً موهوباً باعتراف الجميع إلا أنه ينبغي عليه ألا يضع نفسه فوق وضعه المناسب : **﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾** [الروم آية ٤٠]

وعندما تصور أحد الملوك الجبابرة فى نفسه أنه السيد المهيمن على كل شيء ، وبّخه إبراهيم عليه السلام ووضعه فى حجمه ، وها هو ذا الحوار الذى دار بينهما وقد بدا حياً ناطقاً فى القرآن :**﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾** [البقرة آية ٢٥٨]

فلا أحد يستطيع أن يجعل الشمس تشرق من المغرب ، أو أن يوقف دوران الأرض ، أو يمنع القمر من أن يكبر أو يتضاءل ، إن هذه الظواهر الطبيعية ، وغيرها كثير ، قد سخّرها الله سبحانه تسخيراً لخدمة الإنسان ، فهى بعيدة عن قدراته ومسئولياته ، لأنها كلها تدخل فى نطاق الملكية المباشرة لله سبحانه وتعالى : **﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾** [الأنبياء آية ٣١]

فإذا قرأ الإنسان هذه الآية تبين له أنه لا يمكنه التحكم فى الجبال ليمنع الأرض من التزلزل ، فى حين أنه يمكنه ببعض المجهود أن يستغل الوهاد ليهتدى بها ويسلكها أثناء السفر ، لأن هذا المجهود فى حدود قدرته ، فهو لذلك مطالب بأن يبذل مجهوداً ، ومسئول عن البحث فى

وديان الأرض وطبائعها المختلفة حتى يتبين أفضل الطرق التى يستخدمها فى أسفاره وفى معيشته . فهذا المجهود هو فى حدود طاقته ، فهو لذلك يقع فى دائرة اختياره ، ومن ثمّ مسئوليته .

وقد توجد أدلة كثيرة على محدودية قدرات الإنسان واستعداداته ، وآفاق حواسه ومداها ، وكذا معرفته ، وأخيراً وليس آخراً .. حياته ، وبالطبع عقله ووعيه وقواه الحدسية والبدهية ، وهى كلها مناسبة وكافية لأخذ القرار الصحيح فى الكثير من المواقف ، وليست كلها على الإطلاق بالطبع ، ولكنها نسبية ، فكل رجل وكل امرأة أوتى الاستطاعة للتفريق بين الخطأ والصواب : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ [البلد آية ١٠]

ومن ثمّ فكل منهما مسئول عن اتخاذ القرار المناسب ، كما أن الإنسان لا يعيش فى فراغ ، لذا ينبغى أن يُعمل عقله ، ويفكر قبل أن يخطو أى خطوة فى حياته ، ويطلب العون من أى مصدر ، أينما وجده أو التمسه ، فذلك أمر بدهى ، وحقيقة مقررة وواضحة ، باعتباره مالكاً لقدرات محدودة ، والعون الأكبر للمؤمنين يأتيهم من عند الله تعالى القادر العليم ، الرؤوف الرحيم ، الذى أرسل الرسالات لهداية الإنسانية إلى طرق الحياة السوية : ﴿ **لقد مَن الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ [آل عمران آية ١٦٤]

فالله سبحانه يُحمّل الإنسان المسئولية فقط بعد أن يرسل إليه رسالة الهداية ، وذلك لرحمته الواسعة : ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا** ﴾ [الإسراء آية ١٥]

فالإنسان يتحمّل المسئولية عن الأعمال التى يؤديها هو بنفسه ، لا عما يرتكبه غيره ، وتكون هذه المسئولية وفق حريته ودرجتها ، وحسب

العمل الذى يمكنه أداؤه ، أو الذى يمكنه أن يحجم عنه ، وتأثيره ، أما أعمال الخير التى يقوم بها فتحسب له فى صحيفته ، كما تحسب عليه السيئات التى يرتكبها عن قصد ، وبملء إرادته ، وبكامل تحكّمه فى عقله وحواسه ، فإذا لم يلتمس المغفرة من ربه فما عليه إلا أن يتوقع عقابه العادل : ﴿ **ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما * ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ [النساء آية ١١٠ ـ ١١١]

فعمل الإنسان ، لا ماله ولا بنوه ـ هو الذى يسّجل فى الصحيفة: ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون * والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون** ﴾ [سبأ ٣٧ ـ ٣٨]

وإذا حدث وارتكب إنسان إثما دون قصد ، بأن كان ناسياً أو تحت تأثير خارجى ، فإن الله الرحيم يمنحه المغفرة ، ولكن بشرط أن يسأل الله التوبة بضراعة وإخلاص وإلحاح : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ [البقرة آية ٢٨٦]

وفى مقابل ذلك ؛ إذا حاولت أن تصنع معروفاً ، ولكنك لسبب خارجى لم تتمكن من إنجازه ، فإنك تثاب بسخاء لنيتك الطيبة : ﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما** ﴾ [النساء آية ١٠٠]

وبينما يتلقى المتقون الصابرون المحسنون ثواباً عظيماً ، نجد أولئك الذين أكرهوا وأجبروا على فعل الشر رغم أنوفهم وقد غُفِرَ لهم: ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين** ﴾ [الزمر آية ٣٣ ـ ٣٤]

﴿ **من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم** ﴾ [النحل آية ١٠٦]

أما الكفار الذين رفضوا رسالات الله تعالى بإرادتهم ، فيمكنهم أن يتحمّلوا مسئولية أفعالهم ، ولن يستطيعوا أن ينكروا قدراتهم التى تمتعوا بها !! ولعلهم يخدعون أنفسهم حين يقنعونها بأن كفرهم هو قدرهم ، وأنه إرادة الله التى لم يمكنهم تبديلها !!

﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شىء كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون** ﴾ [الأنعام آية ١٤٨]

فهم يتّبعون الظن ، ويقولون الكذب الذى هم متأكدون فى صميم قلوبهم أنه زيف ، إذ إنهم ولا شك يسلّمــون بأنهم يملكون إرادتهم خلال حياتهم على الأرض ، وأن الخيار موفور لديهم لاتباع إحدى الطريقين : إما الخير وإما الشر .

ولا ريب فى أن الله تعالى قادر على وضعهم على الصراط القويم جبراً وقسراً ، إلا أنه يترك لهم حرية الاختيار : ﴿ ..* **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين** ﴾ [الأنعام آية ٣٥]

﴿ ... **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما**

آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [المائدة آية ٤٨]

لقد منحوا القدرة على الاختيار ، حتى لقد استخدم الكافرون برسالات الله ، وبملء إرادتهم منطقاً سقيماً : ﴿ **إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾** [فصلت آية ١٤]

وبدلاً من أن يهتموا بالرسالة ، ويستخدموا عقولهم ليحكموا على الحقيقة بأنفسهم ، اختاروا أن ينكروها حتى قبل سماعها ، وأتوا بأى دليل ، بغض النظر عن علاقته بالموضوع ، من أجل المطالبة بأن رسالة الله ينبغى أن تحملها الملائكة ، ومن ثمّ فإن هذا الإنكار المجحف الدائم للحقيقة يؤهلهم للعقاب الإلهى فى الآخرة : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾** [الملك آية ١٠]

فالذين غلّقوا عقولهم من ناحية الرسالة ، واتبعوا معتقدات أجدادهم الخاطئة كالعميان ، ينتهون بلا شك إلى أن يصبحوا ملحدين أو مشركين ، وعندئذ يعلنون أن ذلك قد قدّر عليهم : ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾** [الزخرف آية ٢٠ ـ ٢٢]

وعلى ذلك ؛ فالإسلام لا يدع الإنسان يحيد عن الصراط المستقيم ثم يلوم قدره ونصيبه خطأ وظلما ، فلو كان الأمر هكذا لباتت شرائع الله تعالى ورسالاته وكتبه ووعده بالثواب ووعيده بالعقاب ـ أمراً عقيما لا طائل منه ، ولاستحال التوفيق والمصالحة بين الحكمة الإلهية وعدالتها[1] . إن القرآن الكريم يدين كل من يحاولون أن يبرروا كفرهم وسوء تصرفهم

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (K. Morgan) وبالمرجع انظر ص ١١٠ ـ ١٦٠ .

بأنها الأقدار والأنصباء ، وكذلك من يحاولون إنكار مسئوليتهم عن ارتكابهم للسيئات : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ [الأعراف آية ٢٨ ـ ٣٠]

كما أن الله سبحانه يقبل أولئك الذين أعملوا عقولهم وفكّروا ، ورأوا النور واتبعوا الصراط المستقيم ، وأعدوا أنفسهم لرحمة الله وثوابه : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ [الأعراف آية ٤٢ ـ ٤٣]

فهل فى هذا ما يدعو إلى الجبرية ؟ أليست الهداية الإلهية ضرورية بصورة مطلقة لمعرفة الطريق المستقيم ؟ ومن غير الله الخبير هو الهادى ؟ إننا لا ينبغى أن ننسى حقيقة أن هداية الله متاحة لأى إنسان ، رجلاً أو امرأة ، وأن على من يريد اختيارها أن يبذل مجهوداً محدوداً ، فالدين لا يطلب من المؤمن صحيفة مفعمة بأعمال الخير التى يفعلها ، لأن المؤمن يدرك تماماً أن النعمة الإلهية وهدايته تتضمن الإمكانات والقدرات التى خلقها الله فيه ، والملكات التى أتاحها الله له : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ [النحل آية ٧٨]

ولعل أولئك المستشرقين من أمثال (بيثمان) (Bethman) و(فون جرونباوم) (Von Grunebaum) الذين افترضوا دعوة القرآن إلى

الجبرية قد اختلط عليهم الأمر حين قرأوا الآية : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ..** * ﴾ .

وذلك لأنهم لم يقرأوا باقى الآية التى تصف أولئك الجن والإنس : ﴿ **... لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾
[الأعراف آية ١٧٩]

فالكفار لم يبحثوا عن هدى الله ، بل إن بعضهم قد تجنّبه عمداً ، كذلك لم يستخدموا قدراتهم التى منحها الله لهم ، ولأنهم لم ينتهزوا فرصة وجود العقول فقد صاروا أسوأ من الماشية التى ليس لديها عقل !!! أينكرون أنه كانت لديهم الحرية والقدرة الوافرة ليروا آيات الله ويسمعوها ويدرسوها ؟ ألم يحجموا عن فعل ذلك قصداً وتعمداً ؟

ولقد بحث (بيثمان) وزملاؤه عن دعامة إضافية لنفس التخبط فى الآية : ﴿ **ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم** ﴾ [آل عمران آية ١٢٩] ، والتى نزلت مبكراً ، فعندما قرأوا أن الله يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، فقدوا توازنهم ، وانطلقوا فى اتهامات تجديفية سخيفة ، بأن قالوا : « إن الله قدرة نزوية لا يحدّها القانون الأخلاقى ، فهو للاشىء يمن على الإنسان بهدايته ، وبثوابه ، أو يأخذه بعقابه، وليس ذلك وفق عمله »[1] ، ولكننا يجب علينا أن نقرأ هذه الآية معا ، ومع آيات أخرى فى القرآن نفسه ، بمنتهى العقلانية، وبذهن صاف ، وعلى سبيل المثال: ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾
[النساء آية ٤٠]

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٧٤ ، وانظر تحت (Draycott) وفيه انظر ص ١٣ ، وانظر كذلك تحت (Von Grunebaum) وفى المرجع انظر ص ١١١ ، ١٥٠ ـ ١٦٠ .

بل إن العمل السيء ، يغفر الله لمرتكبه إن شاء ، ويعاقبه إن شاء ، فإن غفر فهو تعالى الرحيم الرؤوف ، وإن عاقب فهو ولا شك الحكم العدل ، ذلك أن الله سبحانه ينزل العقاب العادل بالمذنب الذى أتى بالذنب بإرادته المطلقة وبقدرته الكاملة ، وبناء على ذلك فأين هو أساس الاتهامات السابقة ؟

إن الدارسين المسلمين يعرفون جيداً أن الآيات القرآنية يفسّر بعضها بعضا[1] ، لذلك فإننا ينبغى ـ إذا قرأنا الآية رقم (١٢٩) من سورة آل عمران والتى ذكرناها من قبل ـ أن نصحبها بالآيات التالية من سورة النجم : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ [النجم آية ٣٩ ـ ٤٢]

وإذن ، فلا وجود لنزوة ، وإنما هى الرأفة والرحمة ، ولا إرهاب ، وإنما هى الراحة ، والأمل ، ولا جبرية ، وإنما هو العمل الصالح ، والإيمان العميق باللطيف الرحيم ، الكريم الحكيم العدل .

والمفهوم الإسلامى للقضاء والقدر بأن كل شيء ، بما فى ذلك الطبيعة البشرية وتصرفاتها ـ داخل فى نطاق علم الله سبحانه وتعالى الخالق العليم: ﴿ **وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ [الملك آية ١٣ ـ ١٤]

فالله عزّ وجل لا يجبر الإنسان على أن يختار ، وإنما هو يهديه ويوفقه ليعمل جاهداً للنجاة بالإيمان ، والأعمال الصالحة .

القرآن فى مقابل السنة :

إن مما أدهشنى كثيراً أن أعلم أن (وات) (Watt) هو الدارس الوحيد الذى تصوّر السنة النبوية على أنها تتضمن « جبرية ملحدة

(١) انظر (التفسير القرآنى للقرآن) للأستاذ عبد الكريم الخطيب ـ ٤ أجزاء ـ دار الفكر ـ القاهرة سنة ١٩٧٠ .

ومباشرة وصريحة » ، وأنها كذلك تتضمن تناقضاً صارخا مع معطيات القرآن[1] . ولقد وصم (وات) السنة المشرفة بأنها تدعو إلى الإلحاد والجبرية فى نفس الوقت الذى أتى فيه القرآن يغمر صفحاته الإيمان بوجود الله تعالى ، وبأن مسيرة العالم والحياة الإنسانية يحكمها الله الحق الرحيم ، ومن كلمات (وات) عن السنة النبوية : « من الحقائق البارزة منها أن الحياة الإنسانية محكومة وثابتة ، وأن قوى التحكم فيها قوى مبهمة غامضة ولا يمكن تشخيصها ، كما جاء فى عبارة النبى ﷺ : «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك » ، فقد ترجم العبارة (ما يصيبك) ولاشك أن هذه الترجمة خاطئة باتفاق الجميع ، كما سنرى بعد ذلك[2] ، وقد عزا (وات) ما تصوره خطأ من جبرية فى تعاليم النبى ﷺ إلى تسرب بعض التقاليد والأعراف الجاهلية إلى الإسلام عند ظهوره .

ولسوء حظ (وات) أنه ارتكب خطأين فى استشهاده السابق بقول النبى ﷺ : أحدهما أنه استخدم التصريف الخاطئ[3] فى الترجمة ، والآخر هو أنه استشهد بجزء فقط من الحديث دون الكل ، وقد قاده هذا الفهم إلى اتهامه المتحمس لتعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجبرية .

ولكن لكى يتم التقييم العقلانى ينبغى على الأقل أن نستشهد بكل ما قاله الرسول حول هذه المسألة ، وقد جاء ضمن نصيحته لابن عمه الصغير (عبد الله بن عبّاس) فقال عليه الصلاة والسلام : « يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Watt) كتاب (الجبر والاختيار فى الإسلام) .

(٢) انظر المرجع السابق .

(٣) الخطأ فى التصريف هنا يتعلق بكلمة (يصيبك) فى المضارع ، بمعنى : أنه لا يزال يحدث ، على حين أن الصحيح هو أن (ما أصابك) بالفعل الماضى ، وشتان بين المعنيين . (المترجم) .

اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفّت الأقلام ورفعت الصحف . واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا »[1] .

والآن ، فى أى موضوع فى هذا الحديث اشتم (وات) (Watt) إلحاداً أو جبرية ؟ أين أدرك التناقض مع تعاليم القرآن ؟ إن القرآن الكريم يقول : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم** ﴾

[يونس آية ١٠٧]

ونسأل هنا : ألم يتلق الرسول ﷺ وحياً يرفع من معنوياته عندما كانت معنوياته فى أدنى درجات الانخفاض : ﴿ **فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب** ﴾

[الشرح آية ٥ ـ ٨]

وبعيداً عن الدعوة للجبرية أو الإلحاد ، فإن النصيحة السابقة التى وجهها عليه الصلاة والسلام إلى ابن عمه تنم عن تفاؤل ، وتوحيد خالص ، وشجاعة ودأب ومثابرة ، وفوق ذلك تسفر عن إيمان قوى بالله الرحمن الرحيم .

ولا ريب فى أن المسلمين لا يرون جبرية فى القرآن ولا فى السنة ، حتى لقد روى عن النبى ﷺ أن الإنسان بآثامه يحرم نفسه من بعض مدد الله عز وجل[2] ، وهو ما ينسجم مع الآيات : ﴿ **أو لم يهد للذين يرثون**

---

(١) انظر كتاب (رياض الصالحين) للمحدّث يحيى شرف الدين النووى . (الجمهورية) القاهرة سنة ١٩٦٠ .

(٢) لعل المؤلف يقصد الحديث الذى رواه ابن ماجه والبزار والبيهقى من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر المهاجرين ، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يلعنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن =

الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ [الأعراف آية ١٠٠]

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾

[هود آية ١١٧]

ومن خلال التعاليم القرآنية والتعاليم النبوية يظهر أن توبة الإنسان وندمه على خطيئته يحسّن أوضاعه فى هذه الدنيا وفى الآخرة ، وعلى سبيل المثال يقول القرآن : **﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾** [نوح آية ١٠ ـ ١٢]

وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ ذكر أن من استغفر الله تعالى كثيراً يؤتى الفرج من كل هم، ويرزق من حيث لا يحتسب[١] فالرسول إذن أدان الموقف الجبرى الذى بدا من بعض المسلمين التافهين فى هذه الآونة ، والذين لا يفعلون شيئاً سوى الإدعاء بأنهم يتوكلون على الله .

وبمجرد قراءة القرآن والحديث ، وبمجرد فهم أسلوبهما ، يشعر الإنسان بالانسجام التام والتوافق الكامل بين تعاليمهما . ولا عجب أن القرآن الكريم يفرض على المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله : **﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾**

[الأنفال آية ٢٠]

= فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم . (المترجم) .

(١) لعل المؤلف يقصد الحديث : عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب . (رواه أبو داود والنسائى ، وابن ماجة ، والبيهقى) وهو صحيح الإسناد . (المترجم) .

وأن يؤمنوا بالله وبرسوله : ﴿ ...**فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى** ﴾
[الأعراف آية ١٥٨]

فلو وجد الاختلاف والتناقض بين الحديث والآيات القرآنية لما وجدت أى من هذه الوصايا ، ولو كان التعارض الذى تصوّره (وات) حقيقياً لبدت طاعة الرسول ﷺ وكأنها تشكّل فى نفس الوقت رفضاً للقرآن ، وعصيانا لأوامره . ونحن نتساءل : كيف استطاعت مصادر القدر الإلهى التى تعد خارج هذا العلم أن تأتى على لسان النبى ﷺ بصورة غامضة بالنسبة لـ (وات ولآخرين ؟) !

بهذا قد يكون التفسير الوحيد للغلط الذى وقع فيه (وات Watt) ، وهو أنه ربما عن عدم فهم لم يتمكن من الإلمام بالسنة النبوية كلها ، أو أنه لم يكتسب القدرة على السيطرة الشاملة على وجهات النظر القرآنية ، وخاصة فى موضوع متشعب كهذا ، وقد يلتمس له العذر فى قلة علمه باللغة العربية .

الخلاصـــة :

يمكن وصف الإنسان بأنه عضو فى المجتمع ، وحفيد وسلف لأجيال ، وحلقة فى سلسلة طويلة ، ومخلوق فى كون ، ومن ثمّ لايمكن الحكم على إرادته ولا الزعم أبداً بأن حريته مطلقة فى كل النواحى ، أو أنها تنبسط فوق الزمن والمسافة ، وإنما يمكن القول بأن حريته بحكم الطبيعة مقيدة بقيود معينة .

ولا ينبغى لهذه الحقيقة أن تكون بأى حال من الأحوال مصدراً للاستحياء أو القلق ، لسبب بسيط هو أن مدى حرية الإنسان يتناسب تماماً مع مدى قدراته الذهنية والطبيعية ، والتى تكون أحياناً مادة للفخر لبعضهم ، إلا أنها مقيدة ومحددة بصورة حتمية ، وبلا شك .

كذلك ، لا يتوقع الإنسان رأياً شاملاً محدوداً وفاصلاً على طريقة

الأبيض والأسود فى مثل موضوع واسع ومتشعب كموضوع الإرادة والقضاء والقدر ، الذى أعيا عقول كثير من المفكرين عبر القرون . ولكن على أية حال ، هذا الموضوع لا يتعلق فقط بحياة الإنسان كلها ، بل يتعلق أيضاً بمصيره فى الآخرة ، ومن أجل هذا فالقرآن يدين موقف الجبرية ، باعتباره استعمالاً خاطئاً للعقل البشرى ، وعذراً لا يمكن تبريره، جاء به المذنبون ليلقوا بتبعة المسئولية بعيداً عن كواهلهم ، إذ إن موضوع الإردة والقضاء والقدر يرعى وجهة نظر متعلقة بهذا العالم وبالآخرة على حد سواء . وعلى هذا فإن الجنس الإنسانى مخلوق مسئول عن أعماله أمام الله الرحمن الرحيم ، كما أنه يعتمد اعتماداً كاملاً عليه عز وجل .

* * *

الفصل الرابع عشر

القرآن والعالم الميتافيزيقى[1]

ليست كل الأشياء فى الوجود قابلة لأن ندركها بحواسنا ، فهناك أشياء فى هذا العالم لا يمكن أن نراها ، أو نسمعها ، أو نلمسها ، أو نشمها ، ورغم هذا فهى مثبتة منذ قديم ضمن الحقائق التى نقر بها ونسلم ، وكلما تعلمنا أكثر أصبحنا مدركين لوجود مخلوقات وعناصر وبيئات ، ربما قد نتصورها جديدة علينا ، مع أنها موجودة منذ أمد بعيد.

وعلى سبيل المثال ؛ لم يعلم الناس من قرنين من الزمان بوجود الميكروبات ، أو الفيروسات ، أو الموجات الكهرومغناطيسية ، أو الأيونوسفير[2] ، وقد نرى بالطبع أن مدى المعرفة قد اتسع بصورة هائلة فى العقود القليلة السابقة ، بيد أن هذا الاتساع لم يزل محصوراً فى العالم المادى .

إننا يمكننا أن نحصل على معلومات حول العالم الميتافيزيقى عن طريق حواسنا بواسطة التجارب الطبيعية ، وذلك لأن مصدر علمنا به هو الوحى الإلهى الذى ينقل عن طريق الأنبياء ، أو طريق المدركات الحسية الأخروية التى يُلْهَمها الأولياء والصالحون ، أما أولئك الذين يتخذون قنوات أخرى للتفتيش عن المعرفة المتعلقة بالغيب فإنهم لا ينتهون إلى شىء ، اللهم إلا مجرد الحدس والتخمين .

والعالم الفَوْطبيعى أو الميتافيزيقى شاسع للغاية وأكبر بكثير مما تدركه

(١) ميتافيزيقى : ويسمى أيضاً « فوطبيعى » ما وراء الطبيعة . (المترجم) .

(٢) الأيونوسفير : الغلاف الأيونى ذلك الجزء المؤين من جو الأرض الذى يبدأ على ارتفاع (٢٥) ميلاً تقريباً ، ويمتد إلى ارتفاع (٢٥٠) ميلا أو أكثر . (المترجم) .

وتلمسه حواسنا المحدودة ، فمثلاً ، يُعرّف الإنسان من الناحية الطبيعية بجسده فقط وبالظواهر الطبيعية التى تعمل داخله ، أما من الناحية الميتافيزيقية فهو ليس مجرد جسد فقط ، وإنما هو أيضاً نَفس وروح ، بالإضافة إلى القلب، وهذا القلب الميتافيزيقى ليس ذلك العضو الذى يضخ الدم خلال الرئتين وباقى الجسم ، وإنما هو مركز الانفعال ، والحب ، والكراهية ، والرقة ، والتشوف، والغضب ، والسعادة ، والكآبة .

الروح :

ونعنى بالروح ذلك الوجود الذى إذا ارتبط بالجسد أفاد معنى الحياة، وإن غادره تركه بلا حياة ، فالفارق بين حياة شخص وحيوان ونبات وموتهم يعد قاسياً بأبسط الأقوال ، مع أن الفوارق الطبيعة بين الجسد قبيل الموت وبعده مباشرة ضئيلة جداً ، فما الذى سبّب توقف نشاط كل وظيفة جسدية ؟ وما الذى يعزل الشخص عما حوله مباشرة ، وعن بقية العالم ؟ إنه يكف عن الرؤية رغم أن عينيه محدقتان ، لم يعد يسمع على الرغم من أن أذنيه بحالة ممتازة ، كما كانتا قبل ذلك ، ومع أن أعصابه الحسية ومركز الإحساس الموجود فى دماغه لا تزال هناك ، وهى غالباً سليمة ، إلا أنه لا يمكن الشعور بلمسة ، أو بوخزة ، أو حتى بلطمة .

فما الروح التى تعد معينا لا ينضب من النشاط والحيوية ؟ لقد سلّمت الأغلبية بوجودها ، ولكن لا أحد غير الله سبحانه وتعالى يعرف جوهرها ، يقول القرآن : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ [الإسراء آية ٨٥]

النفس والقلب :

لقد أودع الله تعالى فى الإنسان إحساساً بالمسئولية باعتباره الكائن المفكر الوحيد على الأرض ، وحالةُ كونه هذه الواعية بنفسه والباحثة عن معرفة قدراتها تعد خطوة جوهرية فى سعيه للبحث عن معرفة الله ، ذلك أن الإنسان يقاسم المملكة الحيوانية فى الحاجات الطبيعية كالأكل والنوم

والنسل وسائر الغرائز الفطرية الأخرى ، ولكن ملكاته العليا هى التى نصبّته فوق البهائم ، وأعلى ملكة هى السبب الذى يقدره على التفكر فى وجود الله تعالى وصفاته .

ويعد العقل والحواس وباقى القدرات المادية للإنسان أدوات ووسائل تحت تصرف نفسه ليكتسب السعادة فى الدنيا والآخرة . وكل حاسة من حواس الإنسان لها مبهجاتها ، فما يسر العين هو رؤية الجمال فى الطبيعة وفى وجوه المقربين ، ومتعة الأذن فى الاستماع إلى أصوات متناغمة ومقطوعات موسيقية ، أما بالنسبة لأولئك الباحثين عن معرفة الله فإن الروحية الشديدة تكون فى إدراك الحقيقة ، وتغدو النفس فى قمة سعادتها عند التفكر فى الإله ، وعند الوجود فى حضرته ، إن الذى ينقصه الاهتمام بسعادة روحه إنما يحرم نفسه من نعيم هائل ، ويفوق ذلك الحرمان ما يحدثه استئصال سمعه وبصره من حواسه .

فالشخص الذى يسمح لشهواته أن تسوده ، ويهمل نفسه بالسماح لملكاتها وقدراتها أن تخمد ، لا يكون إلا خاسراً فى هذه الدنيا وفى الآخرة ﴿ **ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها** ﴾ [الشمس آية ٧ ـ ١٠]

﴿ **ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا** ﴾
[الإسراء آية ٧٢]

إن أولئك الذين ربّوا أنفسهم على الدين والاستقامة سوف ينعمون بالصفاء والسعادة فى هذا العالم ، وفى يوم القيامة : ﴿ **وأنّا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بأساً ولا رهقا** ﴾ [الجن آية ١٣]

ولقد جاء وصف القلب ، مركز الشعور والرغبة على لسان الغزالى، ذلك العلامة الصوفى العظيم ، بأن له نافذة تفتح على العالم اللامرئى [١]، فكلما نقى الإنسان نفسه من الرغائب الدنيوية ، وركّز

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Galwash) جزء (٢) ص ٢١١ .

اهتمام نفسه برسالات الله وتخلقه ، ازداد وعيه واستجابته للعالم الروحى ، ويصبح قلبه أكثر صفاء ، وتفتحا ، كمرآة لامعة تعكس ببريق ما يسقط عليها من النور الإلهى ، أما أعمال الشر والخطيئة فإنها تطرح بقعة سوداء فى شفافية القلب ، وتعكر صفاء المرآة .

ومن كلمات الصوفى المعاصر الإنجليزى (لينجز) (Lings) ، «كما ينقل القمر ضوء الشمس إلى الأرض فى ظلام الليل ، فكذلك ينقل القلب ضوء الروح إلى ظلام النفس ، وكما نعلم فإن ضوء القمر غير مباشر ، إلا أن القمر البادى فى سماء الليل الدامس هو نفسه ينظر إلى الشمس مباشرة ، والقمر نفسه يبدو وكأنه يحس بأنه فى ضوء النهار »[1] . إن هذه الرمزية تظهر تفوق القلب ، وتوضح المقصود بالقول : بأن القلب هو أداة الرؤية الروحية المباشرة ، ولكن هذه الأداة تحجب ، بل تطمس فى الإنسان العاصى ، إذ يفقد قلبه ـ لاعيناه ـ الإحساس بالرؤية الروحية بسبب آثامه :

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ [الحج آية ٤٦]

﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [المطففين آية ١٤ ـ ١٥]

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ [الرعد آية ٢٨ ـ ٢٩]

كما أن أولئك الذين عنوا بتهذيب قلوبهم سوف يكونون هم المفلحين يوم الحساب : **﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾** [الشعراء آية ٨٨ ـ ٨٩]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Lings) ص ٥١ .

المـوت والقـبر :

لكل نفس أجلها المعلوم فى هذا العالم ، فتنتهى إلى الموت حيث المستقر عند الله الخالق ، فبالموت تفقد الروح السيطرة على الجسد الذى يبدأ في البلى والتحلل ، ولن تكسب النفس شيئاً أكثر مما كسبت ، سواء خيراً أم شراً ، إنها تدلف بخطوتها الأولى إلى العالم الغيبى وتبدأ فى فهم بيئتها الجديدة بدرجة لا يمكن تحديدها إطلاقاً بالحواس الطبيعية فى الجسم .

ويصور القرآن الكريم عملية الموت على أنها تتم تدريجياً فى كل مكان من الجسم ، فتصبح النفس منفصلة عن الناس من حولها، رغم أن الغلاف اللحمى يقبع بصورته الطبيعية فيما بينهم ، ولا يستطيع أحد أن يعيد الروح لترتبط مع الجسد من جديد:﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين** ﴾ .

[الواقعة ٨٣ ـ ٨٧]

لقد جاء التعبير عن الموت فى القرآن بأنه « اليقين » و« حق اليقين» ، ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ (الحجر ٩٩) ، ﴿ **إن هذا لهو حق اليقين** ﴾ (الواقعة ٩٥) ، وكذلك (الرّجعى) فى ﴿ **إن إلى ربك الرّجعى** ﴾ [العلق آية ٨]

فالرجل أو المرأة لم يوصف أى منهما بأنه ميّت فى القرآن ، وإنما يستقبل الموت أو يأتيه الموت : ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ [البقرة ١٣٢]

﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا** ﴾ [النساء آية ١٥]

﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء**

أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ [الأنعام آية ٦١]

فالموت وفق ما جاء به الإسلام ـ ليس نهاية ـ بل على العكس، إنه الخطوة الأولى إلى الآخرة، كما أن الإنسان بعد الممات يدرك قيمة عمله على الأرض، إن كان خيراً أو شراً، ويرى الثواب أو العقاب في انتظاره.

البعث :

يتكرر موضوع البعث والحساب بصورة دائمة فى القرآن لأنه أحد المعتقدات الرئيسية فى الإسلام، وعلى الرغم من أن الكافرين قد أنكروه قديماً وحديثاً، فإن الإنسان مطالب دائماً بالتأمل في نفسه بمثابرة وبعقلانية : **﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم* قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾** [يس آية ٧٧ ـ ٨٣]

لقد تصور الكافرون، القدامى والمحدثون، أن البعث شيء مستحيل، متى تحلل الجسد، وبليت العظام، وصارت إلى التراب، بيد أن حجة كافرى اليوم أضعف جداً من سابقيهم وخاصة عندما تم تأييد الحقيقة القرآنية بالبرهان العلمى، إذ إنه من المعروف للعلماء الطبيعيين المعاصرين أن كل خلية من خلايا جسم الإنسان يدخل فى تكوينها بعض الغذاء الذى يأكله الإنسان، ومنه الخضراوات التى نبتت من الأرض، وتغذت هى بدورها من التراب. فكأن بعض مكونات خلايا جسم الإنسان كانت ترابا قبل ذلك ببضعة أسابيع، وكذلك ثبت أن بعض أنسجة الإنسان تموت ـ حتى فى أثناء حياته ـ ثم تستبدل أنسجة جديدة نتيجة عملية مستمرة، كما أن شعر الإنسان يسقط ويتم تجديده جميعه تدريجياً مرة كل ست سنوات.

فبالموت ؛ حتى بعد إحراق الجثة ، لا تتلاشى أية ذرة ، بتأثير التفاعلات الكيميائية الناتجة عن عملية الحرق ، بل إنها فقط تندمج مع ذرات كذرات الأكسوجين في الهواء الجوى ، ثم في التفاعلات التالية في الهواء وفي التربة وفي النبات وفي الحيوانات وغير ذلك ، فالذرات تتبادل أماكنها من المركّبات ، ولكن كل ذرة مستقلة تظل موجودة على نفس حالتها ، بالإلكترونات الدوارة ، وكل هذا يتم تحت سلطان الله تعالى وأمره ، وفي فلكه ، وهو سبحانه يعلم شأن كل ذرة ومكانها وإلى أى جسم أو شيء تنتمى .

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ [ق آية ٤]

﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [سبأ آية ٣]

وعلى أية حال ؛ أليست عمليتا النوم واليقظة الدائمتا الحدوث تذكيراً لنا بأننا سنموت ثم نبعث من جديد ؟ « فما أعجب الموت وأخاه النوم؟! » وهى مقولة جاءت على لسان (شيلى) (Shelley)[1] .

وقد لا يصدق البعض أن كتّابا من أمثال الأب (منزس) (Menezes) يسخرون من تعاليم القرآن حول الموت والبعث ، فيصفها (منزس) ـ بأنها : « أسخف الأفكار ، خاصة عندما نعتبر أن أناساً كثيرين التهمتهم الحيوانات المتوحشة أو أحرقوا تماماً [2] » ، وهنا نلاحظ أن الأب (منزس) قد تغاضى عن العبارتين الهامتين اللتين جاءتا في الكتاب المقدس وأكدتا على وجود الحياة بعد الموت : « تحيا أمواتك تقوم الجثث ، استيقظوا ، ترنموا يا سكان التراب ، لأن طلّك طل إعشاب ،

---

(١) شيلى شاعر انجليزى عاش في أوائل القرن التاسع عشر ومن أعظم شعراء الرومانسية الإنجليزية . (المترجم) .

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفي المرجع انظر ص ١٤ .

والأرض تسقط الأخيلة » (سفر إشعيا ـ الإصحاح السادس والعشرين ـ ١٩)

« وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى » (سفر دانيال ـ الإصحاح الثانى عشر ـ ٢)

كما نجد فى كتاب (دكتور مودى) (Dr. Moody)[١] بعنوان (الحياة بعد الحياة) ـ نجد فيه شهادة إثبات طبية غريبة بوجود حياة بعد الموت ، ودليلها جاء مع أولئك الذين أعلن بالفعل أنهم ماتوا إكلينكيا ، ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الحياة مرة أخرى .

ولنسأل أى إنسان منكر للحياة بعد الموت سؤالاً بسيطاً وندعهُ ليجيب عنه : فى مرحلة حياتك السابقة ، عندما كنت جنيناً فى رحم أمك ، إذا اتصل بك أحد فى تلك الأثناء وأخبرك أنك بعد فترة من الزمن ستخرج وستكون لديك القدرة على ملء رئتيك بالهواء ، وعلى رؤية كل الأضواء ، وسماع كل الأصوات التى تأتيك من بعيد ، وأنك ستأكل دون اعتماد على أحد كل صنوف الطعام ، وستمشى على قدميك الخاصتين بك ، وكذلك ستسافر لمسافات أكبر وأبعد بملايين المرات من البعد بين جدارى الرحم الذى تقبع بداخله ، بل وستكون مستقلاً عن هذا الرحم تماماً.. فهل كنت ستصدق كل هذه الحقائق؟

لقد فصّل القرآن الكريم موضوع النشور والحشر للإنسانية تفصيلاً مسهبا فى مواضع كثيرة : **﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾** [يس آية ٤٩ ـ ٥٣]

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Moody)

﴿ ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد * وقال قرينه هذا ما لدى عتيد * ألقيا فى جهنم كل كفّار عنيد * منّاع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾ [ق آية ٢٠ ـ ٢٩]

فيوم القيامة سيكون يوماً طويلا ، وأطول بكثير من أيامنا على الأرض، إذ سيبلغ طوله عشرات الألوف من السنين ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج ١ ـ ٤]

فى ذلك اليوم ، ستهتز الأرض بعنف ، وستبعثر القبور ، وسيتخذ كل من الشمس والقمر والنجوم شكلاً جديداً فى حركته ، مختلفاً عن هذا الذى عهدناه فى هذا العالم : ﴿ إذا الشمس كوّرت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيّرت ﴾ [التكوير آية ١ ـ ٣]

﴿ إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجّرت * وإذا القبور بعثرت ﴾ [الانفطار آية ١ ـ ٤]

فهو الميقات الذى ستنهار فيه الشمس ، وتعتم فيه النجوم ، وتتزلزل الأرض بزلزالها الأخير ، وتخرج معه أثقالها ، وفى هذا اليوم تصير الجبال كالعهن[1] المنفوش ، ويخرج الناس من أجداثهم ، ويسرعون كالفراشات المندفعة إلى هلاكها :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان مالها * يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها * يومئذ

(١) العهن : الصوف . (المترجم) .

يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزلة آية ١ ـ ٨]

﴿ القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش * فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية ﴾ [القارعة آية ١ ـ ١١]

وسيجد الناس أنفسهم فى بيئة مختلفة تماماً خلال ذلك اليوم العصيب الطويل ، وسوف يتعرف الأصدقاء والأقارب بعضهم على بعض ، ولكن كل واحد سيكون فى خشية رهيبة على نفسه ، كما سيكون غارقاً فى التفكير فيها لدرجة تستنفد تفكيره :

﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [عبس آية ٣٤ ـ ٣٧]

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ [آل عمران آية ٣٠]

الحساب :

ويصور القرآن المشهد بصورة حية : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا * وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعداً * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحد ﴾ [الكهف آية ٤٧ ـ ٤٩]

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن

كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ الأنبياء آية ٤٧]

ففى ذلك اليوم ، سيكرّم الصالحون ، وسيتناولون كتبهم بأيمانهم ، وسيدعون إلى حساب يسير ، وسينقلبون إلى أهلهم مسرورين ، أما المذنبون فى الدنيا وغير التائبين منهم فسوف يلقّون كتبهم بخزى ، وسيتمنون ساعتها لو أنهم لم يتلقوها ، ولا قاموا من الموت ، فهم لن تنفعهم ثرواتهم وقوتهم التى حصّلوها فى هذا العالم :

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية * فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابيه * فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية * وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه ﴾ [الحاقة آية ١٨ ـ ٢٩]

﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا * وأما من أوتى كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبورا * ويصلى سعيرا * إنه كان فى أهله مسرورا * إنه ظن أن لن يحور * بل إن ربه كان به بصيرا ﴾ [الانشقاق آية ٧ ـ ١٥]

فى ذلك اليوم لن تستطيع نفس أن تحمل أى نصيب من الحساب الواقع على غيرها ، أو تأخذه رغماً عنها ، ولا أن تشفع لمصلحة أخرى ، كذلك لن يقدر والد أن يفتدى ابنه بنفسه أو العكس : **﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾** [لقمان آية ٣٣]

وستفكر كل نفس فيما قدمته من أعمال ، وتحاول تقديرها ، ولكن لن يكون هناك صديق ولا مساعد ولا رفيق ولا نصير ، سوى الله تعالى :

﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾ المائدة : آية ٣٦

وحتى أعضاء جسم الإنسان ستكون حجة عليه فتدلى بشهادة ضد أعماله التى اقترفها فى الدنيا : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ [يس آية ٦٥]

﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ [فصلت آية ٢١ ـ ٢٣]

وبعد أن تتلقى كل نفس كلمتها ، يساق البؤساء المدانون إلى جهنم ، فى حين يقاد السعداء المتقون إلى الجنة :

﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ [الزمر آية ٧١ ـ ٧٥]

نار جهنم :

سرت موضة هذه الأيام فى بعض الدوائر ترى عدم الإيمان بجهنم ،

ولكن وجودها فى عقيدة المسلمين يعد حقيقياً ، وهى ـ كما صوّرها القرآن رهيبة بصورة لا تتصور : ﴿وما أدراك ما الحطمة *ق نار الله الموقدة * التى تطلق على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * فى عمد ممددة﴾ [الهمزة آية ٥ ـ ٩]

﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة آية ٢٤]

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ [الكهف آية ٢٩]

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمّركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾
[فاطر آية ٣٦ ـ ٣٧]

وربما يتذكر أولئك المنكرون للوصف القرآنى لجهنم عندما يعلمون بالحرارة الفظيعة داخل الكرة الأرضية أو داخل الشمس؛ حيث تصل درجات الحرارة إلى الملايين ، وهو ما يعد حقائق بيّنة ، قد استطاع العلماء قياسها ، أما المتقون فيؤمنون بحقيقة نار جهنم ، ويستجيرون منها برحمة الله وهدايته من أجل أن يعملوا الصالحات ، لعل الله يقبلهم فى الجنة ، وهو ما يعد من أهم أركان العقيدة الإسلامية .

النعـــيم :

إن السكن إلى السعـــادة والهناءة هى ثواب الله العدل الكريم للمؤمنين المتقين ، وقد وصِفَ الفردوس فى القرآن بصيغة الجمع فقيل :

إنه جنات من جمال وبهجة لا يمكن تصورهما : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعدالله حقا ومن أصدق من الله قيلا ﴾ [النساء آية ١٢٢]

﴿وجوه يومئذ ناعمة *لسعيها راضية * فى جنة عالية *لا تسمع فيها لاغية *فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة ﴾ [الغاشية آية ٨ ـ ١٦]

﴿ على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما تخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلو المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ [الواقعة آية ١٥ ـ ٢٦]

فالجنة تمثل قمة السعادة والمتعة وأسمى جائزة للمؤمن ، ولكن كل ألوان الفرح والسعادة الحسية تخبو وتتضاءل عند مقارنتها بالفرحة الشديدة برضا الله تعالى عنه ، وبوجوده فى حضرته وبكلامه وتحيته سبحانه وتعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة آية ٧٢]

الملائكـــة :

توجد مخلوقات غير عادية منحت الحياة والكلام والعقل ، ولكنها لا تهجع ولا تأكل ولا تتكاثر ، ولا يعصون الله أبدا فى أى شيء يأمرهم به ، وهو وحده تعالى العالم بعددهم وبحقيقة كنههم ، وقد حدّد لكل منهم وظيفته ، وقسمهم إلى مراتب : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ [فاطر آية ١]

وأجنحة الملائكة المذكورة فى القرآن ليست أجنحة مادية كأجنحة الريش عند الطيور ، لأن الملائكة مخلوقات خارقة للطبيعة ، وعلى ذلك فالإسلام لا يوافق على مزاولة تصويرهم فى صور كائنات مجنحة ، أو بصورة (ساروفيم) (Seraphim)[1] أو بشكل الطفل الملائكى البرئ على نحو ما نراه مرسوماً على جدران بعض المعابد والكنائس وأسقفها ، كما يرفض الإسلام رفضاً باتاً الافتراض بأن الملائكة إناث ، كما جاء فى بعض الأديان ، وجاء أيضاً على لسان المشركين ، فى عهد الرسول ﷺ : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ [الزخرف آية ١٩]

ومن بين الوظائف التى تقوم بها الملائكة تسبيح لله : ﴿ **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون**﴾

[الأعراف آية : ٢٠٦]

وتسجيل أعمال كل فرد : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ [ق آية ١٨]

وكذلك الاستغفار للمؤمنين : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** ﴾ [غافر آية ٧]

وكذلك حمل الرسالات الإلهية بالأنباء السارة إليهم ، فى هذه الدنيا وفى الآخرة، كما يأتون مبشرين أو منذرين بالموت : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ [السجدة آية ١١]

﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم**

(١) ساروفيم : هو أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين لعرش الله (فى المعتقد اليهودى القديم) . (المترجم) .

في الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما توعدون * نزلاً من غفور رحيم ﴾ [فصلت آية ٣٢]

أما المَلَك العلوى الذى حمل الكتب المقدسة إلى كل من موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً السلام ، فقد ذكر فى القرآن باسمه (جبريل) ، وعرف كذلك (بالروح القدس) بمعنى الروح المقدسة: ﴿ **قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾** [النحل آية ١٠٢]

أو (الروح الأمين) : ﴿ **نزل به الروح الأمين ﴾** [الشعراء آية ١٩٣]

أو (الروح) :﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾** [النبأ آية ٣٨]

كذلك لقد كان جبريل عليه السلام هو الروح القدس التى حملت الأنباء الطيبة من لدن الله تعالى إلى مريم العذراء : ﴿ **فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾** [مريم آية ١٧]

الجـــن :

وهؤلاء يمثلون رتبة أخرى من الكائنات التى لا تدركها حواسنا الطبيعية، وهم من كلا الجنسين، ومن بينهم من يؤمنون، وقد آمنوا بكل وحى إلهى ، إلى أن ختمه القرآن ، أما من يكفر من الجن فأولئك هم « الشياطين » وهم الذين جاء ذكرهم فى سورة (الجن) على لسانهم : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا * وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾** [الجن آية ١١ ـ ١٤]

ومن ضمن الجن الأول جنّى يدعى (إبليس) أو (الشيطان) ،

وقد عصى أمر لله تعالى عندما أمره بأن يسجد لآدم ، ثم أغرى آدم وحواء لأن يرتكبا الخطيئة ، ويأكلا من الشجرة المحرمة : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيها وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ [البقرة آية ٣٤ ـ ٣٧]

ولقد وقع المستشرقون فى سوء فهم كبير حين زعموا أن الشيطان كان فى الأصل ملكا ، قبل أن يطرد من السماء لعدم سجوده لآدم(١) ، ولا شك أن العبارة القرآنية المعبرة عن هذه القضية واضحة ناصعة : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾ [الكهف آية ٥٠]

فإبليس إذن كان من الجن ، رغم أن أمر السجود قد وجه إليه كما وجه إلى الملائكة . وكذا رفض مستشرقون آخرون حقيقة وجود الجن برمته باعتباره خيالات يتضح سخفها بكل وضوح لدى « العقول الذكية»(٢) ، ولعل أولئك المستشرقين لو كانوا معنا اليوم لصار من المناسب أن يرفضوا كثيراً من المنجزات العلمية العصرية بنفس منطقهم المادى .

كما تغاضى بعض الكتّاب عن حقيقة الأصل الإلهى الواحد للأديان الموحّدة ، وخلطوا بهذا بين الجن والملائكة ، وافترضوا أن

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Menezes) وفى المرجع انظر ص ١١٤ ، وكذلك تحت (Lammens)وفى المرجع انظر ص ٩٨ ـ ١٠٠ ، وتحت (Sale) وفيه انظر ص٥٠ ـ ٥٥

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Stobart) وفى المرجع انظر ص ١٠٨ .

الملائكـة قـد خلقـت من نـار ، وأنهـا لذلك عُهِدَ إليـهـا بأعـمـال ووظائف مـادية [1] .

الخلاصـــة :

إن الإيمان بالغيب نظرية رئيسية فى الأديان السماوية ، فهو الخط الفاصل بين الإيمان والكفر ، وهو يفسح المجال لحقيقة أن الكون لانهائى ، وأنه أضخم وأكثر تشعباً وتنوعاً من تلك الصورة التى تظهر للإنسان الواعى ، ومن ثمّ فإن الذين لا يعترفون بعالم الغيب كحقيقة قد ينتهون إلى رفض الإله ذاته وعندئذ يحرمون أنفسهم من هداية الله ومنته ، تلك الهداية المتاحة دائماً للمؤمن والتى تريناها الآية : ﴿ **ذلك الكتـاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [البقرة آية ٢ ـ ٣]

* * *

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Sale) وفى المرجع انظر ص ٥٠ ـ ٥٥ وكذلك انظر تحت (Zwemer) كتاب (أثر الوثنية على الإسلام) ص ١٢٦ .

خاتمة

توضح هذه الدراسة التى تستعرض وجهات نظر المستشرقين عن القرآن وآياته ثلاث نقاط بارزة :

الأولى : هى أنه مع وجود قلة من الاستثناءات ـ فإن الرأى العام الغربى عن القرآن نادراً ما يكون واقعياً .

والثانية : أن كثيراً من المستشرقين وضعوا المزاعم بلا تردد قبل دراسة القرآن الكريم دراسة كافية ، وبدون عناية وتعمق وافرين ، وذلك على الأقل لتبرير عباراتهم ذات الصيغ الجازمة .

أما النقطة **الثالثة** : فهى ذلك الإجماع الذى شمل الكتّاب المذكورين ، بغض النظر عن خلفياتهم وعقائدهم ، على قبول المصاحف المتداولة اليوم التى تطابق محتوى ذلك المصحف الذى تركه النبى محمد ﷺ لصحابته عندما قبض من بينهم إلى الرفيق الأعلى ، فلم تتبدل سورة واحدة أو آية ، أو كلمة ، كما لم يقدم أى دليل على أنها قد تبدلت . وكذلك ظل ترتيب السور فيه كما هو وعلى النحو الذى أنزلت به مما جعل الفارق بين الترتيب المصحفى والآخر التنزيلى يقود إلى خلط سقطت فيه قلة من الكتّاب الذين حاولوا عبثاً أن يعيدوا ترتيب السور وفق ما أملى عليه عقل كل منهم ، ومن ثمّ جاءوا بنتائج بعيدة فاقمت من خلطهم ، وتغاضيهم عن الحقيقة الرئيسية ، وهى أن المصحف لم يكن أبداً يتبع بعضه بعضه بترتيب نزول القرآن ، وإنما بترتيب آخر تلقّاه الرسول ﷺ توقيفا عن جبريل عليه السلام ، عندما كان يراجعه بالوحى فى رمضان من كل عام .

ولا شك أن الوضع الموثوق به للمصحف ومناعته المطلقة ضد أدنى تعديل طوال حقبة هائلة من الزمن كهذه ـ لا شك يعد معجزة توجب التدبر العميق ، فقد شهدت تلك الحقبة تغيرات عنيفة فى المجتمعات ، ولغاتها ومواطنيها ، فازدهرت بعض الحضارات وتلاشت أخرى واضمحلّت ، ولا يعد العالم الإسلامى نفسه على الإطلاق حالة استثنائية ، فبعد نموه الهائل فى عقوده الأولى القليلة فى القرن السابع الميلادى ليكون امبراطورية متنامية الأطراف ، وتتحرك عاصمتها الحاكمة من المدينة إلى دمشق إلى بغداد إلى استنبول ، وكذلك كثير من المقاطعات التى اتسعت إلى ولايات تابعة ثم أصبحت مستقلة تماماً ، ثم بعد هذا خضعت أغلب أجزائه لموجات كاسحة من الغزاة والمحتلين الأجانب والحكام ، والآن أصبح هناك عدد كبير من الأقسام السياسية ، والمذاهب الدينية ، حتى لقد قطعت بعض المجتمعات صلتها باللغة العربية ـ لغة القرآن ـ وبدأت الكتابة باللاتينية بعد أجيال من الكتابة بالخط العربى ، واندلعت نار الخصومة والنزاع ، بل وحتى الحرب السافرة بين الأخوة السابقين فى جزء أو آخر من العالم الإسلامى .

ورغم هذا لا يزال المصحف موجوداً ومقروءاً فى صورته الأصلية الفريدة ، يقبله المسلمون جميعاً بصيغته الواحدة .

فالطبيعة المعجزة للقرآن محصورة بلا نقاش فى حفظه على صورته الأصلية ، كل هذه القرون ، كما أن أسلوبه الأدبى الساحر ـ كما جاء على لسان اللغويين العرب ـ يعد واضحاً أخّاذاً ومثيراً للمشاعر ، وهو كذلك فريد وفذ بصورة لا خلاف عليها ، ومن ناحية أخرى لم يقدّر المستشرقون هذه الحقيقة ، إما لأنهم لم يقرأوا القرآن إلا عن طريق الترجمة ، أو أنهم قرأوه بلغته العربية الأصلية ، ولكن قبل أن يمسكوا بزمام اللغة العربية على نحو كاف .

أما المعجزة القرآنية والتى ما زالت مضيئة حتى خلال النصوص

المترجمة منه ، وتبدو واضحة أمام القرّاء من غير العرب فهى الموضوعات التى يناقشها القرآن ، ذلك أن المترجم للقرآن ، وهو يعترف ويسلّم بأنه لا يمكن لأى ترجمة أن تفى الأسلوب الأدبى الرفيع حقه ، فإنه ـ إن كان حريصاً ـ يستطيع أن يغطى بعضاً من الطبيعة المعجزة للأفكار المحتواة بداخله ، وهو ما يدعّمه ملاحظتان مؤثرتان وضعهما متخصصون فى العلوم الطبيعية[1] :

أولاهما : لا يوجد أدنى تناقض بين الآيات القرآنية بعضها وبعض، وكذا بالنسبة للحقائق العلمية المقررة ، وهو ما يعد على النقيض تماماً مع الكتب المقدسة الأخرى ، حتى لقد انحاز (بوكاى) (Bucaille) إلى جانب القرآن ووصفه بأنه : « لا يحوى عبارة واحدة تفتح باباً للنقد من قبل العلم الحديث »[2] .

أما الملاحظة **الثانية** : فهى وجود آيات قرآنية كثيرة تشير إلى ظواهر علمية طبيعية نتبينها من حولنا ، وهذه لم تكن مكتشفة ، أو حتى متخيلا وجودها بعد نزول الوحى بقرون عديدة .

وتثبت هاتان الملاحظتان حقيقتين : **أولاهما** : أن الزعم الذى ردده عدد كبير من المستشرقين من أن محمداً ﷺ قد صاغ القرآن بمساعدة المصادر اليهودية أو المسيحية ـ يعد زعماً باطلاً ، إذ لو كانت هذه هى القضية لما كان القرآن محصّناً ضد الخلل والغلط بهذا الشكل ، ولما كان مختلفاً تماماً عن الكتاب المقدس ، كما أنه لو كان النبى عليه الصلاة والسلام هو مؤلف القرآن بمساعدة المصادر اليهودية أو المسيحية لأصبح طبيعياً أن يسلك المسلك الكتابى ، وإلا فما الذى يجبره مثلاً فى ذكره المسهب للنبى عيسى عليه السلام أن يتحاشى الإشارة إلى نسب أبيه (إذ

---

(١) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille) ، وكذلك تحت (Al-Ghamrawy).

(٢) انظر قائمة المراجع الأجنبية تحت (Bucaille)

ليس له أب) مختلفاً بذلك عما جاء فى إنجيل متى وإنجيل لوقا ؟ وكيف استطاع محمد ﷺ أن يحذر التناقضات بين النسخ اليهوية[1] والنسخ الكهنوتية للعهد القديم ، ثم يتجنبها كذلك عند ذكر نوح عليه السلام والطوفان ؟ ما الذى منعه من تفصيل موت فرعون عندما كان يصف خروج بنى إسرائيل ؟ لقد أضاف معلومة عن إنقاذ جسد الفرعون من الضياع فى البحر وحفظه كآية للأجيال التالية ، وهى معلومة لم توجد بأى مخطوط ، فكيف استطاع محمد عليه الصلاة والسلام أن يتعلم هذا ؟ أما الحقيقة الأخرى التى ينبغى تدبرها فهى أن القرآن الكريم لم يكتبه بشر بما فيهم محمد ﷺ نفسه ، وذلك لأنه لم يتمكن أى إنسان منذ أربعة عشر قرناً أن يقف موقفاً يدعى منه قدرته على العلم أو الحدس أو التصور للحقائق العلمية الموضحة والمفهومة من خلال الآيات كما ذكرنا فى الفصل الثانى .

لقد وضعت الثروة الهائلة من الأفكار المتدفقة ، والانفعالات والمعانى المتدافعة ، ومن الأسلوب الفذ الواضح الفريد ، مقرونة بالتماسك المتين للقرآن ، وكذلك غياب أى تناقضات بينه وبين العلم ـ كل هذا وضع القرآن الكريم فوق كل الكتب الأخرى .

وربما تكون أفضل طريقة لوصف القرآن أن نستشهد منه بما يعبّر به عن نفسه ، ختاما لهذا الكتاب :

﴿ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ صدق الله العظيم [البقرة آية ١ ـ ٥]

تم بحمد الله تعالى

---

(١) اليهوية : نسبة إلى يهوه إله العبرانيين . (المترجم) .

الملاحق

الملحق الأول
ترتيب سور القرآن

رقم السورة في المصحف	اسم السورة	الترتيب التنزيلي الصحيح	الترتيب المقترح من قبل كل من المستشرق			
			رودويل	جفري	موير	نولدكه
١	الفاتحة	٥	٨	–	٦	٤٨
٢	البقرة	٨٧	٩١	٥٤	غير مؤكد	٩١
٣	آل عمران	٨٩	٩٧	–	٢ـ١٠ بعد الهجرة	٩٧
٤	النساء	٩٢	١٠٠	٥٩	غير مؤكد	١٠٠
٥	المائدة	١١٢	١١٤	٦٠	٦ـ١٠ بعد الهجرة	١١٤
٦	الأنعام	٥٥	٨٩	–	٨١	٨٩
٧	الأعراف	٣٩	٨٧	–	٩١	٨٧
٨	الأنفال	٨٨	٩٥	–	٢ بعد الهجرة	٩٥
٩	التوبة	١١٣	١١٣	–	١١٤	١١٣
١٠	يونس	٥١	٨٤	–	٧٩	٨٤
١١	هود	٥٢	٧٥	–	٧٨	٧٥
١٢	يوسف	٥٣	٧٧	٤٩	٧٧	٧٧
١٣	الرعد	٩٦	٩٠	–	٨٩	٩٠
١٤	إبراهيم	٧٢	٧٦	–	٨٠	٧٦
١٥	الحجر	٥٤	٥٧	٤٠	٦٢	٥٧
١٦	النحل	٧٠	٧٣	٤٦	٨٨	٧٣
١٧	الإسراء	٥٠	٦٧	٤٤	٨٧	٦٧
١٨	الكهف	٦٩	٦٩	٤١	٦٩	٦٩
١٩	مريم	٤٤	٥٨	٥٠	٦٨	٥٨
٢٠	طه	٤٥	٥٥	٣٩	٧٥	٥٥
٢١	الأنبياء	٧٣	٦٥	–	٨٦	٦٥
٢٢	الحج	١٠٣	١٠٧	–	٨٥	١٠٧
٢٣	المؤمنون	٧٤	٦٤	–	٨٤	٦٤
٢٤	النور	١٠٢	١٠٥	–	٥ بعد الهجرة	١٠٥
٢٥	الفرقان	٤٢	٦٦	–	٧٤	٦٦
٢٦	الشعراء	٤٧	٥٦	٣٨	٦١	٥٦
٢٧	النمل	٤٨	٦٨	–	٧٠	٦٨
٢٨	القصص	٤٩	٧٩	–	٨٣	٧٩
٢٩	العنكبوت	٨٥	٨١	–	٩٠	٨١

رقم السورة فى المصحف	اسم السورة	الترتيب التنزيلى الصحيح	الترتيب المقترح من قبل كل من المستشرق			
			رودويل	جفرى	موير	نولدكه
٣٠	الروم	٨٤	٧٤	٤٧	٦٠	٧٤
٣١	لقمان	٥٧	٨٢	٤٨	٥٠	٨٢
٣٢	السجدة	٧٥	٧٠	٤٥	٤٤	٧٠
٣٣	الأحزاب	٩٠	١٠٣	–	غير مؤكد	١٠٣
٣٤	سبأ	٥٨	٨٥	–	٤٩	٨٥
٣٥	فاطر	٤٣	٨٦	–	٦٦	٨٦
٣٦	يس	٤١	٦٠	٤٢	٦٧	٦٠
٣٧	الصافات	٥٦	٥٠	٣٧	٥٩	٥٠
٣٨	ص	٣٨	٥٩	–	٧٣	٥٩
٣٩	الزمر	٥٩	٨٠	–	٤٥	٨٠
٤٠	غافر	٦٠	٧٨	–	٧٢	٧٨
٤١	فصلت	٦١	٧١	–	٥٣	٧١
٤٢	الشورى	٦٢	٨٣	–	٧١	٨٣
٤٣	الزخرف	٦٣	٦١	–	٧٦	٦١
٤٤	الدخان	٦٤	٥٣	–	٥٨	٥٣
٤٥	الجاثية	٦٥	٧٢	–	٥٧	٧٢
٤٦	الأحقاف	٦٦	٨٨	–	٦٤	٨٨
٤٧	محمد	٩٥	٩٦	–	غير مؤكد	٩٦
٤٨	الفتح	١١١	١٠٨	٥٣	٦ بعد الهجرة	١٠٨
٤٩	الحجرات	١٠٦	١١٢	–	غير مؤكد	١١٢
٥٠	ق	٣٤	٥٤	–	٥٦	٥٤
٥١	الذاريات	٦٧	٤٣	–	٦٣	٣٩
٥٢	الطور	٧٦	٤٤	–	٥٥	٤٠
٥٣	النجم	٢٣	٤٦	٢٥	٤٣	٢٨
٥٤	القمر	٣٧	٤٩	٣٦	٤٨	٤٩
٥٥	الرحمن	٩٧	٤٨	–	٤٠	٤٣
٥٦	الواقعة	٤٦	٤٥	–	٤١	٤١
٥٧	الحديد	٩٤	٩٩	–	غير مؤكد	٩٩
٥٨	المجادلة	١٠٥	١٠٦	–	غير مؤكد	١٠٦

رقم السورة فى المصحف	اسم السورة	الترتيب التنزيلى الصحيح	الترتيب المقترح من قبل كل من المستشرق			
			رودويل	جفرى	موير	نولدكه
٥٩	الحشر	١٠١	١٠٢	–	٤ بعد الهجرة	١٠٢
٦٠	الممتحنة	٩١	١١٠	–	٧ بعد الهجرة	١١٠
٦١	الصف	١٠٩	٩٨	–	غير مؤكد	٩٨
٦٢	الجمعة	١١٠	٩٤	–	غير مؤكد	٩٤
٦٣	المنافقون	١٠٤	١٠٤	–	٦٥ بعد الهجرة	١٠٤
٦٤	التغابن	١٠٨	٩٣	٥٢	٨٢	٩٣
٦٥	الطلاق	٩٩	١٠١	–	غير مؤكد	١٠١
٦٦	التحريم	١٠٧	١٠٩	–	٨ـ١ بعد الهجرة	١٠٩
٦٧	الملك	٧٧	٦٣	–	٤٢	٦٣
٦٨	القلم	٢	١٧	١٥	٥٢	١٨
٦٩	الحاقة	٧٨	٤٢	–	٥١	٣٨
٧٠	المعارج	٧٩	٤٧	–	٣٧	٤٢
٧١	نوح	٧١	٥١	٤٣	٥٤	٥١
٧٢	الجن	٤٠	٦٢	–	٦٥	٦٢
٧٣	المزمل	٣	٣	٢٠	٤٦	٢٣
٧٤	المدثر	٤	٢	٢	٢١	٢
٧٥	القيامة	٣١	٤٠	٣٣	٣٦	٣٦
٧٦	الإنسان	٩٨	٥٢	–	٣٥	٥٢
٧٧	المرسلات	٣٣	٣٦	٢٩	٣٤	٣٢
٧٨	النبأ	٨٠	٣٧	٣٠	٣٣	٣٣
٧٩	النازعات	٨١	٣٥	٢٨	٤٧	٣١
٨٠	عبس	٢٤	٢٤	١٤	٢٦	١٧
٨١	التكوير	٧	٣٢	٢٤	٢٧	١٧
٨٢	الانفطار	٨٢	٣١	٢٣	١١	٢٦
٨٣	المطففين	٨٦	٤١	–	٣٢	٣٧
٨٤	الانشقاق	٨٣	٣٣	٢٦	٢٨	٢٩
٨٥	البروج	٢٧	٢٨	١٩	٣١	٢٢
٨٦	الطارق	٣٦	٢٢	١٢	٢٩	١٥
٨٧	الأعلى	٨	٢٥	١٦	٢٣	١٩

رقم السورة في المصحف	اسم السورة	الترتيب التنزيلي الصحيح	الترتيب المقترح من قبل كل من المستشرق			
			رودويل	جفري	موير	نولدكه
٨٨	الغاشية	٦٨	٣٨	٣١	٢٥	٣٤
٨٩	الفجر	١٠	٣٩	٣٢	١٤	٣٥
٩٠	البلد	٣٥	١٨	٨	١٥	١١
٩١	الشمس	٢٦	٢٣	١٣	٤	١٦
٩٢	الليل	٩	١٦	٧	١٢	١٠
٩٣	الضحى	١١	٤	١٠	١٦	١٣
٩٤	الشرح	١٢	٥	٩	١٧	١٢
٩٥	التين	٢٨	٢٦	١٧	٨	٢٠
٩٦	العلق	١	١	١	١٩	١
٩٧	القدر	٢٥	٩٢	١١	٢٤	١٤
٩٨	البينة	١٠٠	٢٩	٥١	غير مؤكد	٩٢
٩٩	الزلزلة	٩٣	٣٠	٢٢	٣	٢٥
١٠٠	العاديات	١٤	٣٤	٢٧	٢	٣٠
١٠١	القارعة	٣٠	٢٩	٢١	٧	٢٤
١٠٢	التكاثر	١٦	١٥	٥٧	٩	٨
١٠٣	العصر	١٣	٢٧	١٨	١	٢١
١٠٤	الهمزة	٣٢	١٣	٥	١٠	٦
١٠٥	الفيل	١٩	١٩	٦	١٣	٩
١٠٦	قريش	٢٩	٢٠	٣	٥	٤
١٠٧	الماعون	١٧	١٤	٥٨	٣٩	٧
١٠٨	الكوثر	١٥	٩	٤	١٨	٥
١٠٩	الكافرون	١٨	١٢	٣٤	٣٨	٤٥
١١٠	النصر	١١٤	١١١	٥٦	٣٠	١١١
١١١	المسد	٦	١١	٥٥	٢٢	٣
١١٢	الإخلاص	٢٢	١٠	٣٥	٢٠	٤٤
١١٣	الفلق	٢٠	٦	٦١	غير مؤكد	٤٦
١١٤	الناس	٢١	٧	٦٢	غير مؤكد	٤٧

الملحق الثانى

السور التى تشتمل أجزاء مكية وتشتمل أيضاً أجزاء مدنية

الترتيب المصحفى	اسم السورة	عدد الآيات الكلى	مكان التنزيل	الآيات المستثناة	مكان نزول الآيات المستثناة
٢	البقرة	٢٨٦	المدينة	٢٨١	منى بالقرب من مكة
٥	المائدة	١٢٠	المدينة	٣	عرفات بالقرب من مكة
٦	الأنعام	١٦٥	مكة	٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣	المدينة
٧	الأعراف	٢٠٦	مكة	١٦٣، ١٧٠	المدينة
٨	الأنفال	٧٥	المدينة	٣٠، ٣٦	مكة
٩	التوبة	١٢٩	المدينة	١٢٨، ١٢٩	مكة
١٠	يونس	١٠٩	مكة	٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦	المدينة
١١	هود	١٢٣	مكة	١٢، ١٧، ١١٤	المدينة
١٢	يوسف	١١١	مكة	١، ٢، ٣، ٧	المدينة
١٤	إبراهيم	٥٢	مكة	٢٨، ٢٩	المدينة
١٦	النحل	١٢٨	مكة	١٢٦، ١٢٧، ١٢٨	المدينة
١٧	الإسراء	١١١	مكة	٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، (٧٣ـ٨٠)	المدينة
١٨	الكهف	١١٠	مكة	٣٨، (٨٣ ـ ١٠١)	المدينة
١٩	مريم	٩٨	مكة	٥٨، ٧١	المدينة
٢٠	طـه	١٣٥	مكة	١٣٠، ١٣١	المدينة
٢٢	الحج	٧٨	المدينة	٥٢ ـ ٥٥	بين مكة والمدينة
٢٥	الفرقان	٧٧	مكة	٦٨ ـ ٧٠	المدينة
٢٦	الشعراء	٢٢٧	مكة	١٩٧، (٢٢٤ ـ ٢٢٧)	المدينة
٢٨	القصص	٨٨	مكة	(٥٢ ـ ٥٥)،	المدينة
				(٨٥)	أثناء الحج فى الطريق من مكة إلى المدينة
٢٩	العنكبوت	٦٩	مكة	١ ـ ١١	المدينة
٣٠	الروم	٦٠	مكة	١٧	المدينة
٣١	لقمان	٣٤	مكة	٢٧ ـ ٢٩	المدينة
٣٢	السجدة	٣٠	مكة	١٦ ـ ٢٠	المدينة
٣٤	سبأ	٥٤	مكة	٦	المدينة
٣٦	يس	٨٣	مكة	٤٥	المدينة
٤٠	غافر	٨٥	مكة	٥٦ ـ ٥٧	المدينة
٤٢	الشورى	٥٣	مكة	٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧	المدينة

الترتيب المصحفى	اسم السورة	عدد الآيات الكلى	مكان التنزيل	الآيـات المستثناة	مكان نزول الآيات المستثناة
٤٣	الزخرف	٨٩	مكة	٥٤	المدينة
٤٥	الجاثية	٣٧	مكة	١٤	المدينة
٤٦	الأحقاف	٣٥	مكة	١٠، ١٥، ٣٥	المدينة
٤٧	محمد	٣٨	المدينة	١٣	أثناء الحج فى الطريق من مكة إلى المدينة
٥٣	النجم	٦٢	مكة	٣٢	المدينة
٥٦	الواقعة	٩٦	مكة	٨١ ـ ٨٢	المدينة
٦٨	القلم	٥٢	مكة	(١٧ـ ٣٣) ، (٤٨ ـ٥٠)	المدينة
٧٣	المزمل	٢٠	مكة	١٠، ١١، ٢٠	المدينة
٧٧	المرسلات	٥٠	مكة	٤٨	المدينة

قائمة المراجع العربية

١ ـ **القرآن الكريم** .

٢ ـ **صحيح البخارى** ـ دار الشهاب ـ القاهرة ١٩٦٤م .

٣ ـ **الإتقان فى علوم القرآن** ـ للحافظ جلال الدين السيوطى ـ دار الحلبى ـ القاهرة ـ ١٩٥١م .

٤ ـ **تفسير القرآن للقرطبى** ـ ٨ أجزاء ـ دار الشهاب ـ القاهرة ـ ١٩٦٠م .

٥ ـ **رياض الصالحين** ـ للإمام النووى ـ دار الجمهورية العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٠م .

٦ ـ **الرد الصحيح على من غيروا رسالة المسيح** ـ لابن تيمية ـ دار السنة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٩٣٠م .

٧ ـ **التفسير القرآنى للقرآن** ـ عبد الكريم الخطيب ـ دار الفكر ـ القاهرة ـ ١٩٧٠م .

٨ ـ **تفسير فى ظلال القرآن** ـ للشهيد سيد قطب ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م .

٩ ـ **محمد صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل** ـ محمد وصفى ـ القاهرة ـ ١٩٧٠م .

* * *

قائمة المراجع الأجنبية

'ABDEL-' ATI, H (I) *Islam in Focus* American Trust Publications, Indianda, 1977.

(II) *The Family Structure in Islam* American Trust Publications, Indiana, 1977.

ABDEL-RA'UF, M. Marriage in Islam Exposition Press, New York, 1972

ABU-SA'UD, M. *"Sex Roles: A Muslim Point of View"* Al-Ittihad, Vol. 15(3), 1978, pp. 31 - 38, MSA, Ind., U.S.A.

'ALI, A. The Spirit of Islam Christophers, London, 1949

'ALI, A. Y. *The Holy Qur'an, Text, Translation and Commentary* Dar-el- Arabiah, Beirut, 1968.

'ALI, H.A. The *Student's Qur'an: An Introduction* Bombay, 1961.

"ALI, M. *The Holy Qur'an: Arabic Text, Translation and Commentary* A.A. Lahore, II, 1951.

AMINE, R. *Seven Years in the Sun* Robert Hale, London, 1959.

ANDERSON, J.N. Ed. *The World Religions* Frank Cass, London, 1965.

ARBERRY, A.J. (I) *The Qur'an Interpreted* Allen & Unwin London, 1955.

(II) *Aspects of Islamic Civilization as Depicted in Oriental Texts* Allen & Unwin, London, 1964.

ARBERRY, A.J. & LANDAU, R. *Islam Today* Faber & London, 1943.

ARNOLD, T. W. The *Preaching of Islam Constable,* London, 1913.

ARNOLD, Sir Thomas & CUILIAUME, R Eds. *The Legacy of Islam* Oxford University Press, Oxfrod, 1968.

'AZZAM, A. *The Eternal Message of Muhammad* Mentor, London, 1964.

BALJON, J.M.S. *Modern Muslim Quran Interpretations* Leiden, Holland, 1968.

BELL, R. (I) *The Origin of Islam in its Christian Environment* Macmillan, London, 1926.

(II) *Introduction to the Quran* Edinburgh University Press, Edinburgh, 1958.

BETHMAN, E.W. *Bridge to Islam: A Study of the Religious Forces of Islam and Christianity in the Near East* Allen & Unwin, London, 1953.

BLACHERE, R. *Introduction au Coran* Adrien-Maison neuve, Paris, 1947.

BODLEY, R.V.C. *The Messenger: The Life of Mohammed* Doubleday, New York, 1946.

BRONOWSKI, J. *The Ascent of Man* BBC Puplications, London, 1977.
BUCAILLE, M. *The Bible, the Quran and Science* American Trust Publications, Indiana, 1978.
BURTON, J. *The Collection of the Quran* Cambridge University Press, Cambridge 1977.
CAIGER, S.L. *Lives of the Prophets* S.P.C.K. London, 1958.
CHAMPION, S.G. & SHORT, D. *Reading From World Religions* Fawcett, Greenwich (U.S.A.), 1959.
CHESTERTON, G.H. *St Francis of Assisi* Hodder & Stoughton, London, 1944.
Concise Oxford Dictionary of Current English ed. H. Fowler and F. Fowler, 5th edn., Oxford at the Clarendon Press, 1964.
COULSON, N. *History of Islamic Low* Edinburgh University Press, Edinburgh, 1964.
CRAGG, K. (I) *The Call of the Minaret* Oxford University Press, Oxford, 1956.
(II) *Counsels in Contemporary Islam* Edinburgh University Press, Edinburgh, 1965.
DANIEL, N. *Islam and the West: The Making of an Image* Edinburgh University Press, Edinburgh, 1966.
DOI, A.R. *The Cardinal Principals of Islam* Islamic Publications Bureau, Lagos, 1977.
DRAYCOTT, G.M. *Mahomet, Founder of Islam* Martin Secker, London, 1916.
DRAZ, M.A. *The Qur'anic Constitution of Morals* Dar-el-Ma' arif Cairo, 1945.
The New Encyclopaedia Britannica, 30 Vols, 15th Edition, Encyclopaedia Britannica Inc., London, 1978.
GAIRDNER, W. *The Reproach of Islam* Society for the Propagation of the Gospel, London, 1910.
GALWASH, A. *The Religion of Islam* 2 Vols, Hapner, New York, 1941.
GARDNER, J. *The Faiths of the World* 2 Vols, 4 Fullarton, 1920.
AL-GEZEIRY, A.R. *Proofs in Answering the Balance of Truth* (Arabic) Allrshad, Cairo, 1934.
AL-GHAMRAWY, M.A. *Glimpses of the Scientific Unattainable Marvels of the Qur'an* Dar-el-Ma' arif, Cairo, 1977
GIBB, H.A.R. (I) *Mohammedanism: An Historical* Survey Oxford University Press, Oxford, 1961.

(II) *Studies of Civilization of Islam* routledge, Kegan Paul, London, 1962.
GLUBB, J.B. *The Life and Times of Muhammad* Hodder & Stoughton, London, 1970.
GOITIEN, S. *Jews and Arabs: Their Contacts Through the Ages* Schoken Books, New York, 1964.
GOUDAH AS-SAHHAR 'Comments on Bodley's Book" (Arabic), *Al-E'tesam* Magazine Cairo June 1973 .
GRAMONTS, de P. "Mohammad, the Prophet Armed", *Horizon,* vol. XIII (3) Summer 1971, pp. 5 - 11.
GRUNEBAUM, von G.E. Islam: *Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition* Routledge & Kegan Paul, London, 1955.
GUILLAUME, A. *Islam* Penguin Books, 1954; Pelican Books, Harmondsworth, 1961.
HAIDAR, M. *Arabesque* Sphere Books, London, 1968.
HASTINGS', *Dictionary of the Bible* Scribners, New York, 1964.
HIRSCHFELD, H. *New Researches into the Composition of the Koran,* University of London Press, London, 1902.
HITTI, P. *Islam and the West* Van Nostrand, New York, 1962.
HUGHES, T.P. *Notes on Mohammedanism,* Allen London, 1894.
HYDE, L.S. *Favourite Greek Myths* Heath, London, 1925.
IBN-HAGAR *Fathil-Bary-fi-Sahih - Bukhary* (Arabic Classic), 9 Vols, Dar-el-Sha'b, Cairo, 1963.
JAMILAH, M. *Islam and Orientalism* M. Khan, Lahore 1971.
JEFFERY, A. (I) *The Koran as Scripture,* Heritage Press, New York, 1952.
(II) *The Koran: Selected suras Translated* Heritage Press, New York, 1982.
(III) *Islam, Mohammad and His Religion* Lib. Art Press, New York, 1958.
KHALIFA, E. Mass *Commumication and the Muslim Society* Anglo-Egyptian Press Cairo, 1980.
KHALIFA, R. (I) *Miracle of the Qur'an: Significance of the Mysterious Alphabet* Islamic Productions, St Louis, 1973.
(II) "Miracle of the Qur'an" *Islam,* Magazine, Vol. I, No, 2, 1974, U.S.A.
KHALIFA, S.M. *The Fifth Pillar* Exposition Press, New York, 1977.
KRITZECK, J. Ed. *Anthology of Islamic Literature* Penguin Books, Harmondsworth, 1964.
LAMMENS, H. *Islam, Beliefs and Institutions* Frank Cass, London, 1968.
LANE, E.W. *Selections from the Qur'an with an Interwoven Commentary* James Madden, London, 1843.
LEVY, R. *The Social Structure of Islam* Cambridge University Press, Cambridge, 1962.

LEWIS, H.D. *World Religons: Meeting Points and Major Issues* C. Watts, London, 1966.
LINGS, M. *What is Sufism?* Allen & Unwin, London, 1975.
LOFTS, N. *The Lute Player* Corgi Books , London, 1974.
MACDONALD, D.B. *Development of Muslim Theology Jurisprudence and Constitutional Theory,* C. Scribners, New York, 1926.
MARGOLIOUTH, D.S. (I) *The Early Development of Mohammedanism,* Williams and Norgate, London, 1914.
(II) *Mohammedanism* Butterworth, London, 1928.
MENEZES, F.J.L. *The Life and Religion of Mohammed, the Prophet of Arabia Sands,* London, 1911.
MINGANA, A. *Syriac Influence on the Style of the Koran,* Manchester University Press, Manchester 1927.
MOODY, R.A, Jr. *Life After Life* Bantam Books, New York, 1977.
MORGAN, K.W.Ed. *Islam Interpreted by Muslims* Ronald Press, London, 1958.
MORGAN, M.M. *The Messiah: A Man or a God?* (Arabic) Dar-el-Nahdah, Cairo, 1970
MUFASSIR, S. *'Jesus in the Qur'an" Islam,* Vol 1 (I), 1974, U.S.A.
MUIR, W. *Life of Mahomet* 4 Vols, Smith London, 1860.
NAIPAUL, V.S. *Among the Believers, An Islamic Journey,* Andre Deutsch, London, 1981.
NE'NA'A, R.M. "The Hebrew Legends and Qur'anic Exegesis" Ph. D. Thesis, al-' Azhar University Cairo, 1970.
Newsweek (I) 3 April, 1972, p. 39.
(II) 4 June, 1973, p. 54.
PALMER, E. *The Koran* With an Introduction by Nicholson, first published 1880, Oxford University Press, London, 1928.
PARRINDER, G. *The World's Living Religions* Pan Books, London, 1964.
PICKTHALL, M. *The Meaning of the Glorious Qur'an* Dar-el-kitab, Beirut, 1972.
PRIDEAUX, H. *La Vie de Mahomet,* Gallet, Paris, 1889.
QUR'AN-AL-HUDA, Magazine, Vol. 3, II, p. 22, Karachi, Pakistan, April 1977.
ROBERTS, R. *The Social Laws of the Quran,* Williams and Norgate, London, 1925.
RODINSON, M. (I) *Islam and Capitalism* Pelican Books, harmondsworth, 1977.
(II) *Mohammad* Penguin Books, Harmondsworth, 1977.

RODWELL, J.M. The Koran Dent, London, 1909.
SALE, G. *The Koran: Commonly Called Al-Quran, with a Preliminary Discourse* (first published, 1734), 2 Vols, Fredrick Warne, London, 1899.
SAVARY, M. *Le Koran; traduit de L'Arabe,* Garnier Freres, Paris, 1883.
SCHACHT, J. *The Origin of Mohammedan Jurisprudence* Oxford University Press, Oxfrod, 1953.
SMITH, W. *Islam in Modern History* Princeton University Press, New jersey, 1957.
SOMMER, A. & ZWEMER, S *Our Moslem* Sisters F. W. Revel, New York, 1907.
SPRENGER, S., *Life of Mohannad* Allahabad, India, 1851.
STOBART, J. W. *Islam and its founder* S.P.C.K., London, 1876.
SWEETMAN, J., *Islam and Christian Theology,* 2 Vols., Lutterworth, London, 1945.
Time Magazine (I) 14 July, 1975, p. 34.
(II) 16 April, 1979.
(III) 23 April, 1979.
(IV) 11 June, 1979.
TRIMINGHAM, J.S. (I) *The Influence of Islam upon Africa* Longman Green & co., London, 1968.
(II) *Islam in Ehtiopia* Frank Cass, London, 1976.
TRITTON, A.S. *Islam: Belief and Practice,* Hutchinson, London, 1962 .
WANSBROUGH, J. *Qur'anic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretations* Oxford University Press, Oxford, 1977.
WATT, W.M. (I) *Free Will and Predestination if Early Islam* Luzac, London, 1948.
(II) Muhammad: *Prophet and Statesman* Oxford University Press, Oxford 1961.
WELLS, H.G. *The Outline of History* 2 vols, Garden City, New York, 1961.
WILLIAMS, J.A. Ed. *Islam,* Washington Square Press, 1963.
WOLLASTON, A.N. *The Religion of the Koran* Sh. Ashraf, Lahore 1905.
ZAEHNER, R.C. *Hindu and Muslim Mysticism* University of London Press, London, 1960.
ZWEMER, S.M.(I) *The Moslem Christ* Oliphant, Edinburgh, 1912.
(II) *Mohammed or Christ Seely,* London, 1916 .
(III) *The Influence of Animism on Islam: An Account of Popular Superstitions* MacMillan, New York, 1920.

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضـــــوع

الصفحة	الموضـــــوع

الصفحة	الموضـــوع
١٨٧	**الباب الثانى**

الصفحة	الموضـــــوع
٢٥٧	بنو النضـــــير
٢٥٨	بنو قريظـــــة
٢٦٢	يهود خيـــــبر
٢٦٣	موقف القرآن من المشركين وغيرهم
٢٦٣	كيف تم تقديم الإسلام إلى الآخرين ؟
٢٧٥	**الفصل الثاني عشر : (قانون الأخلاق الإسلامى)**
٢٧٥	الوحى فى مقابل الأخلاق النسبية
٢٧٩	التصرف الإنسانى والوازع الأخلاقى والحكم الإلهى
٢٨٥	موضوع الصحة الخلقية والعقلية والجسمية
٢٩٠	الكسب والإنفاق
٢٩٧	حياة الأسرة
٢٩٧	الزواج
٣٠٠	الزيجات المحرمة
٣٠١	تعدد الزوجات
٣٠٦	الطلاق : متى ؟ وكيف ؟
٣٠٩	وضع النساء
٣١٦	علاقات الآباء بالأبناء
٣١٨	موقف القرآن من الرق
٣٢٢	الخلاصـــة
٣٢٧	**الفصل الثالث عشر : (القضاء والقدر وحرية الإرادة)**
٣٢٩	هل يبشر القرآن بالجبرية ؟
٣٣٢	فماذا يقول القرآن حول هذا الموضوع ؟
٣٤٠	القرآن فى مقابل السنة
٣٤٤	الخلاصـــة

الصفحة	الموضـــوع
٣٤٧	**الفصل الرابع عشر : (القرآن والعالم الميتافيزيقى)**
٣٤٨	الروح
٣٤٨	النفس والقلب
٣٥١	الموت والقبر
٣٥٢	البعث
٣٥٦	الحساب
٣٥٨	نار جهنم
٣٥٩	النعـــيم
٣٦٠	الملائكة
٣٦٢	الجـــن
٣٦٤	الخلاصـــة
٣٦٥	**الخاتمـــة**
٣٦٩	**الملاحـــق**
٣٧١	**الملحق الأول** : (ترتيب سور القرآن)
٣٧٥	**الملحق الثانى** : (السور التى تشتمل أجزاء مكية وتشتمل أيضاً أجزاء مدنية) .
٣٧٧	قائمة المراجع العربية
٣٧٨	قائمة المراجع الأجنبية
٣٨٣	موضوعات الكتاب

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٢٤٩/ ١٩٩٤

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١

دار الاعتصام
للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازى ـ القاهرة
هاتف : ٣٥٥١٧٤٨ ـ ٣٥٤٤٧٤٨ ـ فاكس : ٣٥٤٦٠٣١
ص.ب : ٤٧٠ القاهرة ـ الرمز البريدى ١١٥١١

وكيلنا فى المملكة المغربية
دار المعرفة
40 شارع فيكتور هيكو - الدار البيضاء
ص.ب 4150 — ت 300567-309520